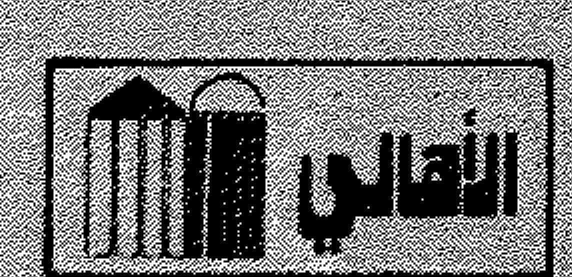
جوان أوبريين

أساطير وخرافات صينية

中国神话与民间传说

神

ترجمة لينا الحاج معلا



أساطير وخرافات صينية

* أساطير وخرافات صينية

* جوان أوبريين، ترجمة : لينا الحاج معلا

* الطبعة الأولى ـ ٥ / ١٩٩٥

* الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق ـ هاتف : ٣٣٢٠٢٩٩ ـ ص.ب ٩٥٠٣ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦

فاكس : ٣٣٣٥٤٢٧

* التوزيع :

قسم التوزيع ـ الأهالي للنشر والتوزيع

دمشق ـ هاتف: ٢٢١٣٩٦٢ ـ ص.ب: ٩٢٢٣ ـ تلكس: ٤١٢٤١٦

فاكس : ٣٣٣٥٤٢٧

* تصميم الغلاف : زكريا الشريف

جـوان أوبريين

أساطير وخرافات صينية

ترجمة : لينا الحاج معلا

عنوان الكتاب الأصلي :

Chinese Myths and legends

Joanne O'Brien

مقـــدمـــة

بقلم: مارتن بالمر

يحظى الشعب الصيني بمجموعة من أقدم مجموعات الأدب في العالم. ولقد انتقلت خرافاتهم وأساطيرهم، والتي يعود تاريخها إلى أكثر من ألفي عام قبل الميلاد، إلى قرننا الحالي عبر التراثين المَحكي والمكتوب. وبما أننا نميل بطبعنا إلى التاريخيات والقصائد والصلوات والقصص التي تنحدر من زمن كانت فيه الأهرامات لاتزال طرية العود، فلا غرو إذا ماكتشفنا أنَّ لدى الصين مخزناً من أكثر مخازن الحكايا والخرافات ثراء.

يُعنى قدر كبير من أدب الصين الموغل في القدم بتاريخ الأُسر الحاكمة الذي يتألف من قصص جميلة السرد، ترسم الخطوط الكبرى لبدايات الدولة الصينية والشعب الصيني. وقد استخدم معلمو الدين العِظام، لاسيما الطاويون والبوذيون منهم، سرد القصص كطريقة رئيسية لنشر معتقدات أديانهم. وكانت أمور الانشغال التام بالأشباح والموتى والقوى الخارقة للطبيعة، بالإضافة إلى روايات خيالية تفسر كيفية تشكل الأشياء، دائمة الحضور في الصين إلى حدٍّ حتم على كونفوشيوس، النزَّاع إلى

الشـك، الإقـرار بهـا، على الرغم من أنه كان يأبى التعليق على ماهو خارق للطبيعـة، قائـلاً أن لديـه من المتـاعب مايكفيـه حين يحاول معرفة كُنه هذا العالم، بغضِّ النظر عن ذكر أي عالم آخر.

تشكل الكتابات المثقفة الغابرة وحكايا الناس الشعبية الشفهية منهلاً أصلياً للأساطير والخرافات الصينية. وقد نشأ تراث الكتابات المثقفة الأول من متطلبـات الاختبـار الصيني الـذي كان صارمـاً وذا صفـة رسميـة. وكان العلمـاء يمضـون قرابـة عشـرين عامـاً، أو ماينوف على ذلك، في استظهار كلاسيكيات كونفوشيوس، الذي عاش في الفترة ٥٥١ ـ ٤٧٩ قبل الميلاد.

وكان كونفوشيوس قد عاد بنظره إلى القصص التي تضمنتها السجلات المكتوبة الغابرة، ووجد فيها مارآه وصفاً للطريقة المثلى لحكم بلد وسكانه، ومنها طوَّر نظرياته عن فن الحكم والعلاقات الملائمة ضمن الأسرة، وكانت هذه النظـريـات مبنيـة على أسـاس احتـرام الصغير لِمَنْ هم أكبـر منه سناً، واحترام الإناث للذكور، والابن لأبيه، والشعب لإمبراطوره. وكانت هذه هي القيم التي تشـرَّبها العلماء عند قراءتهم لنصوص كونفوشيوس الكلاسيكية. ثم كان من المتـوقـع منهم أن يكـونـوا قادرين على استخـدام شواهـد وصور إيضـاحية من هذه النصوص، المعروفة بإسم الكلاسيكيات الخمس، لحل المعضـلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية اليومية التي كانوا مدعوين، بصفتهم الطبقـة الحـاكمـة، إلى معـالجتهـا. ولم يقـدم هذا التقيد الصارم بالكـلاسيكيـات الخمس وأسلوب الأدب الـذي كانت تجسده، إلى الكتابة الإبـداعيـة إلاَّ النـزر اليسيـر من الفـائدة. وتميل القصص التي قدَّمها كُتَّاب غرفـوا من منـاهـل الثقـافة في ظل هذا النظام والتي استمرت لأكثر من ألفي عام، إلى كونهـا قصصـاً أخـلاقيـة، أو حكـايـا يُقتدى بها، متخذة شخصية تاريخيـة يُركـز سلوكهـا الضـوء على قيم كونفوشيوس أو أحد تعاليمه. وتفتقر

بحد ذاتها إلى حيويةٍ يتسم بها مصدر رئيسي آخر من مصادر الأساطير والخرافات الصينية، ألا وهو حكايا الناس أو الحكايا الشعبية.

علاوة على ذلك، لم يكن الكونفوشيوسيون يميلون إلى العبث بما هو خارق للطبيعة، إذ كانوا يرون أنفسهم يتعاملون إجمالاً مع حقائق يمكن إثباتها أو التحقق منها كالتاريخ والجغرافيا والسيرة. وتُركت المنطقة الظليلة من الخرافة والأسطورة إلى الجانب الآخر من عالم سرد القصص الصينية: العالم الديني والشعبي.

وبمنأى عن الكونفوشيوسية، التي لاتعتبر ديناً على الأغلب بل أقرب ماتكون إلى دستور للحياة والحكم، ثمة نظامان آخران للعقائد، أو دينان آخران شكّلا المجتمع الصيني، وهما الطاوية والبوذية.

ومن هاتين العقيدتين والدين الشعبي للناس العاديين تأتي معظم حكايا وخرافات هذا الكتاب. وتنحدر الطاوية المعاصرة من الشامانية[1]، وهي أقدم دين في الصين. وتعتقد الشامانية، التي لاتزال قيد الممارسة إلى يومنا هذا في اليابان والصين بل حتى في سيبيريا، موطنها الأصلي، بوجود عالمين متوازيين: عالمنا المادي، وعالم روحي. ويؤثر العالم الروحي على عالمنا المادي ويشارك فيه، إلا أننا في هذا العالم المادي لانملك مدخلاً إلى العالم الروحي. لكن العالمين، على أية حال، يلتقيان عبر وساطة الشامان.

وفي وسع الشامان عن طريق الانتشاء وعن طريق استحواذ العالم

---

١ ـ الشامانية: دين بدائي من أديان شمالي آسيا وأوروبا يتميز بالاعتقاد بوجود عالم محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف، وبأن هذا العالم لايستجيب إلاّ للشامان، وهو كاهن يستخدم السحر لمعالجة المرضى ولكشف المخبّأ وللسيطرة على الأحداث. (قاموس المورد).

الـروحي عليـه أن يصـل بين العـالمين. وتصبـغ وجهة نظر العالم الشاماني العـالم المـادي بقـوى روحيـة تُظهـر نفسهـا من خلال قوى الطبيعـة. ترى الشامانية إذن أنَّ دور الانسانية يتجلى بالسير على درب دقيق، درب يشير إليه ويحـدِّد معـالمـه العـالم الـروحي، وبـالالتزام بأسلوب التعبير عنه عبر قوى الطبيعة وترتيب العالم.

وتضـرب الطـاويـة جذورهـا في الشـامـانية. واسم الطاوية مشتق من الكلمة الصينية «طاو» وخير مايمكن ترجمة معناها هو «الطريق» أو «الدرب». وتشيـر إلى الـدرب أو الطـريق الطبيعي الكـوني الـذي رسمته السماء والذي يتحتم على الأرض والانسانية اتباعه. فإذا ماأخفق المرء في اتباع الطريق جرَّ على نفسـه الـويـلات والحـزن لأنـه يكـون قد خرج عندئذ عن السير، وعن الانسجام، مع طريق الأشياء الطبيعي.

ثمـة تعبيـران للطـاويـة، نشأ الشكـل الأول منهما من كتابات وتعاليم الحكيم لاو ـ تزو، ومن المفتـرض أنـه عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ووضـع كتـابـاً يعـرف باسم «طاو ـ تي ـ تشنغ» والذي تعني ترجمته التقريبية «كتاب الطريق».

من هذا الكتاب الذي يفترض أنَّ الحكيم يتدفق مع الجدول، ويميل مع الـريـح، ظافـراً لكـونـه قد غدا جزءاً من ترتيب الكـون الطبيعي، نشأت مدرسـة فلسفيـة وطـريقـة للحياة. وفي وسعنا أن نجد، حتى في يومنا هذا، الحكمـاء الطـاويين الـذين يعيشـون حيـاة تأمـل هادئـة في الغـابات أو في الجبـال. وبـانسحـابهم من العـالم المـزدحم المنظم الـذي كانت تحكمه كونفـوشيـوسيـة الـدولـة، غمـر الحكمـاء أنفسهم بالتأمل وبتدريبات خاصة صمِّمت للتشاور، لا في الحكمة والقوى السحرية فحسب، بل في الخلود.

ولا يـزال هذا البحث عن الخلود كامنـاً في لُبِّ الكثيـر من القصص والطقوس الطاوية. ويعتقد الطاويون أنك إذا ماتناغمت مع قوى الين واليـانغ[٢] الكونية، عشت إلى الأبد. ونجد باستمرار «رجال الجبال» الغرباء هؤلاء، أي الخبـراء الطـاويين، في حكايا وخرافات الصين. وإلى جانبهم يقف الخـالـدون أنفسهم، والـذين يظهـرون في الحكـايا كأصدقاء لمن لا أصدقاء لهم، وكمدافعين عن الفقراء والضعفاء.

وتستحوذ أسطورة «جبال الرجال الخمسة» على الكثير من هذه الأفكار.

قليلون هم مَنْ في وسعهم التحليق إلى حالة الحكيم، وأقل منهم مَن في وسعهم أن يأملوا الخلود. لذا نشأ شكل من أكثر أشكال الطاوية شعبية، كانت فيـه القـوى الإلهيـة، على هيئـة أربـاب وربـات، والتعاويذ السحرية والكهنـة تعـرض طريقـاً إلى إحسـاس بالخلاص ومعنى لهذه الحياة والحياة القـادمـة، إن لـم تكن تعـرض طريقـاً إلى الخلود. وفي أواخـر القرن الثاني الميـلادي ظهـر زعمـاء للطـاويـة الشعبيـة راحـوا يقدمون الشفاء في الحياة الحاضرة، والخلاص أو السعادة في الحياة القادمة.

وكـان أبـرزهم تشـانـغ ـ تاو ـ لنـغ الـذي يقف نموذجاً أصلياً للكاهن الطـاوي ولـزعيم الطـاويـة الشعبية. ونُقل عنه أنه كان ساحراً ومعالجاً وكاهناً وطارداً للأرواح الشريرة، ولاتزال تعاويذه السحرية تنشر كل عام في التقويم

---

٢ ـ الين واليانغ: الأثيران اللذان خرجا من انقسام الخلية الأصلية للأثير البدائي تشي. الين مؤنث مظلم سلبي، وهو من الأرض، واليانغ مذكر مشرق إيجابي، وهو من السموات.
(معجم الأساطير. ماكس شابيرو، ر.د.ا هندريكس. ترجمة حنا عبود، دار الكندي للنشر والتوزيع. طبعة ١٩٨٩).

السنوي، وهو أكثر كتب الصين شعبية خارج الجزء الرئيسي من الصين. كما ظل سيفه، الذي كان يستخدمه لطرد الأشباح، مُعلقاً إلى عام **١٩٣٠** في فناء معبد فسيح الأرجاء، حيث كان المنحدرون من سلالته يعيشون منذ القرن التاسع.

ولاتزال طقوسه وتعاويذه السحرية قيد الاستعمال إلى يومنا هذا بين الجماعات الصينية في أرجاء العالم. ومع ذلك، كان تشانغ ـ تاو ـ لنغ ثائراً وأسَّس ما أصبح، لفترة قصيرة من الزمن، دولة مستقلة. وتصور أسطورة «زفاف الجرذان» أحد المنحدرين من سلالته وكان وعاء للقوى السحرية كلها التي رافقت تشانغ.

ويتأرجح الطاويون الذين يظهرون في قصص وحكايا هذا الكتاب بين طرفي الحكيم والكاهن الساحر. الحكيم هو رمز الهدوء والحكمة، أما الكاهن الطاوي فأكثر تعقيداً، إذ أنه أحياناً هو الذي يستجلب الحكمة ويحلّ المعضلات، كتردد الأشباح على شخص أو مكان، وأحياناً أخرى هو المشعوذ، والتافه الذي لايصلح لشيء، وهو الذي يسبب المتاعب ويخدع الناس البسطاء. وهذا يعكس بدقة النماذج المختلفة للكهنة الذين عاشوا في الصين القديمة.

أما البوذية فهي ثاني الأديان الرئيسية في الصين. ولم تنشأ البوذية في الصين أصلاً، إذ أن بوذا عاش في الهند الشمالية قبل خمسمائة عام من الميلاد على وجه التقريب، ونشرت جماعات الرهبان تعاليمه التي أسسها، إلا أنها استغرقت فترة من الزمن قبل أن تصل إلى الصين. وعلى حد علمنا، فإنَّ أقدم دليل عن البوذية في الصين يعود إلى زمن المسيح تقريباً. وحين وصلت البوذية إلى الصين، كان بوذا قد كفَّ وقتها عن كونه إنساناً عادياً، وأصبح أحد قاطني السماء مع جميع القوى الناجمة عن ذلك.

لم تكـون البـوذيـة، كدين أجنبي، مقبـولـة لدى الكـونفـوشيـوسية أو الطاوية، وقد شعر الطاويون، في الواقع، أن البوذية تهددهم في الأعماق، ومن المحتمـل أن تكـون الطاوية الشعبية قد نشأت كمحاولة لمقارعة البوذية أكثر من كونها قد نشأت لأي سبب آخر.

واستهلكت البـوذيـة مئـات كثيـرة من السنين لإرسـاء دعـائمهـا في الصين. ولايمكن القول أن البوذية أصبحت جزءاً مقبولاً من الحياة الصينية إلاَّ بعـد الاضطهـاد الرئيسي الأخير لهذا الدين في القرن التاسع. وكان أحد أسبـاب هذه الفتـرة الطـويلة من التمثل والاستيعاب هو نفور الصينيين الحاد من فكرة الرهبان العازبين. كانت كارثة في نظر الصيني ألاَّ يكون له أسرة إذ أنَّ عبـادة السلف شكلت جزءاً لايتجـزأ من الحيـاة الصينيـة، في حين أن العـزوبيـة كانت تنـذر بتفكيـك عُرى الأسـرة، وكـان غيـاب الأطفال ضربة لصميم المجتمـع الصيني بالـذات. وقـد استمـر الارتياب بالرهبان وفقدان الاحترام إزاءهم إلى يومنا هذا، ويتم التعبير عن ذلك باستمرار في القصص والروايات العظيمة في الصين.

قد يُعامل الراهب البوذي بلطف، وقد يُرحب به في أوقات محددة في حيـاة أسـرة، إلاَّ أنـه مع ذلـك يبقى موضـع ارتياب. علاوة على ذلك، وفي حين أن الطـاويين كانـوا نادراً مايميلون إلى الصيـام والامتنـاع عن الجنس وتعـاطي المشـروبـات (مـاعـدا الحكمـاء الـذين كانوا يبدون من عالم آخر تقريباً)، كان يتعين على الرهبان البوذيين أن يعيشوا وفق مبادىء دينهم والتي كانت تُحظـر تعـاطي المشـروب والعلاقات الجنسية بل، وفي أحوال كثيرة، تنـاول اللحم أيضـاً. وهـذا ماجعلهم معـزولين، وكثيـرة هي القصص التي تحكي، وعلى نحـو مرح، عن استغـلال رهبـان بوذيين وراهبـات بوذيـات للعـلاقـات الجنسيـة والمشروبات الروحية وتناول اللحم. ويتجلى هذا في

أسطـورة «الـراهب المجنـون» الطاوية والتي يبدو فيها سلوك الراهب البوذي تهكماً مدروساً بالبوذية.

وبلغـة الـدين والثقـافـة الشعبيين عنـد عامة الصين، جاء تأثير البوذية الرئيسي عبر الآلهة التي طرحتها، وعبر فكرة أنَّ ثمة ميزاناً للأعمال الجديرة بالتقـديـر والتي لو اتَّبعتهـا لقادتك إلى السماء، أوعلى الأقل إلى ولادة ثانية حسنة. وليس ثمة من هو أكثر شهرة وشعبية بين الأرباب والربات من البـوديسـاتفـا[٣] كوان ـ ين. ويشير مصطلح البوديساتفا إلى شخص بلغ، عبر ولادات ثانيـة كثيـرة لاتحصى، شأواً كبيراً من الكمال والطيبة إلى حدٍّ أنه لم يعـد يتحتم عليـه أن يولـد مرة أخـرى، بل يستطيع العبور بدلاً من ذلك إلى الحـريـة المطلقـة، وهي حالـة النيـرفـانـا. ونجـد شرحاً لذلك في أسطورة «كوان ـ ين». على أي حال، لاتمُرُّ البوديساتفات بحالة النيرفانا.

وتهتم البـوديساتفات بمعاناة الناس والمخلوقات على سطح الأرض، وفي مقـدورهـا أن ترى أن معظم النـاس، بأعمـالهم بالذات، عاجزون عن التحليق إلى مستـوى الطيبـة فيفلتون بذلك من عجلة الولادة الثانية والحزن والألم والمـوت فالـولادة الثـانيـة. لذا، وبغيـة مدِّ يد العـون لهم، تتـراجـع البـوديسـاتفا من الإعتاق الأخير، وإذا مادعاها أحد للمساعدة، حاولت تلبية النداء. وكوان ـ ين، الإلهة الأم، أكثر البوديساتفات شعبية لأنها تقدم العون لكـل من يطلبـه. وهي حكيمـة ولطيفـة إلاَّ أنهـا صارمـة، وتأتي لمسـاعـدة الأمهات والصغار ولكنها، أيضاً، تحمي الفقراء والضعفاء.

---

٣ ـ البـوديسـاتفـا: هو اسم بوذا المستقبـلي الـذي دخـل رحم مايـا على شكل فيل أبيض. وللبـوديسـاتفا تجسدات كثيرة. (معجم الأساطير: ماكس شابيرو ـ رودا هندريكس. ترجمة حنا عبود. دار الكندي للنشر والتوزيع. طبعة ١٩٨٩).

وهنـا، ربمـا، يكمن أهم مفتـاح لفهم الأسـاطيـر في هذا الكتـاب: الفقـراء والضعفـاء. فالأساطير التي نقدمها هنا هي ترجمات من مجموعات من الحكـايـا نشـرت من أجل سكان الصين العاديين، أوسردوها بأنفسهم. ويُشـاهـد فيها الضعفاء والفقراء، والبسطاء والذين لاحول لهم ولا قوة، وهم ينتصرون على المتكبرين والأثرياء والمثقفين والفاسدين. إنه الرجل الصغير ضد العـالم. وإحـدى أفضل الأمثلة على ذلك هي أسطورة «ما ـ تشن وقلم الـرسم الخـالـد» التي لاينـال فيهـا الموظف المحلي الفاسد والشرير جزاءه العادل فحسب، بل هذا مايناله أيضاً الامبراطور الشرير. كان سكان الصين المظلومون في أحوال كثيرة يجدون في هذه الأساطير الأمل والارتياح. فهنا صُور لِمـا كان الفـلاحون والعمال يأملون أن يحدث. وكون ذلك لم يحدث إلَّا نادراً يجعـل الأسـاطيـر أكثـر تأثيـراً. وفي هذه الفئة تأتي قصص «الهدية الخـاصـة» التي يتلقَّى فيهـا شخص فقيـر أومتواضع هدية سحرية خرافية تغير حياته (أو حياتها). ويزيد ربط هذا الأمر بطهارة القلب من حدة وقوة التباين مع الموظفين الجشعين المحيطين ببطل الأسطورة. وتلفت أسطورة «عازف الناي الأبكم» الانتباه إلى هذا الأمر على نحو تام.

وأخيـراً ثمـة بضعـة مصطلحـات أساسية تحتاج إلى شرح وجيز. لقد سبق أن ذكـرنـا الين واليـانـغ. في التفكير الصيني، مايُبقي العالم، والكون بأكمله في الـواقـع، في حالـة حركة هووجود الين واليانغ. والين واليانغ هما الضـدان الكـامـلان: الظـلام والضـوء، الأنثى والذكر، البرودة والسخونة، الرطوبة والنارية، الأسود والأبيض، وهلم جراً.

والصـــراع على السيـادة بين هاتين القـوتين هومايجعـل العـالم يدور والحيـاة تتحـرك. وليس في مقـدور أي منهمـا أن يفـوز أبداً، إلَّا أن توتُّرهما الـدينـاميكي هو الـذي يدعم قوى الحيـاة في الكون. وليسـا إلهين، بل هما

قوتان أساسيتان من قوى الطبيعة ومن الوجود كله. وغالباً مايُشار إلى السماء في هذه الأساطير، إلا أن السماء هنا ليست سماء القصص المسيحية، بل واحدة من مجموعات الكون الرئيسية الثلاث. المجموعتان الأخريتان هما الأرض والإنسانية. وبين المجموعات الثلاث توجد السمات الرئيسية للين واليانغ. السماء هي اليانغ والأرض هي الين، وبينهما تجلس الانسانية مؤلفة من الين واليانغ معاً، ومن الأرض المتصلة بالسماء. وفي داخل كل بشريٍّ توجد قوى السماء والأرض متشابكة، ونحن من نساعد على إبقاء التوازن بين قوى وقدرات الكون. كان دائماً يُشار إلى امبراطور الصين على أنه ابن السماء. وكان يقدم القرابين كل عام للسماء والأرض بغية استعادة توازن الكون. ولاينبغي النظر إلى السماء والأرض على أنهما إلهان، أوحتى على أنهما الله. مرة أخرى نقول: هما القوتان الطبيعيتان وطريق الوجود الصحيح. والخروج عن الانسجام مع إرادة السماء يعني المجازفة بالتهشم تحت ثقل طريق السماء المحتومة. وقد جعلت الطاوية السماء آهلةً بالآلهة بل حتى بالأباطرة الإلهيين. وهذا هو أصل امبراطور اليشب، الحاكم، وإن لم يكن دوماً حاكماً فعَّالاً من بين هيكل الآلهة الطاوية في السماء.

وبنتِ البوذية أيضاً نوعاً من السماء، كانت تقيم فيها كوان ـ ين وتواصل السهر على سكان الأرض.

وأنشأت البوذية والطاوية أيضاً أنواعاً مدروسة من الجحيم تضم في جنباتها ما لايوصف من أمور الرعب. ومع ذلك، وفي نهاية المطاف، ليست فكرة ثالوث السماء والأرض والإنسانية فكرة إلهية بقدر ماهي وصف لقوالب بناء الواقع.

إذن، ماذا عن الأرباب والربَّات الذين واللواتي سيطيرون عبر هذه الصفحات؟؟؟ لقد ملأ الطاويون العالم بالآلهة. لكل مكان إلهه الأرضي،

وإلهـه المحلي ، وإلهـه الإقليمي . والصخـور الغريبة والأشجار الهرمة ذات العقد الكثيرة ، والأنهار المتعرجة ، كلها ملأى بقوى خارقة للطبيعة . إنَّ عالم الشـامـان لايـزال حياً وموفور الصحة في عالـم المعتقدات الصينية الشعبية . وليست آلهـة الطـاويين منفصلة عن بوديسـاتفـات البـوذية ، فعلى المستوى الشعبي كلهـا تجليـات ماهـو إلهي ومـاهـو خارق للطبيعة . ومن هذا المزيج الثـري والمكثَّف والمشحـون على نحو رفيع وبشكل رائع تنحدر قوة وحيوية وجاذبية الحكايا والخرافات الصينية .

أرزٌ من السماء

كانت أرض الصين، قبل أن تكتب الكتب وتحفظ السجلات بزمن طويل، مغطاة بالغابات والأشجار، ولم يكن ثمة حقول أرز، ولا متاجر، ولا أسواق، ولا طرق. وكان البدويون في الغابات يصطادون الحيوانات البرية، ويأكلون الفاكهة وثمار العليق النامية بوفرة.

وذات ربيع متأخر، وصلت أمطار الريح الموسمية كالعادة، إلا أنها، وبدلاً من أن تهمد كما كان كل شخص يتوقع، استمرت تضرب الأرض دون توقف لأكثر من شهرين. والتمس البدويون ملاذاً في الكهوف قرب قمم الجبال، ودمرت الغابات وغرقت الحيوانات. وبدت الأرض بحيرة قاحلة لا حياة فيها، وأخيراً طفقت الأمطار تهمد، ولاحت الأشجار للأنظار، وبدأ البدويون يهبطون السفوح باحتراس، وبدأت الحيوانات التي كانت قد التمست الملاذ في المستويات العليا تظهر ببطء.

ظهرت الأرانب أولاً، ثم السناجب، وأخيراً النمور، وكان قد تطرق إلى نفوسها جميعاً اليأس من إيجاد طعام في هذه الأرض الخراب. وبسطت النمور سيطرتها على الأرض، وطفقت تصطاد وتقتل وتأكل كل

ماكـان يعتـرض سبيلهـا . واضطـر البشـر إلى القيـام بغـزوات في الغابة من كهـوفهم الكـائنـة في الجبـال، إلا أنهـم لم يعـودوا يشعرون بالأمان والنمور تطوف الأرض بحثاً عن الطعام .

وفي مكـان قصيٍّ وراء أرض البشـر كان ثمـة جزيرة في البحر الشرقي يحكمهـا امبـراطـور اليشب[1] . كان الآلهـة والخلدون المقيمون فيها قد راقبوا البشـر وهم يقـاسون الأمرين من مشقاتٍ لاحصر لها، وقرروا، تعاطفاً معهم في محنتهم، أن يعقدوا اجتماعاً طارئاً .

تحدَّث امبراطور اليشب أولاً فقال :

- لقــد رأيتم بأنفسكم ماحــدث على الأرض، ونحن الآن في حاجـة إلى إيجاد طريقة لمساعدة البشر. من لديه أية اقتراحات؟؟؟

نهض إلهُ الحبوب الخمس أمام الحشد المجتمع، وقال :

- لديَّ خطة أود منكم جميعاً أن تمعنوا التفكير فيها . لماذا لانُعلِّم البشر أن يزرعوا ويحصدوا الأرز؟؟ لقد استمتعنا بفوائده منذ لحظة الخلق، وربما حان دورهم لأن يذوقوا محصول الآلهة، ولن يحتاجوا بعدها إلى التنافس مع النمور بحثاً عن طعام الغابة .

سرت غمغمـة موافقـة في المجلس لدى الإعراب عن هذا الاقتراح، ونادى الإله فو - هسي - شيه قائلاً بصوت مرتفع :

- إنَّ في مقدورنا أن نفعل ماهو أكثر من ذلك . لِم لانرسل إليهم مساعدين بحيث يصبح مستقبلهم مضموناً؟؟؟

---

١ - امبراطور اليشب : هو سيد السماء ورئيس المؤسسة السماوية . حكم بانثيون الآلهة الذي كان يطيعه بدقة . كان يكـافىء ويعاقب الأرباب حسب قيامهم بوظائفهم، فيرفع بعضهم وينزل بعضهم، ويسرِّح المتقاعسين منهم أحياناً . (معجم الأساطير. ترجمة : حنا عبود) .

ومرة أخرى غمغم الآلهةُ موافقين. وأعلن امبراطور اليشب قائلاً:

- حسناً. لقد تمَّ إقرار ذلك. سأحدد حصاناً، وبقرة، وشاة، وكلباً، وديكاً، وخنزيراً. ستساعد البقرة والحصان على الحراثة، وجر العربات، وحصاد الأرز، وسوف تعطي الشاة حليباً، وسوف يوقظهم الديك كل صباح، وسيحرس الكلب منازلهم. أما الخنزير فليس في حاجة إلى العمل. في وسعه أن يأكل وينام قدر مايشاء، إلا أنه يتحتم عليه أن يكون مستعداً للتضحية بنفسه كطعام للبشر.

ونُظِّم كل شيء قبل حلول المساء، إلا أنَّ امبراطور اليشب، وفيما كانت الحيوانات تستعد للإبحار عبر البحر الشرقي، دعا إلى إيقاف كل شيء قائلاً:

- لقد نسينا حقول الأرز. كيف يتسنى لنا نقل الأرز عبر البحر الشرقي؟؟؟

كان ثمة حقول أرز وفيرة في كل مكان من جزيرة الآلهة، وكانت ساق كل نبتة منه مُحمَّلة بالحبوب من جذرها إلى رأسها، وكان من الحماقة ربطها في حزم وتعويمها عبر البحر الشرقي، إذ قد تتقاذفها الأمواج في الاتجاه الخاطىء، أو قد تبعثرها الأمواج الهائجة. ومرة أخرى نهض إله الحبوب الخمس مقدماً الإجابة:

- لِم لانربط الأرز بأحد الحيوانات؟؟

في بادىء الأمر، طلب امبراطور اليشب من البقرة أن تحمل الأرز، إلاَّ أنها هزت رأسها وتنهدت قائلة:

- أعرف أنني أحظى بقوة كبيرة، ولديَّ جسد جميل، إلا أنني لست بارعة على وجه الخصوص. أعتقد أن عليكم أن تطلبوا ذلك من الحصان.

وقبل أن تسنح الفرصة لامبراطور اليشب لقول أي شيء صهل الحصان بصوت مرتفع معلناً رفضه بقوله:

- كلا. إنني الخيار الرديء. إنَّ لدي شعراً ناعماً جداً إلى حدٍّ سيجعل حبوب الأرز تنزلق عن جلدي الأملس. لِم لاتطلبون ذلك من الديك؟؟؟

فاستدار امبراطور اليشب إلى الديك، إلا أن الديك كان قد أعدَّ العذر لتوِّه فصاح قائلاً:

- ياصاحب الجلالة! انظر إليَّ. إنني صغير وضعيف البنية، وعلى الأرجح سأعجز عن تحمل الوزن.

وفي غضون ذلك، كانت الشاة والخنزير قد اهتديا إلى أعذار معقولة ظاهرية كيلا يقوما بالتسليم، أما الكلب، الذي كان قد راقب كلاً من هذه الحيوانات دون أن ينبس ببنت شفة، فقد تقدم إلى الأمام ليتحدث إلى امبراطور اليشب قائلاً:

- إنني أعرف أن البشر في وضع يائس، لذا أنا على أهبة الاستعداد لحمل الحبوب عبر البحر الشرقي.

وغطس الكلب في بركة سماوية، وأُرسل إلى مخزن الحبوب ليتقلب على الأرز بغية تغطية جسمه بالحبوب. وحين ظهر، كانت كل بوصة من جسمه، باستثناء عينيه، مغطاة بحبوب الأرز.

واجتمعت الحيوانات عند الشاطىء، وطفقت تقفز، كل منها إثر الآخر، في مياه البحر الشرقي ذي الأمواج المتلاطمة. واستخدم الكلب قوته كلها ومهارته ليبقى طافياً وليتفادى الأمواج، لذا حين كانت الحيوانات الأخرى قد وصلت إلى الشاطىء كان لايزال في عرض البحر. وأرسل امبراطور اليشب أميراً من البحر الشرقي لمساعدته، إلا أنه لم يستطع أن يمنع انجراف الحبوب عن جسم الكلب. كانت كل موجة لطمت جلده قد جرفت معها حفنة من الأرز، وذُعر امبراطور اليشب حين وجد أن الحبوب قد انجرفت على شواطىء الجزيرة في البحر الشرقي.

وعنـدمـا استلقى الكلب أخيـراً على شاطىء الأرض منهـوك القوى، كان كل مابقي على جسمه هي الحبوب التي التصقت بذيله فقط، ولم تكن تكفي إلا لزراعة رقعة صغيرة من الأرض فحسب.

وحرث سكان الأرض الحقل، وزرعوا الأرز، غير أن الآلهة قررت ألا تكون الحياة سهلة جداً، فلم تعد نبتات الأرز مكتظة بالحبوب كما كانت في جزيرة الآلهة، بل مجرد حبوب تنبت عند قمة الساق، لذا تحتم على البشر أن يضاعفوا جهودهم عند الحصاد.

ومنـذ ذلـك الـوقت، أصبـح الأرز المحصول الرئيسي للمزارعين في جميـع أرجاء الصين، ولم يعد البشر في حاجة إلى المجازفة بأرواحهم للصيد في الغابات، ووجدت جميع الحيوانات التي سبحت إلى الأرض عملاً لها في العـالم البشـري، إلا أن الكـلاب غدت أقـرب الأصـدقـاء للبشر الذين يقطنـون الأرض، وصـارت تُغـذى بالأرز حتى عند أوقات الوجبات كمكافأة على الخدمة التي أسدتها عند بدء الزمن.

وفي بعض المقاطعات تغذى الكلاب بالأرز قبل بيعها في الأسواق، أمـا الأحصنـة والأبقـار والخـراف فتعطى التبن فقـط، وأما الديكة والخنازير فترمى لها القشور فحسب.

نـو ـ وا تصلـح السمـاء

في زمن ما، كانت السمـاء والأرض لاتـزالان كتلة واحـدة. ولم يكن ثمة شمس ولا قمر، ولم تكن الريح والمطر والرعد قد خلقت بعد، ولم تكن الجبـال والأنهـار والأشجـار قد اتخـذت شكلاً بعد. ومنح بان ـ كو، الكائن الأول، الحيـاة لهـذا الكـون، وخلق المعالم الطبيعية للأرض. ومنذ لحظة الخلق طفقت السمـاء والأرض تبتعـدان، كل عن الأخـرى، وبعـد ثمـاني عشـرة ألف سنـة كانتـا قد ابتعـدتـا عن بعضهمـا مسافة شاسعة إلى حدٍّ كان يصعب معه رؤ يتهما.

درس بان ـ كو حركة السماء، وخشية أن تسقط ذات يوم على الأرض أوثق قطعـة من خيـوط القنب بكـل ركن من أركـان السمـاء، وجـذب حبال القنب حتى غدت السمـاء محكمـة الشـد، وأوثق كل حبل بإحكام في ركن من أركان الكون. وبغية أن يزداد ثقة في أن السماء لن تنهار، دعم بان ـ كو الأركان الأربعة بأربعة أعمدة خشبية غليظة مثبتة عميقاً في الأرض. في ذلك الوقت كان كل ماظهر إلى حيِّز الوجود هو السماء والأرض وبان ـ كو.

وحين مات بان ـ كو خلقت من جسـده ومن أنفـاسـه الشمس والقمـر

والجبال والأنهار والمطر وأشعة الشمس وكل الظواهر الطبيعية الأخرى. وكان آخر عمل قام به بان ـ كو هو خلق نو ـ وا، المرأة الوحيدة على الأرض، كانت ذات وجه جميل، وشعر أسود فاحم، إلا أن جسمها كان قد تشكل من ثعبانين طويلين سوداوين معقودين. كان الهدف من وجودها على الأرض هو خلق كائنات بشرية ذات أجسام من لحم ودم خلافاً لما كانت هي عليه، فكانت كل يوم تمزج طين النهر بالماء لتصنع صلصالاً وتصبه بتدقيق شديد في أشكال رجال ونساء، وما إن يمسهم نفسها الدافىء حتى تدب الحياة في أوصالهم.

وذات مساء، وفيما كانت نو ـ وا تنال قسطها من الراحة قرب ضفة نهر، وجدت قطعة من القيطان مخبأة في القصبات، فالتقطتها، وغمستها في بركة موحلة قربها، وبعد بضعة ثوان أخرجت القيطان من الماء وهزتها لتجففها، فتلألأت كل قطرة سقطت على العشب كما تتلألأ جوهرة، للحظة، ثم تحولت على الفور إلى كائن بشري، وسرَّها اكتشاف مثل هذه الطريقة السهلة لصنع البشر فخلقت مئات الناس في ذلك المساء بالذات. وجعل هذا الاكتشاف العشوائي حياة نو ـ وا أكثر يسراً وسهولة، وفي غضون السنوات التالية صنعت ملايين البشر من قطرات الماء، إلا أنها شكلت قلة قليلة منهم من صلصال النهر. وكان أولئك الذين شكلتهم يداها حكماء وشجعاناً وأثرياء، أما الذين خلقوا من الماء فكانوا ضعفاء وجبناء. واقتنعت نو ـ وا في نهاية المطاف بأنها خلقت مايكفي من البشر لملء الأرض، بيد أنها لم تدرك إلا حينئذ كم كان البقاء على قيد الحياة صعباً. كانت البراكين النارية قد حفرت الأرض، واكتظت الغابات بالحيوانات المميتة، وغصت الأنهار بالأسماك الخطيرة. وعلى الرغم من أنها غدت الآن عجوزاً ضعيفة استدعت إليها كل من خلقتهم بيديها وسلحتهم بالسكاكين والرماح، فساروا

معـاً إلى كل ركن من أركـان الأرض يقتلون الحيوانات المتوحشة، ويهدئون البـراكين، ويكبحـون ميـاه الفيضانات، وينظفون الغابات، وجعلوا الأرض ملائمة لسكنى أولئك الذين كانوا أضعف من أن يدافعوا عن أنفسهم.

ومن بين ملايين البشـــر الـــذين خلقتهم نو ـ وا رأت أن رجلين، همـا تشوان ـ هسو وكَنْغ ـ كَنْغ، كانا أكثرهم شجاعة. كان الرجلان محاربين، وكان كل منهما قد شن حرباً ضروساً ضد الآخر ولسنوات طويلة. كانت نو ـ وا قد راقبت معـاركهمـا بإهتمـام، وإن كان قد آلمها أن ترى كم لحق بالأرض من أذى باقٍ من جراء صراعهمـــا، وكم كان النـاس البسطـاء المصنـوعـون من قطرات الماء يموتون بسهولة كبيرة.

وذات مسـاء، تقـابل المتحاربان وجهاً لوجه، وبدآ صراعاً ضارياً إلى حدٍّ أن الأشجار التي كانت تعترض سبيلهما كانت تنشطر إلى نصفين بضربة واحـدة من سيف أي منهمـا. ومـع حلول المساء كانت جراحهما قد شكلت بحيـرة من الـدمـاء، وكـان كنـغ ـ كنغ هو الذي سقط على ركبتيه عاجزاً عن إشهار سيفه للدفاع عن نفسه.

كان غرور وسمعـة كنـغ ـ كنـغ قد تحطما، ولعلمه بأنه سيفقد اعتباره في بلدتـه بالـذات انطلق وحيـداً إلى جبـال الصين الشمالية الغربية. إلاَّ أن النـاس المقيمين حتى في ذلـك المكـان من القرى النائية عرفوه وتجاهلوه. ولم يكن لديـه من خيـارٍ سوى الانتحار، فرمى نفسه في مسيل[1] صخري قُدَّ داخـل جبـل بو ـ تشو ـ شان، ومات حين ارتطم بالقاع، وجعلت قوة سقطته الجبـال تردد الصـدى، فسقـط جلمـود من الصخـور داخل المسيل مقتلعاً الأشجـار التي كانت تعتـرض سبيله. جمـع الجلمـود زخمـه في طريقه إلى

1 ـ المَسيل: وادٍ صغير ضيق شديد الانحدار. المترجمة.

أسفـل الجبـل، وتـدحرج باتجاه الأعمدة الخشبية التي كانت تدعم السماء في ركنيهـا الشمـالي والغـربي، فانقصفت الأعمدة وسقطت قُبة السماء نحو الأرض ممـزقـة حبال القنب في سقوطها. وحجبت الشمس، وغاص العالم في الظلمة، وهبت الريح، وانهمر المطر عبر شق في السماء. وذهل بان ـ كو حين وقف في السماء يراقب الدمار الذي لحق بخلقه من جراء الغرور البشري.

في هذه الأثنـاء، وعلى الأرض، كانت نو ـ وا تتميـز غيظـاً لأن أولئك الـذين خلقتهم لم يستطيعـوا العيش في سلام، وحـزَّ في قلبهـا أن ترى بيتها وقد دمر. وعلى الرغم من أن الوقت كان قد فات لتغيير طباعهم، إلاَّ أنه لم يكن قد فات لإصلاح الدمار الذي أحاق بالأرض. فأمسكت سلحفاة وقتلتها وزرعت قوائمهـا لتحـدد أركـان الأرض الأربعـة بحيث يتسنى لهـا، ولكـل شخص آخـر على الأرض، أن يعـرف دائماً أي اتجاه يتجه. ثم ذبحت تنيناً أسـود واستخـدمت جسـده لسـد طوفـان الماء المنهمر عبر الشق الكامن في السماء ريثما يتسنى لها أن تجد الحجر المناسب لسد الفجوة. وبحثت لعدة أشهر، وعلى نحويائس، في كل ركن من أركان الصين عن الحجر المثالي. ومع مرور الأيام بدأ جسد التنين يرتخي تحت ثقل الماء، وبدأ المطر يتسرب عبر قُبَّة السماء.

وأخيـراً، وفي أعمـاق أحد الجبال، وجدت حجراً ذا خاصية إشعاعية وروح داخليـة، وعـرفت من النظرة الأولى أنه الحجر المنشود الذي سيصلح السمـاء إلى الأبـد. فنحتت الحجـر مستخـدمـة النـار إلى أن اتخذ الحجم الصحيـح، ورفعتـه إلى السماء، ووضعته في المكان المطلوب وهي تجاهد ضد سيل الماء المنهمر عبر الشق.

وارتفعت الشمس في السماء مرة أخرى، وتوقف المطر. وعرفت نو ـ

وا أن الوقت قد حان لتموت، لذا بحثت حولها عن أشجع وأقوى رجل على الأرض، ووقع نظرها على تشوان ـ هسو، فعينته خليفةً لها قبل أن تموت، وأسبغت عليه لقب امبراطور.

ومنذ ذلك الوقت، أعطي امبراطور الصين المسؤولية والقوة لصيانة الانسجام والتآلف بين السماء وبين الأرض وبين الناس الذين كانوا يعيشون هناك.

شبح الماء وصياد السمك

تعيش أشباح الماء في أعماق كل نهر وبحر في الصين، وهي أرواح البحارة وصيادي السمك والناس الذين ساقهم سوء الحظ العاثر إلى الغرق، وسُحبوا إلى أعمق أعماق المياه وأكثرها ظلمة حيث يقدر عليهم البقاء إلى أن يستطيعوا إيجاد بشري آخر يحل محلهم. وبعض أشباح الماء أوفر حظاً من سواها، لأن بحارها خطيرة وهائجة إلى حدٍّ يجعل الغافلين يغطسون إلى آجالهم باستمرار. وما إن يقتل شبح الماء شخصاً ويسحبه إلى قاع البحر حتى يصبح في ميسوره أن يولد مرة أخرى كإنسان، ويتحتم على الروح الجديدة أن تحل محله.

كان شبح الماء القاطن في النهر الجاري قرب قرية هنغ ـ ماو ـ بي ضجراً ومكتئباً، إذ أنه كان شبح الماء المحلي منذ فترة طويلة هي أقصى ما في وسعه أن يتذكره، وكانت القرية صغيرة وهادئة للغاية وإلى حدٍّ أن قلة من الناس كانت تجازف بركوب النهر، وحتى حين كانوا يفعلون ذلك كان شبح الماء دائماً يفوت على نفسه فرصة إغراقهم.

وقد انقضت سنوات كثيرة وشبح الماء يحاول أن يقتل فنغ ـ هي، وهو

صياد سمك ماكر ومحنك كان يبحر عبر منطقة الشبح أربع مرات في الأسبوع على الأقــل. كان شبـح المـاء قد حرك العـواصف ومـزق شبـاك الصيـاد، وأحـدث ثقبـاً في زورق صيـده الصغيـر، إلا أن فنغ ـ هي كان أذكى من أن يمسك بهذه السهولة.

وذات يوم أمضى شبـح المـاء عشـر ساعات وهو يسوق الأسماك بعيداً عن شبـاك فنـغ ـ هي ليـرغمـه على إلقـاء شبـاكه في وقت متأخر من الليل. وعنـدمـا تحـرك القمـر خلف غيوم تنذر بالمطر، تسلق شبح الماء متن زورق فنـغ ـ هي برشـاقـة، وقبـع في ركن مظلم قرب دفـة الزورق منتظراً اللحظة المؤاتيـة لقتله. وانتظـر فيمـا راح فنـغ ـ هي يجلس في صمت محـدقـاً في المياه العميقة، وسمعه وهو يصلي للآلهة لتمُنَّ عليه بمقدار من الصيد مهما كان ضئيـلاً، وراقبـه وهـو يفـرغ من تنـاول حبـوب الأرز الأخيرة المتبقية في قصعته الخشبية. وأخيراً، وحين أوشك الشبح أن يقطع الأمل، مال الصياد فوق حافـة زورقـه ليسحب شبـاكـه إلى متن الزورق، فما كان منه إلا أن قفز ودفعه إلى الماء البارد المظلم.

وجاهد فنغ ـ هي لمدة دقيقتين، وتلوى في قبضة الشبح الضارية، إلا أنـه لم يلبث في نهـايـة المطـاف أن فقـد الـوعي، فسحب الشبح المسرور جسده إلى ضفة النهر، ولطخ وجه الصياد الميت بطمي النهر، ووضع لوحة الشبـح على لسـانـه. وبعـد أن أعـد جسـد صيـاد السمـك لدخـول عالم الأرواح، طار الشبح بأقصى مالديه من سرعة ليرفع تقريراً بانتصاره إلى ين ـ لو ـ وان، امبراطور البحر. بيد أن الشبح كان قد أحبط نجاحه بتسرعه إذ أن الصيـاد المـاكـر لم يكن قد مات بعـد، وكـان الشبح المتلهف قد أخفق في سماع قلبه الذي كان يدق ببطء. كان صياد السمك قد استلقى، كما لو كان ميتـاً، على ضفـة النهـر إلى أن تأكـد من اختفاء الشبح، وبعدها وضع لوحة

الشبـح في جيب سترتـه بحـرص، وغسل طمي النهر عن وجهه، وهرع إلى بيته، وأوصد الباب بالرتاج.

وفيما كان كل هذا يحدث على الأرض، كان ين ـ لو ـ وان يصغي إلى تقـريـر شبـح الماء، عن موت صياد السمك وإلى التماسه اليائس في العودة إلى الحياة كبشري.

نهض ين ـ لو ـ وان من عرشه الذهبي الفاخر، وتناول «كتاب الأحياء والأمـوات» من طاولـة مرجانية قريبة، وقلب بسرعة الصفحات التي تبين آخر أحـداث المـوت بالمـاء، إلا أنه لم يستطع العثور على أي تسجيل عن موت صياد السمك، فسأل الشبح قائلاً:

ـ هل أنت متأكد من موت صياد السمك هذا؟؟؟

صاح شبح الماء:

ـ إنني متأكد تماماً. كيف يستطيع أي بشري فانٍ أن يبقى على قيد الحياة أكثر من ثلاث دقائق تحت مياهك؟؟؟

فزأر امبراطور البحر قائلاً:

ـ هذه هي المرة الرابعة التي تأتيني فيها بحكايات عن الموت، ومرة أخرى تظهـر نفسـك مغفـلاً. إن صيـاد السمـك لم يمت، ونـاسخـو سجلاتي لا يـرتكبـون أي خطأ على الاطـلاق في سجـلاتهم. عُد إلى نهرك فوراً، واستـرجـع لوحـة الشبح الخاصة بك قبل أن تفقد فرصتك في العودة إلى الحياة البشرية إلى الأبد.

واستدعي الحراس النزقون ليصبحوا شبح الماء المذهول إلى الأرض ثانية. واندفع شبح الماء عائداً بسرعة إلى ضفة النهر حيث كان قد ترك صياد السمـك الغـريق، إلاّ أن كل ماكـان قد تبقى هنالك هو أثر جسد الصياد في الطين. فركض شبح الماء المنحوس، وعلى نحو مسعور، من منزل إلى آخر

في القـريـة وهـو يحـدِّقُ عبر النوافذ، ويغمض عينيه نصف إغماضة مختلساً النظر عبر الشقوق في الجدران، ويطرق الأبواب ليختفي حال ظهور صاحب البيـت. وقبـل منتصف الليل فحسب، وبعـد ساعة من البحث العقيم، عثر شبـح المـاء على كوخ صيـاد السمـك الخشبي الصغيـر. فنقر الباب إلى أن اضطر الصياد إلى مغادرة فراشه ليرى ما الأمر. وحدق صياد السمك النعسان في الظلام ولكن، لم يكن ثمة أحد. ففتح الباب أكثر قليلاً لينعم النظر في الفـرانـدة الصغيـرة الكـائنة أمام منزله، وهناك ألفى الشبح متكوماً عند عمود خشبي وهو ينشج.

ناشده الشبح قائلاً:

- أرجـوك وأتـوسـل إليك ياأخي الصياد أن تعيد إلي لوحة الشبح، وإلا فلن أعيش على هذه الأرض مرة أخرى أبداً.

تأثـر صيـاد السمك بمأزق الشبح، فركض إلى داخل منزله، وعاد وهو يحمل لوحة الشبح النفيسة بيد أنه لم يكن راغباً في إعادتها إلا بعد أن اشترط على الشبح أن يملأ شباكه بالأسماك بانتظام. ووافق الشبح في امتعاض.

ومنـذ ذلـك اليوم ازداد مقدار الأسماك المَصِيدَة عشرة أضعاف. وكان الزورق في أحيان كثيرة ينوء بها إلى حد كان يخشى معه الصياد ألا يصل إلى ضفة النهر بأمان.

كان شبح الماء، في بادىء الأمر، يبقى دائماً تحت سطح الماء تماماً وهـو يسـوق الأسمـاك في اتجـاه الصيـاد، إلا أنه طفق شيئاً فشيئاً يظهر فوق السطح ليتحادث مع الصياد في غير كلفة... وقبل مضي زمن طويل أمسى الاثنـان صديقين حميمين، وبعـد شهـر تمـامـاً من لقائهما الأول دعا صياد السمـك الشبـح إلى منـزله لتناول وجبة المساء. واستمتع كل منهما بصحبة الآخر أيما استمتاع، إلى حد أنهما بدآ يتقابلان مرتين في الأسبوع ليتقاسما

العشاء في كوخ صياد السمك وفي صباح باكر من أحد الأيام اندفع شبح الماء إلى منزل صياد السمك، وأخذ صديقه بين ذراعيه قائلاً:

- يؤسفني أن أقول لك ذلك، إلا أنه يتحتم علي أن أرحل عنك اليوم، إذ أن سيدة عجوزاً سوف تتمشى على طول ضفاف النهر الموحلة عند أصيل هذا اليوم، وبدفعة صغيرة مني ستسقط وتغرق في المياه العميقة. إنها فرصة مثالية لتغيير قدري. لقد كنت صديقاً صالحاً، ويؤسفني أن أرحل عنك، إلا أن هذا مايجب أن يحدث.

صاح صياد السمك قائلاً:

- انتظر لحظة واحدة، إنني أعرف كم هومهم بالنسبة إليك أن تنجومن عالم الأرواح إلا أنك لاتستطيع أن تقتل امرأة عجوزاً بريئة. كيف تستطيع أن تُسلمها إلى مثل هذا الموت البارد المؤلم؟؟! وعلاوة على ذلك، من سيساعدني في صيد السمك؟؟؟ بدونك لن أبقى على قيد الحياة إلا بشقِّ النفس.

كان شبح الماء طوال الشهور المنصرمة قد اعتاد أن يولي صديقه الجديد عناية عميقة، لذا جلس إلى مائدة الصياد ليقلب أوجه النظر في هذه المسألة. وجلس الرجلان في صمت لفترة طويلة. وأخيراً تحدث شبح الماء قائلاً أنه سيؤخر رحيله ثلاث سنوات على الأقل.

وبَرَّ شبحُ الماء بوعده، فلم يغرق أحد في النهر لمدة ثلاث سنوات. كانا يتقابلان كل يوم على البحيرة، وخلال الاحتفالات كان شبح الماء يمكث في منزل صياد السمك. إلا أن الوقت كان قد حان عندما قرر شبح الماء أن يغرق سابحاً غافلاً، ومرة أخرى أسر بذلك إلى صياد السمك قائلاً:

- سوف يسبح فتى صغير في النهر غداً، وسوف أسحبه إلى قاع النهر.

لاتحاول إيقافي هذه المرة فأنا لاأستطيع العيش في هذا النهر البائس إلى الأبد.

لم ينبس الصياد ببنت شفة، بل اكتفى بالتحديق إلى الأرض، وهز رأسه بحزن. أدار الشبح ظهره للصياد، وغادر الكوخ بهدوء.

وفي الصباح التالي جذف الصياد بزورقه إلى منتصف النهر كعادته، وفي اللحظة التي أوشك فيها أن يدلي شباكه في الماء لمح فتى صغيراً يثب مرحاً قرب ضفة النهر. فترك شباكه وأمسك مجذافيه وانطلق مسرعاً إلى الضفة حيث كان الفتى يحرك قدميه في الماء. صاح الصياد قائلاً:

- اذهب إلى البيت للتو. إن أمك في حاجة ماسة إليك، وإن لم تذهب الآن ستضربك لكسلك.

فهرع الفتى المذعور إلى بيته على الفور، وعاد الصياد راضياً إلى شباكه.

في ذلك المساء عرج شبح الماء الغاضب على بيت الصياد، إلا أن الصياد كان قد استبق وصوله وأعد مائدة حافلة بأطايب اللحم والسمك. وما إن دخل الشبح الغرفة حتى بدأ الصياد يعتذر قائلاً:

- أنا متأسف ياصديقي، أعرف أنك لست سعيداً في النهر، إلا أن لذلك الفتى حياة سعيدة في انتظاره. أرجو ألا تنحي باللائمة علي، ولن أتدخل في خططك مرة أخرى.

فجلس شبح الماء ليتقاسم الطعام مع الصياد وقد استرضته كلماته، وأغرته وجبة الطعام ولم يذكر الموضوع مرة أخرى قط.

ومرت سنوات عديدة، وبقي الاثنان صديقين وفيين، إلا أن الشبح فقد صبره ذات يوم أثناء تناول العشاء في منزل الصياد، وصرَّح أن الوقت قد أزف بالنسبة إليه لمغادرة النهر. وتحت وطأة إلحاح الصياد أماط شبح الماء اللثام عن خطته على مضض قائلاً:

ـ أنت تعرف أنني أوليك اهتماماً جماً، ولكن قارن الحياة التي تنعم بها بحياتي البائسة التي أحياها على قاع النهر البارد. وما لم أقم بعمل ما لمساعدة نفسي فسأحيا هناك إلى أبد الآبدين. عندما تموت لن يكون لدي صديق في العالم، لذا يتحتم عليَّ أن أقوم بعمل ما الآن لإنقاذ نفسي. لقد سمعت جارتك تشانغ ـ شان وهي تتشاجر مع زوجها بعنف، ولديَّ إحساس بأنها ستنتحر في النهر غداً صباحاً. هذه المرة لن أقتل أحداً، بل هي التي ستموت وبيدها. لذا ليس في وسعك أن تلقي اللوم علي.

صُدم الصياد إذ سمع هذا النبأ، وأقسم في قرارة نفسه أن يساعد تشانغ ـ شان على الرغم من أنه كان قد وعد الشبح ألا يتدخل مرة أخرى. واستلقى في تلك الليلة مستيقظاً وهو يفكر في المهمة الكامنة أمامه. وعند الفجر قرر أن يجازف بصداقته مع شبح الماء وينقذ المرأة من الانتحار. ودون أن يتوقف ليغتسل أو يأكل أو يسرِّح شعره ارتدى الصياد ثيابه بأقصى مالديه من سرعة، واندفع نازلاً إلى النهر. ووصل في الوقت المناسب تماماً، وشاهد السيدة تشانغ ـ ترمي نفسها في دوامة خطيرة، فغاص خلفها. وجذبتهما التيارات القوية نحو الأسفل، وفي نهاية المطاف فقدت الوعي بين ذراعي الصياد، إلا أنه سبح بكل مالديه من قوة باذلاً قصارى جهده لإنقاذ نفسه وإنقاذها معاً. كان شبح الماء يراقبهما في لهفة وهو قابع في الظل إلا أنه لم يحاول إنقاذهما أو قتلهما. كان ينتظر أن يأخذ القدر مجراه.

وبعد صراع مرير طويل ضد تيارات النهر القوية سحب الصياد الشجاع السيدة تشانغ إلى الشاطىء وحملها إلى البيت إلى زوجها الكئيب.

في تلك الليلة كان ثمة طرق على الباب، ودون أن ينتظر جواباً دلف

شبح الماء بجبن إلى الغرفة وجلس إلى مائدة المطبخ دون أن ينبس ببنت شفة .

حاول الصياد أن يقدم شرحاً، غير أن شبح الماء أوقفه قبل أن يتمكن من ذلك . قال له :

- لم آت إلى هنا لألومك أو لأصرخ في وجهك . إنني أعرف تماماً لماذا أنقذت تلك المرأة، وأنا أدرك أنك لم تتخذ ذلك القرار عن طيش . أعرف أنك تهتم بي ، ولكنني أعرف أيضاً أنك تهتم بالحياة الإنسانية ولذا أعدك ألا أقتل أي شخص أو أسمح له بقتل نفسه إرضاء لرغبتي . سأقبل ما تمنحه الآلهة .

حين سمع الصياد كلمات الشبح عرف أنه أعظم صديق يمكن اتخاذه أثناء حياته .

وبعد هذه الحادثة راح شبح الماء والصياد يقضيان ساعات كثيرة معاً في تناول الطعام وتجاذب أطراف الحديث ولعب الورق وصيد الأسماك . ومضت عشر سنوات على لقائهما الأول دون أن يؤذي الشبح أي مخلوق حي .

وفي هذه الأثناء، وفي قصر امبراطور البحر، كان ين - لو - وان يجري تحقيقاً دقيقاً حول شخصيات وسلوك رعاياه . وفيما كان جميع أشباح وأرواح الماء الآخرين الواقعين تحت إمرته قد أغرقوا بانتظام ضحايا منكوبي الطالع ، لم يزعج شبح الماء في هنغ - ماو - بي أياً من البشر الذين جازفوا بالمرور في منطقته . كان شبح الماء هذا قد رضي بقدره باتضاعٍ أذهل الامبراطور نفسه . وبعد أن دعا مستشاريه إلى اجتماع في قصر البحر قام الامبراطور بتزكية شبح الماء إلى امبراطور اليشب الذي قرر بدوره أن يرقي شبح الماء إلى تشينغ - هوانغ ، إله المنطقة .

وذات مساء خريفي ، وما إن نهض شبح الماء من أعماق البحيرة ليزور الصياد حتى اقترب منه وزير امبراطور اليشب وهو يحمل أمر الترقية .

وغمر السرور شبح الماء فاندفع إلى كوخ الصياد وهو يلوح بأوراق ترقيته . بيد أن الصياد لم يكن قد عاد من السوق بعد ، ولم يكن لدى شبح الماء وقت يضيعه ، لذا ترك بطاقة دعوة إلى معبده الجديد وطار بلهفة ليتسلّم منصبه الجليل .

عندما عاد الصياد في الغسق وجد الدعوة إلا أنه كان مقتنعاً بأن هذا الإله المحترم قد ارتكب خطأ . وتردد الصياد أياماً كثيرةً حائراً فيما يحتم عليه أن يفعل ، إلا أنه حين اقترب يوم التنصيب قرر أن يقبل الدعوة . لم يكن الصياد قد التقى بشبح الماء منذ اليوم الذي وجد فيه الدعوة على طاولة مطبخه . كان ينزل إلى النهر كل يوم وينادي صديقه في أعماق الماء إلا أنه لم يكن ثمة رد . وكان كل مساء ينتظر أن يدق صديقه باب كوخه ، بيد أنه لم يصل قط . وقل صيد الصياد يوماً إثر يوم ، لكن ذلك لم يكن شيئاً يذكر بالمقارنة مع فقدانه صديقه .

وفي الساعة الموعودة وصل الصياد إلى معبد تشينغ ـ هوانغ إلا أن ساحة المعبد والمعبد نفسه كانا خاويين . كان الوقت قد شارف على الغسق . وهبت ريح خفيفة بين الأعمدة المزخرفة وجعلت أوراق الأشجار المنتشرة في أرجاء مرج المعبد تصدر حفيفاً . كان التعب قد نال من الصياد بعد رحلته ، لذا عمد إلى تنظيف مقعد حجري خارج باب المعبد من الأوراق ، ونشر سترته القطنية على المقعد وغطَّ في نوم عميق .

وفي حلمه رأى صديقه ، شبح الماء ، وهو يرتدي ملابس تشينغ ـ هوانغ . اقترب صديقه منه وسلّمه طبقاً ذهبياً مليئاً باللحم العطر الزكي والأسماك النادرة . ووقف شبح الماء قربه في صمت فيما طفق الصياد

الجائع يتناول الطعام. ثم وضع شبح الماء كيساً ثقيلاً من الذهب في حضن الصياد، وانحنى أمامه قائلاً:

- لولاك يا أوثق الأصدقاء لقتلت أناساً كثيرين، ولكنك أنقذتني، وهاأنذا الآن أنحني أمامك شاكراً. ليس في وسعي بعد الآن أن أساعدك على صيد السمك، إلا أنني أستطيع أن أمنحك ذهباً يتحتم عليك أن تنفقه بحكمة. لن تراني أبداً مرة أخرى، ولكنني سأفكر بك دائماً.

وتلاشى شبح الماء بعدئذ من حلم الصياد.

كان الوقت قد شارف على بزوغ الفجر عندما استيقظ الصياد. وحين وقف ببطء ليجمع سترته ويغادر المعبد سقط كيس من الذهب على الأرض.

استثمر الصياد منحته على نحو حكيم وغدا رجل أعمال ناجحاً. ولم يعد إلى الصيد مرة أخرى في ذلك النهر قط منذ ذلك اليوم، ولم يغرق أحد في مياه النهر بعد ذلك اليوم، إلا أن الصياد كان ينزل إلى ضفة النهر كل يوم ويرفع الصلوات إلى تشينغ - هوانغ.

الأيِّـلُ المرقــط والنَّـمِـر

كان يو ـ يو، الأيـل المـرقط، يرعى عادة في ضواحي غابة كثيفة، ولـم يجـازف قط بالابتعـاد إلى ما وراء خط أشجـار تين البنغـال التي كانت تحـد الغـابـة. وذات يوم، تجـوَّل كلب أحد المزارعين في أراضي الرعي، وطفق يطـارد يـو ـ يو. لم يكن الأيـل الجبـان قد تعـرض قط لتهديد من قبل، فراح يركض وقـد شله الـذعـر إلى داخل الغابة. وفي الظلمة المفاجئة طفق يعدو على غيـر هدى إلى أن دلف إلى نبـاتـات معتـرشـة متـدلية، تعلق رأسها في جذوع أشجـار كثيفـة وتـدلت في قنـوات طحلبية. وما إن تكيفت عيناه، في نهاية المطاف، مع أفياء الغابة حتى راح يحاول العثور على طريق العودة إلى أراضي الـرعي بيـد أنـه طفق يتـوغل ويتوغل في اضطراب إلى أعماق الغابة المجهولة المرعبة.

وحين توقف لينـال قسطـه من الـراحـة مشى إليـه قنفذ في تثاقل جاراً قدميه من النباتات المتنامية تحت الأشجار الكبيرة، وأخذ يتشمم حوافره في تردد. .

رفـع القنفـذ أنفـه الطـويل إلى الهواء ليتحرى هذا الحيوان الغريب، وسأله في حِدَّة:

- من أنت، وماذا تفعل هنا؟؟

أجاب يو ـ يو في رقة:

- اسمي يو ـ يو، وأنا أيل مرقط.

ولم يكد يفرغ من كلامه حتى طار تَدْرُجٌ[1]، نازلاً إليه، ومسَّ جناحاه قرني الأيل. قال التَّدْرُج:

- إذن أنت أيل مرقط. لقد سمعت عن الأيائل المرقطة. هل تبدو كلها غريبة المظهر مثلك؟؟

- أجل، أنا أيل مرقط، وكل الأيائل المرقطة تبدو مثلي. ألم تشاهد أياً منها قط من قبل؟؟

فصاحت بزاقة كانت تنال قسطها من الراحة على ورقة من أوراق شجرة صنوبر فوق رأس يو ـ يو قائلة:

- كلا. لايمكنني القول إننا شاهدنا أياً منها. لم تجازف هي قط بالدخول إلى غابتنا من قبل.

نظر يو ـ يو إلى جمهوره مستعلماً قبل أن يتحدث قائلاً:

- أرجوكم ساعدوني. أنا في حاجة إليكم لتقوموا بتعليمي الحياة في الغابة.

لم تتردد حيوانات الغابة في إسداء العون إلى هذا الوافد الجديد الرعديد، وبعد أن اقترحت عليه طعاماً جيداً، وأمكنةً آمنة ليخلد إلى الراحة، فارقته ليكتشف تنوع الحياة في الغابة. وبعد بضع ساعات من ذلك دلف يو ـ يو إلى بقعة من الأرض اجتثت أشجارها. وما إن رفع رأسه ليجيل الطرف حوله حتى ألفى نفسه يحدق مباشرة في عيني نمر خضراوين متلألئتين قاسيتين.

أصيب يو ـ يو بالهلع. كان يعرف أن في ميسور النمر أن يذيقه حتفه

---

١ ـ التَّدرج: طائر ذيال يشبه الحجل (المترجمة).

بضـربـة واحـدة من مخـالبه القوية . بيد أن النمر، لحسن الحظ، لم يحرك عضلة من عضـلاتـه . لم يكن قد شاهـد قط أيلاً مرقطاً من قبل، وأثار شكله الغريب فضوله، فسأله:

- لِم أنت دميمٌ إلى هذا الحد؟؟

كان يو - يو يرتعف خوفاً، إلا أنه استجمع شجاعته كلها وأجاب باعتداد:

- أنا يو - يو، الأيل المرقط.

فغمغم النمر قائلاً:

- أوه، إذن أنت أيل مرقط. حسناً، أخبرني ماهي تلك النباتات النامية على قمة رأسك؟؟

وفيمـا كان يو - يو يفكـر على نحـو يائس في إجـابـة مقنعة انسل النمر خلسة نحوه. وفي اللحظة التي أوشك فيها يو - يو على الانهيار رعباً خطرت له فكرة ذكية، فأجاب بإزدراء:

- أنت لست حيـوانـاً شديـد الذكاء، أليس كذلك؟؟ هل تقصد أن تخبرني أنك لاتعرف ماهي هذه الأشياء البسيطة؟؟ وبما أنك وبكل وضوح تفتقر إلى أبسط الثقافات يحسن بي أن أخبرك ماهي. إنها عيدان النمور. بما أن لحم النمر ناعم جداً يتحتم علي أن أتناوله بعيدان معقوفة لأمنع اللحم من الانزلاق عائداً إلى صحني.

فخطـا النمـر إلى الـوراء مصدوماً. لم يكن قد سمع قط، طوال سنيِّ طوافـه بحثـاً عن الطـرائـد والصيـد، أن ثمة من يجرؤ على تناول لحم نمر، وأصيب بالغثيـان وأجفـل لدى التفكيـر في ذلـك. ودنا من أحد جنبي يو - يو ليخمن قوة خصمه وقدرته على الاحتمال. قال:

- أنت أصغر من أن تقتل نمراً.

فاستدارت عينا يو ـ يو في ذهول، وقال في إزدراء :

ـ ماذا تقصد بقولك إنني أصغر من أن أقتل نمراً؟؟؟ فقط انظر إلى هذه البقع على ظهري . مِنَ الواضح أنك لاتعلم ماهي . إنها تمثل عدد النمور التي قتلتها وأكلتها . قبل ثلاث سنوات ذهبت إلى امبراطور اليشب لأعرف كيف يمكنني أن أصبح خالداً، فأعطاني مهمة على الأرض . طلب مني أن أقتل كل نمرٍ أكل لحماً حيّاً، وسأتلقى بقعة عن كل نمر. وحين أقتل ألف نمرٍ سأصبح خالداً . والآن انظر، إن كان في وسعك أن تستنبط، كم بقعة توجد على ظهري؟؟؟

وفيما كان يو ـ يو يتحدث طفق يرتعش ثم بدأ يهتز بشدة . ومرة أخرى ارتاب النمر به، فقال :

ـ إذا كنت قادراً على قتل نمور وأكلها، فلماذا ترتعش؟؟؟

أجاب يو ـ يو بصوت مضطرب :

ـ إنني لاأرتعش . يتحتم عليَّ قبل أن آكل نمراً أن أحشد طاقتي . إنني أرتعش قوة لاخوفاً .

ولم ينتظر النمر ليسمع المزيد، بل دار على عقبيه وفرَّ إلى الشجيرات الكثيفة دون أن يلوي على شيء، وظل يعدو ويعدو إلى أن تيقَّن من أنَّ الأيل قد فقد أثره، ثم انهار منقطع الأنفاس تحت أغصان شجرة صنوبر.

صاح صوت من الغصن المتدلي :

ـ مرحباً أيها النمر الملك . من الواضح أنك تحاول الهرب من أحد ما . مِمَّن أنت خائف؟؟؟

رفع النمر بصره فحياه وجه نسناس مبتسم كان يتدلى رأساً على عقب من أحد الأغصان . كان يهمُّ النسناس أن يسمع قصة النمر، لذا فك ذيله عن الغصن ووثب إلى الأرض، ورسَّخ نفسه عند قدمي النمر. وراح النمر،

متأتئاً ومتلعثماً، يسرد قصته، إلاّ أنَّ النسناس طفق يحدق فحسب وهو لايصدق ما كان يسمعه. وبعد أن استمع إلى تقرير كامل عن المغامرة طلب من النمر أن يأخذه إلى الأيل المرقط، فرد النمر بحدة ونزق:

- كلا. أرفض الذهاب. ماذا لو هاجمني الأيل؟؟ لامفر لدي، أما أنت ففي وسعك على الأقل أن تتسلق شجرة لتصبح في مأمن.

غير أن النسناس ماكان ليقبل إجابة رافضة، فطفق يتملق ويتوسل إلى أن وافق النمر في نهاية الأمر أن يأخذه إلى الأيل المرقط شريطة أن يربط بظهر النمر بحيث إذا نجا النسناس بالتأرجح على أحد الأغصان فسوف يرفع النمر معه إلى الأعلى. وما إن شُدَّ وثاق النسناس إلى ظهر النمر بإحكامٍ بواسطة نباتات متعرشة ثخينة حتى شقَّا طريقهما عائدين إلى الأرض ذات الأشجار المقطوعة.

رفع يو-يو رأسه حين سمع خشخشة غير بعيدة في الشجيرات النامية الظليلة، فلمح خطوط النمر وقد أضاءها بصيص من أشعة الشمس. وهنا وثب يو-يو إلى الوراء في دهشة فتجمَّد النمر رعباً، إذ حسب أن الأيل كان يستجمع كل قدرٍ من طاقته ليوردِه حتفه، ومرة أخرى دار على عقبيه وولَّى الأدبار لينجو بحياته. دخل على نحو أعمى عبر الشجيرات والأشواك والحفر، وكان النسناس المسكين موثقاً إلى ظهره طيلة الوقت.

وأغمي على النسناس أخيراً، وقبل مُضيٍّ وقتٍ طويل انهار النمر نفسه على أرض الغابة. وعندما استردَّ النمر في نهاية المطاف أنفاسه استدار إلى النسناس قائلاً في حدَّة:

- لقد حذرتك. أخبرتك كم هو ضار هذا الأيل المرقط، إلا أنك لم تصدقني.

ومنذ ذلك الوقت راح النسناس يقضي وقته في أعالي أغصان الأشجار، ونادراً ما كان النمر يغادر أعماق الغابة.

نبـوءة كـوان ـ يـن

كان نهر «لو ـ يانغ» أكثر الأنهار نشاطاً واتساعاً وخطراً في مقاطعة «فكْ ـ ين». كان الممر العام الرئيسي لمراكب البضائع التي تحمل الطعام والمواد الخام في أرجاء المقاطعة، إلا أن أناساً كثيرين لاقوا حتفهم وهم يحاولون عبور مياهه الهائجة، وقد باءت كل محاولة لتشييد جسر عبر هذا النهر بالفشل.

في صباح يوم خريفي باكر، ودونما سابق إنذار، ضربت المنطقة المحيطة بنهر لو ـ يانغ عاصفة بلغت من القوة شأواً جعلها تقتلع الأشجار وتدمر الأكواخ بعصفة ريح واحدة. وجرفت سفينة ركاب صغيرة، كانت تحاول عبور النهر، إلى دوامات، ثم رفعتها ضراوة الريح، وقذفتها على أحد جنبيها أمواج بلغت من العلو حداً حجب ضوء الفجر. وصرخ الركاب طالبين العون، وبكى الأطفال خوفاً، وانجرفت سلال الدجاج والسمك والخضار عبر سطح السفينة وغاصت في الماء.

وفي اللحظة التي طفق فيها المسافرون يقطعون الأمل في السير على الأرض مرة أخرى، ظهر عند مقدمة السفينة طيف امرأة طويلة في فستان

أبيض. أسبلت عينيهـا، ورفعت ذراعيهـا إلى الميـاه التي انحنت امتثـالاً. وتـوقفت الـريـح، وهمـدت الأمـواج، وانقشعت سحب العـاصفـة. حدَّق المسـافـرون في إنكـار إلى كـوان - ين، إلهـة الرحمة، وجثوا واحداً إثر آخر على ركبهم وحنوا رؤوسهم أمامها.

مشت كوان - ين الهـوينى عبـر السفينـة، ودنت من امرأة حُبلى كانت جاثمة قرب حاجز السفينة وقالت:

- لست في حاجـة إلى أن تشكـريني يا فونـغ - تساي إذ أنك ستلدين طفلاً سوف يبني جسراً لعبور نهر لو - يانغ.

واختفت كوان - ين بعـد الإدلاء بهـذه النبـوءة، وتجمـع الحشـد المذهول حول فونغ - تساي لتهنئتها.

وعـادت فونـغ - تساي إلى بيتها مشدوهة، بيد أنها كانت مزهوة بكلمات كوان - ين، ولم تلبث بعد مضي وقت لم يكن طويلاً أن وضعت طفلاً أسمته تساي - هسيانغ.

وتـرعرع تساي - هسيانغ ولداً صالحاً وباراً، وحين بلغ السابعة من عمره بدأ يمـدُّ يد العـون إلى أمـه في زراعـة قطعـة أرض صغيـرة كانت تملكها، وسرعان ما أصبح يديرها برمتها. وكانت أمه، كل عام وفي اليوم الذي يسبق ذكرى ميلاده، تُذَكِّره بنبوءة كوان - ين:

- تذكّـر يابني. يتحتم عليـك حين تكبـر أن تبني جسـراً فوق نهر لو - يانغ. لاتسمح لأي شيء أو أي شخص أن يثنيك عن ذلك.

وكـان تسـاي - هسيانغ، كل عام، يُصيخ السمع في احترام، ويقسم على تحقيق هذه النبـوءة. في سن الثـلاثين، اجتـاز تساي - هسيانغ امتحاناً للعمـل مع الحكـومـة، وبعـد سنـوات من العمل المتفاني رُقِّي إلى منصب

رئيس الـوزراء. وعلى الـرغم من الثـروة والتشريفات التي أغدق الامبراطور عليه بها، كانت ثمة فكرة تعتمل في خلفية ذهنه وتقُضُّ عليه مضجعه.

كان قد أحسن إدارة المقــاطعــات وعلى نحــو حصيف، واحتـرمـه الفـلاحـون والنبـلاء، على حد سواء، احتراماً جماً، بيد أنه لم يكن قد بنى الجسر المتنبأ به. وسنة إثر أخرى كان يقدم أسباباً لزيارة مقاطعة فك ـ ين، إلا أن الامبراطور كان كل مرة يرفض السماح لرئيس وزرائه الحكيم أن يبرح جانبه.

وذات مسـاء، وفيمـا كان تسـاي ـ هسيـانـغ ينال قسطه من الراحة في الحـدائق الامبـراطـوريـة، لاحـظ صفاً من النمل يمشي في حفرة في منبت للنبـاتـات الصخرية، فعثر على خطة بالمصادفة. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي عاد إلى الحدائق الامبراطورية وهو يحمل عوداً ملطخاً بالعسل. وبعـد أن تيقّن من عدم وجـود أحد غيره في الحديقة، كتب بالعسل كلمات صينية على أوراق شجرة من أشجار «آذان الجدي». كانت الكلمات تقول: «تساي هسيانغ، تساي ـ هسيانغ، عُد إلى بلدك لتنجز واجبك».

ورجـع تسـاي ـ هسيـانغ إلى غرفته المطلة على حدائق القصر، وفي غضون خمس دقائق كانت النملات قد تسلقت بجهد شجرة «آذان الجدي» لتأكـل العسـل. وبعـد نصف ساعـة من ذلك دخل الامبراطور الحديقة في جولتـه الصباحية الباكرة، وفيما راح يتجول فاحصاً الأزهار والنباتات اكتشف صف النمـل الـذي شكـل الكلمـات المـذكـورة على الشجـرة، وطفق يقرأ الكلمات بصوت مرتفع.

وكانت هذه هي اللحظة التي كان تساي ـ هسيانغ ينتظرها، فهرع إلى الحديقة وانحنى أمام الامبراطور، وقال:

ـ شكراً لجلالتك، سأعود إلى بلدي غداً.

فتـراجـع الامبـراطـور في دهشـة وأمر تساي ـ هسيانغ أن ينهض على قدميه، وقال:

- عمَّ تتحـدث؟؟ لَم آمـرك بالعـودة إلى بلدك. كنت أقرأ الكلمات بصوت مرتفع فحسب.

إلَّا أن تساي ـ هسيانغ ماكان ليهزم، فراح يناقش قضيته بلهفة بالغة قائلاً:

- ياجـلالـة الأمبـراطـور، إن كل شخص في المملكة يدرك أن كلمتك هي الارادة الامبراطورية. وما إن تنطق بها حتى يتحتم تنفيذها.

ولم يكن أمـــام الامبـــراطـــور إلَّا أن يوافق، فأعطى رئيس وزرائـــه، بامتعاض، إذناً بالعودة إلى بلده لمدة شهرين ليعمل حاكماً لقرية تشوان ـ تشو.

ومنذ اللحظة التي عاد فيها تساي ـ هسيانغ عَيَّن مجموعة من العمال لبنـاء الجِسـر، بيـد أن تيـارات النهـر القـويـة راحت تجرف أحجار الأساس باستمرار وكأنها حصى.

كان الـزمن ينقضي بالنسبـة لتساي ـ هسيانغ، فدبج رسالة إلى التنين ملك البحـر ناشـده فيهـا أن يسحب الميـاه الهـائجة لمدة ثلاثة أيام. وما إن كتب الرسالة ومهرها بخاتم رئيس الوزراء حتى مضى يبحث عن رسول بين عماله. سألهم قائلاً:

- من سينزل إلى أعماق البحر؟؟؟

وسمع عامل سيء الطالع، يدعى هسيا ـ تي ـ هاي، السؤ ال خطأ، فحسب أنه استُدعِيَ للمثول أمام الحاكم، فأعلن في لهفة:

- ها أنذا، ها أنذا.

هنأ، تساي ـ هسيانغ قائلاً:

ـ أحسنت. إذهب إلى أعماق نهر لو ـ يانغ وسلم هذه الرسالة باليد إلى التنين ملك البحر.

وسَلَّم العامل المرتبك رسالة مختومة من ورق الرق.

ورافق هسيا ـ تي ـ هاي زملاؤه في العمل إلى ضفاف نهر لو ـ يانغ الموحلة، وتركوه بمفرده عندما حل الظلام. وما إن اختفى الجميع عن الأنظار حتى جثا هسيا ـ تي ـ هاي على ركبتيه وانتحب في خوف وهلع.

وحين أنهك نفسه في نهاية المطاف غط في النوم قرب النهر. ورأى في حلمه أنه كان يقف في قاعة قصر التنين ملك البحر المكسوة باللؤلؤ والصدف. إلى يمينه كان ثمة سرطان جنرال يعطي أوامره إلى جنوده من القريدس، وإلى يساره كان التنين ملك البحر يجلس على عرش ذهبي. فاندفع هسيا ـ تي ـ هاي إلى قاعدة العرش، وطرح نفسه عند قدمي الملك وراح يقول متأتئاً:

ـ اسم.. اسم.. اسمي هسيا ـ تي ـ هاي... وهذه... الرسالة... لك... ياتنين البحر... أيها التنين... ملك البحر.

تناول التنين ملك البحر الرسالة من يد هسيا ـ تي ـ هاي الممدودة وقرأها ببطء، ثم أجاب:

ـ أستطيع القيام بما طلبه رئيس الوزراء. إنني أعدُ بسحب المياه لمدة ثلاثة أيام لا أكثر.

وكتب التنين ملك البحر بعد ذلك على راحة يد هسيا ـ تي ـ هاي كتابة صينية وأشار إليه بالانصراف من أمامه. فغادر العامل المتواضع القصر بأقصى مالديه من سرعة دون أن يجرؤ على النظر في وجه هذا الملك ذي النفوذ الجبار.

وأيقظت ريح صباحية قارسة هسيا ـ تي ـ هاي من حلمه المفعم

بالحيوية، وحين سحب نفسه من ضفة النهر الرطبة لمح كتابة صينية على راحة يده. وطفقت أحداث حلمه تتراءى له مرة أخرى فهرع عبر ضباب الصباح الباكر الرقيق إلى المنزل الذي كان ينام فيه تساي - هسيانغ. دفع هسيا - تي - هاي الحراس الذين اعترضوا سبيله إلى الوراء، وشق طريقه بالقوة إلى غرفة نوم سيده، وصاح في اهتياج:

- أستميحك عذراً ياسيدي لإقلاق راحة نومك، لكنني تحدثت مع التنين ملك البحر، وهذه هي الرسالة التي يبعثها إليك.

وضع هسيا - تي - هاي يده على أغطية الفراش الحريرية فيما راح تساي - هسيانغ يفك رموز الكلمات التالية: «اليوم الحادي والعشرون، عند ساعة يو».

وهكذا، وفي الحادي والعشرين من ذلك الشهر، وفي الساعة السادسة مساء، كان في الإمكان سماع هدير جبار في أرجاء قرية تشوان - تشو حين انحسرت مياه نهر لو - يانغ متكشفة عن قاع النهر الصخري. وقبل أن يلتقط تساي - هسيانغ وعماله أدواتهم أحرقوا بخوراً وأوراقاً نقدية كقربان للتنين ملك البحر، ثم، وبعد أن أقسم ألا يستريح حتى يفرغ من مهمته، أمر تساي - هسيانغ رجاله بالعمل. كان عرض البحر يزيد عن ميل، وعلى الرغم من استخدام ألف رجل للقيام بالعمل، لم يكن قد تم في نهاية اليوم الأول إلا ثلث العمل، ونفذت مخصصات الطعام بأكملها. وعلى الرغم من التهديدات، أو التملقات، التي قام بها تساي - هسيانغ إزاء عماله، رفضوا متابعة العمل إلى أن يشاهدوا مخصصات طعام طازجة. وفي اللحظة التي تراءى لتساي - هسيانغ أن كل شيء قد تبدد هباء منثوراً تذكر إلهة الرحمة كوان - ين التي كانت قد أنقذت حياة أمه، فجثا على ركبتيه وصلى في حماس قائلاً:

- لقــد أخبــرت أمي يا كوان ـ ين أنني سأبني الجســر، وأنـا أريـد تحقيق أمنيتـك، غيـر أني في أمسِّ الحـاجـة إلى المـزيد من النقود لشراء طعام لعمالي. أرجوك أن تتعطفي بحكمتك عليَّ ياإلهة الرحمة. ساعديني وأنا في أمسِّ الحاجة إليك.

وفي اليـوم التـالي ظهـر زورق على صفحـة نهر لو ـ يونغ وفي مقدمته كانت تجلس امرأة جميلة في ثوب حريري أبيض. وسرعان ماانتشر حديث قصير بين القرويين عن جمالها فاندفعوا إلى الوادي لإلقاء نظرة عليها. أدنت المـرأة زورقهـا من الحشـد المتدافع، وأسكتت غمغماتهم المهتاجة بإشارة طفيفة من يدها، وحين استقر تحديق الجميع عليها بانتباه تحدثت قائلة:

- إنني أعدُ أن أتزوج الرجل الذي يستطيع إلقاء عملة ذهبية أو فضية في حضني.

ولم تكـد تفـرغ من حديثها حتى أُمطرت بقطع نقدية كثيرة للغاية إلى حدٍ جعل الزورق يغوص ولكن، وعلى الرغم من الحرص الشديد الذي راح القرويون يسددون به قطع نقودهم لم يفلح أي منهم في إسقاط قطعة واحدة في حضنها.

وبعد ساعة من الزمن، وحين لم يعد في وسع الزورق أن يتحمل وزن قطعـة نقـديـة واحـدة أخرى، طلبت المرأة من القرويين العودة إلى بيوتهم. وحين استـدار تسـاي ـ هسيانغ ليشق طريقه عائداً إلى القرية استدعته المرأة إلى جانبها، وقالت:

- سمعت صلواتك ياتساي ـ هسيانغ، وقد أتيت لإسداء العون إليك. هذه النقود لك، وعليك أن تستخدمها في تحقيق نبوءتي.

وسكبت كوان ـ ين النقود على العشب عند قدمي تساي ـ هسيانغ،

ثم ، ودون أن تتفـوه بكلمـة أخـرى، اختفت صاعـدة إلى السماء في لفَّة من الدخان الأخضر.

ودون تبديد لحظة واحدة أرسل تساي ـ هسيانغ رجاله إلى العمل مرة أخرى، وطفقوا يعملون دون توقف تحت إمرته التي لم تكن تعرف الكلل، وقبـل أن يطلق التنين ملك البحـر سراح الميـاه الجبـارة بسـاعـة واحدة كان الجسر ينتصب.

الحلّاق والخالد

كان وانغ ـ سان يعمل حلاقاً على قارعة الطريق، وكان بارعاً وكفؤاً وعلى أهبة الاستعداد لمد يد العون إلى كل من هو في حاجة إليها، إلا أن سكان البلدة كانوا يكنون له الاحتقار بسبب عمله الوضيع.

ذات يوم دنا اثنان من حراس الامبراطور وأمراه، أن يقدم نفسه في القصر الامبراطوري في اليوم التالي ليقص شعر الامبراطور. كان رأس الامبراطور مشوهاً وقد تندَّب بالقروح المتقيحة والندوب العميقة والتي أخفق في علاجها أمهر الأطباء. وكان يُقطع على الفور رأس كل حلاقٍ يسيل الدم، ولو عن غير قصد، من فروة رأس الامبراطور. وهكذا دخل القصر حلاقون موهوبون كُثر إلا أن عدداً قليلاً منهم غادره. وأدرك وانغ ـ سان القدر المريع الذي كان ينتظره، فالتفت إلى جيرانه طالباً المؤازرة، إلا أنهم عوضاً عن تقديم المواساة له سروا بمصيبته. وسمع القرويين يتهامسون عنه في الأزقة الضيقة ومداخل القرية المعتمة، وتراكض الأطفال خلفه صائحين ان ساعته قد أزفت.

في تلك الليلة ذرع وانغ ـ سان أرض كوخه الخشبي الترابية جيئة

وذهـابـاً عدة ساعـاتٍ من غير انقطاع . وبينما كان القرويون يغطون في النوم راح يسن موس حلاقتـه مرة تلو الأخـرى حتى غدت حافتـه المـاضية الدقيقة رفيعـة كالـرقاقة . وضع الموس على الطاولة، وأشعل ثلاثة عيدان من البخور أمام مذخره[1] المنزلي، وجثم على ركبتيه أمام الآلهة وصاح قائلاً :

- أيها الخالدون السماويون! أرجوكم ساعدوني . ليس لديَّ من ألتفت إليه سواكم .

وفي تلك اللحظـة بالـذات كان لو ـ تنـغ ـ بن، وهـو أحـد الثمـانيـة الخالدين، يطير عبر الظلام فوق بكين، وسمع توسلات وانغ ـ سان اليائس تتصاعد عبر هواء الليل الساكن . وفيما طفق لو ـ تنغ ـ بن يهبط إلى الأرض خرَّ وانغ ـ سان على وجهه منهوك القوى، وسمع في حلمه صوت لو ـ تنغ ـ بن يطمئنه قائلاً :

- لا تقلق يا وانـغ ـ سان : غداً وحين تدنـو من بوابـة القصـر سوف يظهر إلى جانبـك رجـل يمـاثلك، ومـا إن تلمحـه حتى يتحتم عليـك أن تختفي بالسرعة الممكنة في الحدائق القريبة .

وحذَّر وانغ ـ سان، وهو في حلمه، لو ـ تنغ ـ بن من عقاب الامبراطور القـاسي لأولئـك الـذين يسيلون الـدم من فروة رأسه، إلا أن هذا الأخير هدأ مخاوفه . وتلاشى صوت الخالد من الحلم، وغاص وانغ ـ سان في نوم عميق .

وعنـدمـا أفاق تذكر الحلم بوضوح شديد غير أنه لم يعلم فيما إذا كان لزامـاً عليـه أن يصـدق ما كان قد سمعـه . وبعـد أن تناول فطوراً ضئيلاً علَّق الحلاق المذعور صندوق عدته على كتفه وانطلق إلى موعده والأسى يفعم قلبه .

---

١ ـ المذْخر : وعاء تحفظ فيه الذخائر الدينية . المترجمة .

عبـر القـريـة بسـرعـة متجـاهـلاً سخريات جيرانه المهينة ويمَّم شطر القصر. وكما كان لو ـ تنغ ـ بن قد وعده في الحلم، دنا منه رجل شديد الشبه به وكـان يحمـل صنـدوق عدةً مماثلاً لصندوقه. والتفت الغريب إلى وانغ ـ سان وغمزه ثم سار مختالاً نحو الحراس الواقفين عند بوابات القصر. توقف وانـغ ـ سان لحظـة وهـو يتـابعـه بأنظاره، ثم، وخشية أن ينقلب عليه حظه، سارع إلى الاختبـاء في الحـدائق القـريبـة، وبعـدئـذ شق طريقـه إلى بيتـه خلسة.

كان لو ـ تنـغ ـ بن قد وفى بوعــده، وأُدخـل، وهـو متنكـر في هيئـة الحـلاق، إلى حضـرة الامبراطور. وبعد أن انحنى أمام الامبراطور أعد لو ـ تنغ ـ بن موس حلاقته، ومزج معجون الحلاقة في زبدية، وأمر الحراس أن يحضروا مناشف ساخنة. تأثر الامبراطور بثقته وكفاءته، وشعر بالأمان عندما أحس بيد لو ـ تنغ ــ بن الثابتة تعمل عبر فروة رأسه، فهتف قائلاً:

- إنَّ معظم الحـلاقين الـذين يقصون شعري يرتجفون دائماً. وأجدُ أن من الغريب أن تكون يدك ثابتة كصخرة.

أجاب لو ـ تنغ ـ بن في ثقة:

- إنَّ ذلك لايعود إلى كوني حلاقاً جيداً فحسب، بل لأن لدي القدرة أيضاً على معالجة قروحك وتمسيد ندوبك.

فحـذَّرهُ الامبراطور من قدره المحتوم فيما لو ظهرت قطرة واحدة من الدم على المناشف الساخنة إلا أن الحلاق لم يجفل. وما إن طفق موس الحلاقة يلمس قروح ونـدوب الامبـراطـور حتى راحت الإصـابـات تجف والنـدوب تشفى على نحو إعجازي خارق.

سُرَّ الامبراطور من مهارة الحلاق وقال:

- لم أتصــور قط أن في مقـدور أي شخص أن يشفيني هكـذا ودون ألم.

وكتعبير عن شكري يمكنك الحصول على مافي وسعك حمله من الذهب.

أجاب لو ـ تنغ ـ بن بتواضع:

- باحترام عميق ياجلالة الامبراطور: أنا لاأهتم بالذهب. كل ماأبتغيه راية امبراطورية حمراء كرمز لاستحسانك.

وأُجيب لو ـ تنغ ـ بن إلى طلبه، وقفل عائداً إلى منزل وانغ ـ سان وهو يحمل الراية الامبراطورية الحمراء، ووجده يرتجف في فراشه بقلق شديد، فوضع الراية برفق على وسادته الرطبة، وطمأنه قائلاً:

- لايتعين عليك أن تخشى الامبراطور أبداً بعد اليوم. لقد أجللت الخالدين طوال حياتك ولهذا وصلت لإسداء العون إليك. ضع هذه الراية الحمراء خارج بابك وستجر عليك حظاً جيداً.

واختفى لو ـ تنغ ـ بن بالسرعة والهدوء اللذين أتى بهما.

وثبّت وانغ ـ سان الراية الحمراء فوق باب كوخه، ومنذ ذلك اليوم طفق الزبائن ينجذبون إلى مسكنه وقد أدخل رمز التعيين الملكي هذا الطمأنينة إلى قلوبهم. وحذا حلاقون آخرون، حسدوا وانغ ـ سان على شعبيته، حذوه، وراحوا يعلقون رايات حمراً أيضاً خارج حوانيتهم لاجتذاب الزبائن.

وهذا هو سبب وجود رايات حمر متدلية خارج حوانيت الحلاقين في جميع أرجاء الصين حتى يومنا هذا.

انتقام التاجر

في سن الخامسة عشرة غادر ليو ـ شي ـ تشانغ عائلته الفقيرة بحثاً عن العمل في مدينة قريبة. وغدا غلاماً متدرِّباً عند تاجر من تجار الحرير، وبالعمل الدؤوب والموهبة التي حبته إياها الطبيعة اكتسب حسن الاطلاع والشهرة والاحترام. وما إن بلغ الثلاثين من عمره حتى أمسى واحداً من أثرى تجار الحرير في المقاطعة، إلا أنه لم ينس جذوره، وأقسم أن يعود إلى أهله لمؤازرتهم في شيخوختهم.

وذات صباح ربيعي حَمَّلَ حصانين بالذهب واليشب والعاج وهدايا من الحرير وانطلق ليزور والديه. وحين أرخى الليل سدوله كان لايزال على مبعدة نصف يوم من قريته، فقرر البحث عن حانة يُمضي الليلة فيها. وبعد أن بحث عدة ساعات بلا جدوى رأى مصباحاً يتدلى فوق باب منزل أحد صناع الأواني الخزفية، فطرق الباب بحثاً عن فراش.

كان، لسوء الحظ، قد اختار منزل زوجين هما أكثر الأزواج جشعاً في القرية. وما إن فتح الخزاف وزوجته الباب حتى استرعت انتباههما ملابس التاجر الثمينة والحقائب الثقيلة المنتفخة بالبضائع النفيسة والموثقة إلى

ظهري حصانيه. وبلغ الإغراء بسرقة هذه البضائع أشده عند هذين الزوجين الشرهين، لذا لم يكد التاجر يجلس لتناول طبق من الأرز حتى عاجله تشاو - تاي بضربة عنيفة من مطرقة حديدية صدعت جمجمته. وحمل الزوجان القاتلان جثة التاجر، تحت جنح الظلام، إلى حقل يقع خلف منزلهما، ودفناه بحرص في قبر عميق.

وانتشرت الأنباء عن ثراء صانع الأواني الخزفية المفاجىء انتشاراً سريعاً عبر المقاطعة، وسرعان ما وصلت إلى أسماع مرابٍ يدعى تشانغ - بييه - كو، فأسرج حصانه على الفور وانطلق ليطالب الخزاف بدين قديم. وحين وصل إلى منزل المستدين لم يستطع أن يصدِّق التغييرات التي طرأت على منزل الخزاف.

كانت قد بُنيت غرفتا نوم جديدتان مع شرفة معقَّدة مصنوعة من الحديد، وشيدت حديقة صخرية وبركة للأسماك مكان الحديقة التي كانت مهملة في السابق. وعلى الرغم من أن تغييرات باهظة كانت قد طرأت على المنزل والحديقة، لم تكن زبدية واحدة أو إبريق واحد أو آنية واحدة قد بيعت في حانوت الخزَّاف. وفي الواقع كان قد مضى وقت طويل على افتتاح الحانوت على الملأ إلى حدٍّ جعل طبقةً من الغبار تغطي الآن الأواني الخزفية.

طرق تشانغ - بييه - كو باب الحانوت فحياه الخزَّاف تحية حارة وسأله:

- أهلاً بك في بيتي. أعتقد أنَّ في ميسوري تخمين سبب مجيئك. أنت تريد اقتراض نقود مني، ألست مصيباً؟؟؟

قال تشانغ - بييه - كو في ذهول:

- ماذا تعني بقولك اقتراض نقود منك؟؟؟ أنت بالتأكيد لم تنس دينَك؟؟؟

أجاب الخزاف :

- والآن ياصديقي الطيب . ليس ثمة مايدعو إلى خجلك من فقرك . أعرف أنك تريد صدقة . وليس ثمة مايستوجب ادِّعاءك بأنني مدين لك .

فرد المرابي بتحد :

- ماذا تقصد بذلك؟؟؟ أنت تعرف تمام المعرفة أنني أقرضتك مايكفي لابتياع مؤونة الشتاء من الطعام، ولن أبرح هذه البقعة إلى أن تفي دينك .

غير أن الخزاف تأبَّى ، ووقف الرجلان وقد عقد الصمت لسانيهما . وأخيراً حلَّ الخزاف رباط كيس جلدي معلق في خصره وقال :

- الآن ، خذ هذا وامض . واذكر صدقتي بامتنان .

وأفرغ كومة من القطع النقدية على الأرض وطفق يراقب تشانغ - بييه - كو وهو يجمعها زاحفاً على يديه وركبتيه .

وبعد أن أحصى تشانغ - بييه - كو القطع النقدية ألفى المبلغ ناقصاً ، فالتقط طبقاً خزفياً تعويضاً عن الفرق ، ووضع الطبق تحت معطفه وغادر الحانوت غاضب المزاج ويمَّم شطر بيته عند طرف الغابة القصي . عند منتصف الغابة حرَّكت الأشجار ريح لاسعةٌ اخترقت سترته القطنية الرقيقة . ويبدو أن البرد تخلل عظامه إذ انتابته قشعريرة في البدء ثم لم يلبث أن عطس . وكانت العطسة من القوة بحيث جعلت الطبق الخزفي ينزلق من جيبه الداخلي ، ويسقط على أرض الغابة .

صاح صوت قريب :

- أوه ، انتبه ! . . إنَّ ذلك يؤلمني .

فالتفت تشانغ - بييه - كو حوله ليكتشف مبعث الصوت ، إلَّا أن كل ماستطاع سماعه هو صفير الريح في الأشجار .

وتـابـع طريقـه متيقِّناً أنه توهم ماسمع ، إلَّا أن الصوت نفسه ناشده أن يبطيء، فتجـاهـل الصوت واتخذ طريقه إلى البيت فأقصى مالديه من سرعة. وحين دخـل مطبخـه ألقى الطبق الخـزفي على كرسي خشبي ، ومـرة أخرى صاح الصـوت متألمـاً . فتيقن تشـانغ ـ بييه ـ كو هذه المرة أن الصوت تناهى من الطبق الخزفي ، لذا التقطه، وقرَّبه من أذنه . صاح الصوت في يأس:

ـ أجـل . أنـا في الطبق الخـزفي . أرجـوك ساعـدني ياتشانغ . لقد قُتلْت. ساعدني على إحضار قاتلي إلى العدالة.

سأل تشانغ ـ بييه ـ كو قائلاً :

ـ هل أنت شبح؟؟؟

إلا أن الطبق لزم الصمت. فتابع تشانغ ـ بييه ـ كو استجوابه :

ـ أيَّ نوع من الأرواح أنت؟؟ لماذا تختبيء في هذا الطبق الخزفي ، ومن قتلك؟؟؟

وكشف ليـو ـ شي ـ تشـانـغ كيف قُتـل ودُفن في حديقـة الخـزاف الخلفيـة . كانت روحـه قد دخلت التـراب الصلصالي الأحمر الذي حُفر فيه القبـر، وبعـد مضي عدة أيام على الجريمة استخدم الخزاف هذا الصلصال لصنع طبق خزفي ، وكان هذا الطبق هو الطبق نفسه الذي كان تشانغ ـ بييه ـ كو يمسكه بين يديه . كانت الروح في حاجة إلى إنسان لمساعدتها على رفع تقـريـر عن الجـريمة إلى باوـ كنغ ، قاضي المقاطعة . وحين فرغت الروح من حديثها فاضت الدموع من الطبق .

وافق تشـانـغ ـ بييـه ـ كو، وقد أجفله مشهد طبق يبكي ، على إحضار الخزاف إلى العدالة .

وعند الفجر، في صبيحة اليوم التالي ، لفَّ الطبق بعناية وحرصٍ في قماشة من الحرير، وانطلق متوجهاً إلى محكمة الشعب في أقرب مدينة .

وحين وصل إلى بوابات محكمة القاضي روى بإلحاح شديد قصة الطبق الخزفي فأُدخل على الفور إلى حضرة القاضي باو ـ كنغ.

أصغى القاضي الحكيم إلى القصة بأناةٍ، ثم طلب من الروح الموجودة في الطبق أن تقدِّم نفسها.

إلاَّ أن روح ليو ـ شي ـ تشانغ لم تنبس ببنت شفة. فرفع القاضي الطبق إلى أذنه وسأل مرة أخرى قائلاً:

- تحدَّثي إلي يا روح الطبق.

إلا أن الطبق لاذ بالصمت مرة أخرى. فسلَّم باو ـ كنغ بأن المرابي قد خرف وأمر حراسه بطرده.

صفع تشانغ ـ بييه ـ كو الطبق صفعة قوية بعد أن شعر بالغضب والمهانة، وطلب من ليو ـ شي ـ تشانغ أن يفسر سبب صمته أمام القاضي. فقالت الروح:

- أرجو ألا تضربني. لم أستطع الإجابة لأنني لم أكن موجوداً هناك. لقد سمح لك الحارسان الموجودان عند البوابة بالدخول، بيد أن آلهة باب عالم الأرواح ماكانت لتسمح لي بالمرور. هل تستطيع شرح ذلك لباو ـ كنغ.

فقفل تشانغ ـ بييه ـ كو عائداً إلى القاضي الذي أصاخ السمع مرة أخرى متعاطفاً، ثم نظَّم تعويذة ناشد فيها آلهة الباب منح حق الدخول. وأحرق حراس المحكمة التعويذة خارج البوابات، وسُمح لروح ليو ـ شي ـ تشانغ بالدخول إلى المحكمة ضمن الطبق الخزفي.

وضع تشانغ ـ بييه ـ كو الطبق على مكتب القاضي، وطلب من الروح مرة أخرى أن تتحدث. إلاَّ أن الطبق لزم الصمت مرة ثانية، فنفذ صبر تشانغ ـ بييه ـ كو وهز الطبق بعنف، ومع ذلك لم تفلح الروح في الرد.

واقتنع ـ باو ـ كنغ أن الحادثة بأكملها خطة ترمي إلى جعله يظهر بمظهر الأحمق، فاستدعى الحراس إلى مكتبه وأمرهم بضرب المرابي ضرباً مبرحاً وطرحه في الشارع.

مزقت سياط الحراس الجلدية جلد تشانغ ـ بييه ـ كو وطرح حتى الغروب عند قارعة الطريق خارج القصر. وعندما ثاب إلى صوابه نهض على قدميه بتثاقل وركل الطبق الخزفي بعنف إلى قناة في جانب الطريق. فصاحت الروح قائلة:

ـ رويدك أرجوك. في ميسوري أن أشرح كل شيء.

وتابع ليو ـ شي ـ تشانغ التماسه قائلاً:

ـ أعطني فرصة واحدة أخرى فحسب. كنتُ على وشك التكلم إلى القاضي عندما تذكرت أنني كنت عارياً. لم يكن في مقدوري التكلم معه وأنا عارٍ. ينبغي أن ترتدي روحي ثياباً لتظهر الاحترام اللائق. أرجوك لاتتخل عني وأنا في أمسِّ الحاجة إليك. إذا لم تمد إليَّ يد العون فسأبقى محتجزاً في هذا الطبق إلى أبد الآبدين. أرجوك أعطني فرصة واحدة أخرى. أرجوك أنقذني.

ولم يطاوع تشانغ ـ بييه ـ كو قلبه على رفض توسلات ليو ـ تشي ـ تشانغ، فوافق على مضض أن يساعده مرة أخرى. وضع قماشة حول الطبق، وقفل عائداً إلى بوابات المحكمة وهو ينادي ليو ـ شي ـ تشانغ باسمه كلما سار قليلاً ليتأكد من أنه لايزال في الطبق. أجابت الروح:

ـ توقف عن القلق. أنا لاأزال هنا. وأعدُك أن أبقى هنا.

عندما وصلا إلى البوابات أمرت روح ليو ـ شي ـ تشانغ الحراس بالتنحي جانباً، فذهل الحراس ذهولاً بالغاً لسماعهم طبقاً يتحدث إلى حدِّ أنهم وثبوا مبتعدين على الفور.

وهُرع تشانغ ـ بييه ـ كو إلى مكتب باو ـ كنغ، ووضع الطبق الملفوف بالقماش على منضدة القاضي، وصاح لاهثاً:

ـ سَلْهُ ما تشاء.

فأمره القاضي قائلاً بغضب:

ـ اغرب عن ناظري.

ـ ياصاحب الفضيلة، اصغ إلى الطبق. أرجوك أسمع ماينبغي أن يقوله.

وما إن فرغ تشانغ ـ بييه ـ كو من حديثه حتى طفق صوت كئيب انبعث من داخل الطبق يصف بفصاحة الأحداث التي أفضت إلى جريمة قتل ليو ـ شي ـ تشانغ. وتوقفت الروح قليلاً في انتظار تعليق من القاضي، غير أن باو ـ كنغ كان مصعوقاً إلى حد عقد لسانه، لذا تابعت الروح سرد القصة دون ارتباك إلى أن فرغت أخيراً من وصف أحداث موت التاجر، فاستدعى باو ـ كنغ الحراس دون تلكؤ وأمرهم بإلقاء القبض على الخزاف وزوجته.

وفي صباح اليوم التالي أحضر القاتلان إلى المحكمة، وقدَّمت روح الطبق الدليل ضدهما. وما إن فرغ الطبق من حديثه حتى انهارت زوجة الخزاف واعترفت بجريمتهما والدموع تملأ عينيها. وأُعطي الحُكم بأنهما مذنبان، وصدر بحقهما قرار الإعدام. وفي ذلك المساء، وفيما كانت الشمس تغرب، شُنقا في ساحة البلدة أمام حشد ساخر.

وبعد شنقهما عاد تشانغ ـ بييه ـ كو إلى بيته مرهقاً من جراء مغامرته هذه، إلاَّ أنه كان راضياً بالنتيجة. ولم يتحدث الطبق مرة أخرى بعد تنفيذ الشنق، لذا سلَّم تشانغ ـ بييه ـ كو بأن روح ليو ـ شي ـ تشانغ قد أخلدت إلى الراحة الأبدية، فوضع الطبق الخزفي بعناية على أعلى رف في مطبخه.

وبناء على أوامر القاضي قام تشانغ ـ بييه ـ كو بإعطاء عزبة الخزاف وكل ممتلكاته إلى والدي التاجر القتيل ليو ـ شي ـ تشانغ فوهبه الوالدان

المُمْتنَّان مكافأة سخية. وضع تشانغ ـ بييه ـ كو مكافأته المكونة من الذهب والفضــة واليشب في كيس جلدي ودفنـه تحت ألواح أرضية المطبخ، وما إن أعـادهـا إلى مكـانها حتى قفز الطبق عن الرف وسقط على الأرض. فألصق تشـانـغ ـ بييـه ـ كو الأجـزاء المكسورة بالغراء وبتدقيق بالغ إلاَّ أن الطبق لم يتحدث مرة أخرى قط. كانت روح ليو ـ شي ـ تشانغ قد ولت أخيراً.

اختبار تشانغ ـ كو ـ لاو

كان تشانغ ـ كو ـ لاو كهلاً حكيماً مُتقد الذهن، إلا أن أولاده الثلاثة كانوا بُلداء وحمقى. كان ابناه الأكبران قد تزوجا امرأتين سرعان ما اتضح غباؤهما على حد سواء. وعرف أنهما بلغتا من الحماقة شأواً يحول دون اعتنائهما بنفسيهما، وخامره القلق فيما سيؤول إليه حالهما بعد وفاته. وقرر في نهاية المطاف إيجاد فتاة ذكية تصلح زوجة لابنه الأصغر الغبي. بيد أنَّه على الرغم من بحثه الدؤوب أخفق في العثور على الزوجة المناسبة، فعمد، وقد شغل باله مستقبل عائلته، إلى ابتكار خطة يختبر بواسطتها كنَّتيه آملاً الكشف عن بصيص ذكاء في شخصيتيهما.

وذات صباح صيفي استدعى الكهل المرأتين معاً إلى اجتماع، وقال:

ـ لقد مضى وقت طويل مذ رأت كل منكما والديها، ويخامرني الشك في أنكما تشعران بوحشة بالغة إليهم. ألست على صواب؟؟؟

أومأت المرأتان موافقتين، فتابع الكهل حديثه قائلاً:

ـ عليكما معاً حزم حقائبكما على الفور، والمضي لزيارتهم، ولكن عليكما

العـودة في الـزمن الـذي سأحـدِّده: تستطيعين، ياكنتي الكبـرى، البقاء ثلاثة خمسة أيام، أما أنت ياكنَّتي الصغرى فتستطيعين البقاء سبعة ثمانية أيام.

بلغت الاستثـارة عنـد المـرأتين أشـدها إلى حدٍّ أنهما أومأتا موافقتين بشـدة دون التفكيـر مليـاً فيمـا قال. وفي الليلة التي أوشكتا فيها على مغادرة الغرفة طرح تشانغ ــ كو ـ لاو طلباً آخر. قال:

ـ أريد من كل منكما أن تعود وفي حوزتها هدية لي. على إحداكما أن تعود بنار مُغلفةٍ بالورق، وعلى الثانية أن تعود بدجاجة لاسيقان لها.

ولمَّا كانت لهفة المرأتين على المغادرة قد بلغت شأواً كبيراً فقد وافقتا على هذا الطلب في الحال ولم تدرك أيٌّ منهما ماوافقت عليه إلاَّ حين كانت تودع الأخرى على الطريق الكائن خارج القرية. هتفت الكنَّة الكبرى قائلة:

ـ لقـد طلب مني العودة في ثلاثة خمسة أيام ومعي نار مغلَّفة بالورق ولكني لا أعرف ماذا يقصد على الإطلاق.

ردت الكنة الصغرى قائلة:

ـ حسناً! أنا مشوشة مثلك تماماً. لا أعرف ماذا يتوقع مني أن أفعل، وإذا لـم أعد في الوقت الصحيح مع الهدية الصحيحة فسوف يعتقد أنني بلهاء.

جلست المـرأتـان، وطفقتـا تناقشان هذه الألغاز إلى أن عصف الألـم برأسيهما، ومع ذلك عجزتا عن إيجاد جواب. وأخيراً بدأت الكنة الصغرى تنتحب، وقبل مضيِّ وقت طويل كانت الكنة الكبرى قد عجزت عن السيطرة على دمـوعهـا. وفيمـا كانت المـرأتـان جالستين تنتحبان مر بهما جزار يتاجر بلحم الخنزير، ومعه ابنته وتدعى فنغ ـ كو.

دنت فنغ ـ كو من المرأتين المخبولتين وسألتهما:

ـ ما الخطب؟؟؟ لِمَ تنتحبان بهذه الشدة؟؟؟ هل تعرضتما لأذى؟؟

فردت الكنة الكبرى قائلة :

- كلا. إنَّ الأمر أسوأ من ذلك بكثير. لانستطيع العودة إلى بيتنا قبل العثور على حلٍ لمشكلتينا.

وأخبرت المرأتان، بين التنهد وبين النشيج، فنغ - كو بكل ماحدث. فقالت مطمئنة إياهما:

- ليس ثمة مايدعو إلى البكاء. ثلاثة مضروبة بخمسة تعني خمسة عشر، وبإضافة سبعة إلى ثمانية يكون الناتج خمسة عشر. عليكما العودة إلى البيت بعد خمسة عشر يوماً. ولا تقلقا فيما يتعلق بالهدية أيضاً. النار المُغلَّفة بالورق هي المصباح، والدجاجة التي لا سيقان لها هي اسم طبق من خثارة الفاصولياء. هل فهمتما الآن؟؟.

فسرَّت المرأتان بنصيحة فنغ - كو بعد أن شكرتاها بحرارة سارتا في دربيهما المنفصلين، وبعد خمسة عشر يوماً، وكما كان تشانغ - كو - لاو قد طلب، عادت المرأتان إلى البيت تحملان الهديتين المناسبتين. فتأثر بفطنتيهما وقرر أنه كان قد استخف بذكائهما. غير أن المرأتين لم تُخفيا الحقيقة: أخبرتا حماهما عن لقائهما بابنة جزار لحم الخنزير، فهتف تشانغ - كو - لاو قائلاً:

- إذا كان كل ماتقولانه صحيحاً فلابد أنها امرأة ذكية للغاية. يبدو أنها الكنّة المثالية.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي زار تشانغ - كو - لاو جزار لحم الخنزير، إلاَّ أن الرجل كان قد مضى إلى السوق، ولم يكن في المنزل سوى فنغ - كو بمفردها. سألته قائلة:

- عِمت صباحاً ياسيدي، كيف لي أن أساعدك؟؟؟

رد تشانغ - كو - لاو قائلاً:

ـ أريد رطلاً من جلدٍ يستند إلى جلد، ورطلاً من جلدٍ يضرب جلداً.

فاختفت فنـغ ـ كو دون تردد في غرفـة التخـزين المعتمـة الكـائنة في خلفيـة الحـانـوت. ولم تلبث أن عادت وسلمتـه رزمتين ملفـوفتين بأوراق اللوتس، ففتحهما أمامها. كانت إحدى الرزمتين تحتوي على آذان خنازير، وكانت الثانية تحتوي على أذناب خنازير.

كانت، مرة أخـرى، قد حلَّت لغـز تشـانـغ ـ كو ـ لاو بدقـة، وسُـرَّ لذكائها. وفكر قائلاً في قرارة نفسه: «هذه هي المرأة التي أحتاجها كنَّة. إنها الوحيدة التي سيكون لوجودها معنى في منزلي».

وعـاد تشـانـغ ـ كو ـ لاو إلى البيت ورفـع الصلوات إلى الآلهـة، ثم استدعى صانع الزيجات[1].

ومـع حلول الـخـريـف، وحـيـن كان الـزوجـان قد وافـقـا على الـزواج، نظم حاكم القـريـة عقد القران وأقيمت وليمة زفاف مترفة في منزل تشـانـغ ـ كو ـ لاو، وأثبتت فنـغ ـ كو أنها ربة منزل مرهفة وذات كفاءة، ومن خلال تأثيرها الصالح عاش كل من كان تحت سقف تشانغ ـ كو ـ لاو في أُلفة وانسجام.

---

١ ـ صانع الزيجات: شخص يجمع بين الناس عن طريق الزواج، وهو أقرب مايكون إلى «الخاطبة» في المجتمع العربي القديم. المترجمة.

خَلْقُ بان ـ كو

عند بدء تشكل الزمن كانت ثمة بيضة ذات حجم لايمكن تصوره ملأى بالظلمة والهيولى[1]. داخل البيضة كان بان ـ كو، جدُّ البشر جميعاً، قد تشكل من الهيولى. وترعرع ببطء وسط الكتلة التي لم يكن لها شكل، مغتذياً بالظلام، وكان لمدة ثمانية عشر ألف عامٍ يجهل وجود أية حياة خارج شرنقته السوداء.

وذات يوم نخعته حركة مفاجئة فأيقظته، إلا أن الظلام الدامس لم يتح له رؤية أي شيء، وسرعان ما حل الغضب محل خوفه الفطري حين أدرك أنه سجين. فطفق يعدو عبر الهيولى وهويضرب بقبضتيه نحو الخارج، ولم يلبث أن حطم القشرة السوداء المحيطة به. وعلى الفور اندلق النور والوضوح، اللذان كانا محجوبين لزمن طويل، خارج البيضة وارتفعا إلى السماء، وسقط كل ماهو عكر ومظلم إلى الأرض. ومنذ ذلك الحين انقسمت السماء عن الأرض بوضوح. بيد أن بان ـ كو لم يستطع التيقُّن من

١ ـ الهيولى: المادة اللامتشكِّلة والتي يفترض أنها سبقت وجود الكون. المترجمة.

أن النـور والظـلام لن يسقطـا ثانية إلى الهيولى من المكان الذي خرجا منه، فعمد إلى دعم السماء برأسه وإبقاء الأرض عن طريق قدميه ثابتة في مكانها بإحكام.

وكـانت السمـاء والأرض تبتعـدان عن بعضيهما كل سنة، وكان جسد بان ـ كو يمتد ليملأ الفراغ الكامن بينهما. وبعد مضي ثمانية عشر ألف عام لم يعد في الإمكان رؤية قمة السماء أو قعر الأرض، إلا أن بان ـ كو أبقاهما بعيـدتين عن بعضيهمـا بهمَّـة لاتعـرف إلى الكلل سبيـلاً خشيـة أن تعـود الهيـولى. ومـرت آلاف الأعوام وترسَّخَ في السماء بإحكام كلُّ ماكان واضحاً ومضيئاً، واستقر في الأرض بإحكام كلُّ ماكان عكراً ومُظلماً.

وعنـدمـا تيقَّن أن العـالـم أصبـح في مأمنٍ انهـار بان ـ كو منهكـاً وبدأ يحتضـر. واستحـالت أنفـاسـه الأخيـرة إلى رياح وغيوم، وانقلب صوته إلى رعدٍ، وطارت عينه اليسرى إلى السماء لتصبح الشمس، وتبعتها عينه اليمنى برشـاقـة لتصبـح القمـر. وأصبـح جذع بان ـ كو وأطـرافـه، بعد خلوهما من الحياة، السهول والمنبسطة والجبال الصخرية، وانساب دمهُ برشاقة جداول وأنهاراً، وتحولت أوتاره إلى طرق ودروب، واستحالت عضلاته إلى تربة. أما شعـره الشـائب الكثيف ولحيتـه الطـويلة فقد تحولا إلى نجوم، وسقط جلده وشعـر جسمـه الـدقيق إلى الأرض وتجـذرا فيهـا أعشـابـاً وأزهاراً وأشجاراً، واستحالت أسنانه وعظامه ولبُّ عظامه إلى معادن ويواقيت ويشب. وتساقط عرقه، الذي كان على جسده، أمطاراً وندىً..

قَدَّم بان ـ كو جسده إلى العالم، وحين مات وَهَب الولادة للحياةِ كُلِّها أيضاً.

أوامر الامبراطور

تيتَّم تشو ـ يوان ـ تشانغ بعد ولادته تماماً، وتبناه عمٌّ بعيدٌ دون أن يرغب في ذلك، وفي السنة الثانية من عمره التقط عدوى مرض جلدي في فروة رأسه، ولم يفلح أعظم أطباء الأعشاب خبرة في شفاء قشور جراحه وقروحه المتورمة. وكان كل شخص، حتى عمه، يعرفه باسم تشانغ ذي الرأس المتورم. وذاع صيته على أنه ولد كسول ونهم.

وذات أصيل، وفيما كان عمه يحرث أحد حقوله ليزرع الذرة، انتهز تشو ـ يوان ـ تشانغ الفرصة ليلعب في حقل قريب من حقول الفول السوداني. في ذلك الوقت كان الفول السوداني ينمو دائماً فوق سطح الأرض، لذا لم يكن على الفتى حين يقرصه الجوع إلا أن يجثو ويأكل من الفول السوداني مايحلو له. وهكذا أمضى تشو ـ يوان ـ تشانغ أصيلاً سعيداً وهو يأكل الفول السوداني، ويتسلق الأشجار، ويطارد أية أرانب تجازف بدخول حقل الفول السوداني. وأثقلت حبات الفول السوداني الكثيرة التي تناولها، والإجهادات التي قام بها، جفنيه بالنعاس، فاستلقى للنوم على سيقان الفول الخشنة في وسط الحقل.

وداهمه النعاس، على نحو متقطع، قرابة ساعة من الزمن فحسب، إذ أن السيقان الحادة كانت تنغرز على نحو مؤلم جداً في فروة رأسه، مما جعل النوم مستحيلاً، فوقف، ونزع النبتات من التربة وطفق يدوسها غاضباً وهو يقول:

- إنني أمقتك يانبتات الفول السوداني الغبية. لماذا لايكون نموك تحت الأرض لافوقها؟؟؟

ولشد ما ذهل حين رأى نبتات الفول السوداني تتحرك عبر التربة. في البدء راحت تتحرك ببطء وقد زحفت كل منها فوق الأخرى ضافرة سيقانها، ثم غمرتها فورة طاقةٍ فبدأت تحفر التربة بنشاط جم، وسرعان ما اختفت عن الأنظار، وبدا سطح الحقل وكأنه قد حُرث منذ فترة وجيزة. وعلى الرغم من أن تشانغ ذا الرأس المتورِّم لم يدرك ذلك طفقت كل حبة فول سوداني منذ ذلك اليوم تنمو تحت التربة. حار المزارعون للوهلة الأولى حين كفَّت فولاتهم عن النمو فوق الأرض، إلاَّ أنهم شيئاً فشيئاً تقبَّلوا هذا التغيير على أنه مرسوم من مراسيم السماء.

ولم يدرك أي شخصٍ مدى قوة كلمات تشو - يوان - تشانغ، وكان الفتى نفسه أكثر الجميع جهلاً بذلك.

بعد مضي عدة أشهر على تلك الحادثة الغامضة في حقل الفول السوداني، أوكلت إلى تشو - يوان - تشانغ مسؤولية رعاية إوزات عمه، فأخذ تشانغ ذو الرأس المتورم الإوزات إلى النهر في الصباح، واستلقى على ضفة النهر طيلة النهار، وساق الإوزات إلى البيت في المساء.

وذات يوم، حين فاقت حرارة الظهيرة قدرة الاحتمال، خلع تشو - يوان - تشانغ ملابسه للسباحة بغية الابتراد. ورأى تحته في الماء البلُّوري

الصـافي سمكـة أرجـوانيـة تسبـح ببطء على طول قاع النهر. فغاص بسرعة البرق وأمسك السمكة بيديه.

جاهـدت السمكة للإفلات من قبضة الفتى المحكمة إلا أنها سرعان مامـاتت بعـد خروجهـا من المـاء. وأضـرم تشـو ـ يوان ـ تشـانغ ناراً صغيرةً مستخـدمـاً في ذلـك الأغصان الصغيرة، وقام بتحميص السمكة على سفُّودٍ تجـره من غصن، وحين نضجت اتكأ على جذع شجـرة غليظة وطفق يأكلها بيديه العزلاوين. كان يتأنى في تناولها ليتسنى له الاستمتاع بكل لقمة منها، ومـا إن أتى على نصف وجبتـه الشهية حتى سمع عمه يدنو، فقذف النصف الذي لم يأكله إلى الماء نادماً وقال:

- ياسمكتي ذات المـذاق الشهي، عودي إلى الحيـاة ليتسنى لي أن آكلك مرة أخرى ذات يوم.

وبكل طاعة عادت السمكة التي كان قد أكل نصفها إلى الحياة. كان نصف جسدها أرجوانياً، والنصف الآخر، النصف الذي كان قد أكل مكانه، أبيض اللون. وكـان تشـانـغ قد دفـع إحـدى عينيِّ السمكـة عبر رأسها، لذا أصبحت عينـاها معاً على الجانب الأرجواني في جسمها. وعاشت السمكة وترعرعت، وصار الناس الذين يصطادونها يسمونها سمكة موسى.

وبعـد عدة أسـابيـع، وفيمـا كان تشـانـغ يقـوم بحراسة إوزات عمه، وصلت مجموعة من أصدقائه لتحتفي باحتفال قمر الخريف. كانوا يحملون زبـديـات من الأرز لا لحم فيها، لذا طلبوا منه قتل إوزةٍ وطهوها على نار في الهواء الطلق، فرد تشانغ قائلاً بلهفة:

- طبعـاً سأعمـد إلى ذلـك. لا ضيـر على الإطـلاق. وفي الـواقـع سأقتـل الإوزات جميعاً، وسنأكل إلى أن نعجز عن الحركة.

وراح يلوي عنق كل إوزةٍ بسـرعـة، وطفق أصـدقاؤه ينزعون هياكلها

فيمـا بدأ يعـدُّ سفُـوداً فوق نار في الهواء الطلق. وأمضى الفتيان فترة الأصيل في الأكـل والضحـك والغنـاء، وعنـد الغسق قفـل كل منهم عائـداً إلى بيته وتركوا تشانغ بمفرده فوق منحدر التلة. وحينئذ فحسب أدرك ماكان قد فعل، فأقسم للسماء ألا يعود إلى أن يجد سرباً من الإوز يحلُّ محل السِّرب الذي كان قد أتى عليه، أياً كان الزمن الذي يمكن أن يستغرقه ذلك.

ومـرة أخـرى أشـرق عليـه حظ السمـاء إذ طار سرب من إوزات التَّمِّ البيض فوق رأسه فناداه قائلاً:

- اهبطي إليَّ ياإوزات التَّمِّ، وسأجعل قائدك ملك إوزات التَّم.

وفيمـا يشبـه المعجزة أخفضت إوزات التم أعناقها الأنيقة، وانقضت برشـاقـةٍ نحـو الأرض، وهبطت على مبعدة بوصات قليلة من قدميه. فقادها إلى البيت وقـد طغى عليـه الفـرح، وأوصـد عليهـا البـاب في زريبة خشبية لتقضي الليل فيها.

وكعـادتـه، تناول تشانغ طعام عشائه، ثم أخلد إلى النوم بارتياح أمام نار أذكتها زنود الخشب فيما كان عمه يتفقد كل شيء في فناء المزرعة قبل أن يأوي إلى فراشه.

واستيقظ تشانغ على صوت عمه يدعوه إلى فناء المزرعة قائلاً:

- أيـة ألعـاب حمقـاء كنت تلعب؟؟؟ ولمـاذا غدت إوزاتي بيض اللون؟؟ وانظر إلى أعناقها!!! لماذا أصبح طولها ضعف ماكان عليه؟؟؟

نظر تشانغ ذو الرأس المتورِّم إلى عمه ببراءة وأجاب:

- حين كنت أسوق الإوزات إلى منحدر التلة هذا الصباح هبت عبر الوديان وفـوق التـلال ريـح من البرد، جنوبية قوية وعاصفة، فمطَّت الريح أعناق الإوزات، وأحال البرد ريشها إلى لون أبيض.

وطفق عمه يُقلِّب الأمر في هذا التفسير لفترة من الزمن بيد أنه لم يهتد

إلى ماهو أفضل من هذا السبب لهذا التغيُّر المفاجىء، فترك تشانغ يعود إلى النوم.

وفي وقت مبكر من صبيحة اليوم التالي ناداه عمه، غير أن تشانغ راح يتقلب في فراشه وغطَّ في النوم كرة أخرى، وناداه عمه مرتين خلال الصباح، وتجاهله تشانغ في المرتين، فما كان من عمه إلا أن دخل غرفة تشانغ عند الظهيرة عاصفاً، وأمسكه من مؤخرة قميصه وسحبه من الفراش، وضربه على رأسه المتورم. فصاح تشانغ قائلاً:

- دعني وشأني أيها الأحمق العجوز. إنَّ هذا اليوم هو عيد الإوزات الطائرة، وما لم تُبق البوابة موصدة فسوف تفرُّ وتطير. لماذا يتحتم علي أن أغادر فراشي الدافىء لأقف قرب البوابة طيلة النهار؟؟؟

سأله عمه قائلاً:

- أوتحسبني معتوهاً؟؟؟ طوال حياتي وأنا أعتني بالإوز، ولم أسمع قط بمثل هذا العذر الواهي. انهض من فراشك هذه اللحظة بالذات قبل أن أركلك حتى يغمى عليك، وخذ الإوزات إلى منحدر الجبل.

فجذب تشانغ ملابسه بامتعاض، ومشى متثاقلاً إلى فناء المزرعة وفتح باب الزريبة. كان ثمة هرج ومرج واصطدمت الإوزات كل بالأخرى أثناء هروبها. وما إن غدت على مبعدة من البوابة حتى طفقت تعدو على نحو أخرق على الأرض، ثم حلَّقت برشاقة في الهواء واختفت فوق التلة خلف الكوخ إلى الأبد.

وكانت هذه القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة لعم تشانغ الساخط، فطرده من المنزل شرَّ طردة وحرَّم عليه الرجوع إلى الأبد. في تلك الليلة نام تشانغ على فراش من أوراق الأشجار الجافة في الغابة ملتحفاً بطانيةً قطنيةً باليةً هي كل ماكان يملكه.

وطفق تشانغ يسافر شهوراً بأكملها في طول البلاد وعرضها وهو يتسول الطعام من المزارعين والقرويين والكرماء الذين كان يقابلهم في طريقه. كان يُؤثِر أن يحيا على الصدقات، ولم يكن يلجأ إلى العمل إن لم يتضور جوعاً. ومنذ أن حرم عليه عمه دخول منزله فقد تشانغ قدرته على إعطاء الأوامر، وعلى الرغم من أنه كان قد بلغ من الكسل شأواً يحول دون كسب عيشه كان يعرف في قرارة قلبه أن الحظ الحسن ماثل أمامه. وأقنع نفسه أن القضية قضية زمن لا أكثر. وكان، في خط رحلاته، قد قابل مراراً وتكراراً مناوشات ومصادمات بين جنود الحكومة وبين المتمردين، غير أنه كان يعمد إلى الاختباء في أقرب مخزن للحبوب أو في غابة أو في قناة لدى أدنى علامة عل قرب حدوث متاعب من أي نوع. كانت سلالة «يوان» الحاكمة تدنو من نهايتها وكانت البلاد على شفا حرب أهلية لاتُبقي ولاتذر. بل كانت ثمة إشاعة مفادها أنَّ الامبراطور المرتقب، ابن السماء، قد ولد للتو، وأنه ينتظر اللحظة المؤاتية ليتولى مقاليد السلطة.

في تلك الأثناء كان فلكي يدعى ليو- بو- وين قد أخذ على عاتقه مهمة إيجاد ابن السماء، فقاد عصبة متنوِّعة من الخارجين على القانون المقيمين في الغابة، والذين كانوا قد عقدوا العزم على إيجاد وتتويج الامبراطور الجديد، ولو عنى ذلك الحرب حتى الموت.

وذات يوم وصل ليو- بو- وين ومتمردوه إلى جسر خشبي، ورأوا شاباً متورِّم الرأس يستلقي نائماً في زورق وقد بسط ذراعيه ورجليه. وكانت ثمة مظلة تقي رأس الفتى من الريح القارسة. فصعِق المتمردون لهذا المنظر إذ أنَّ شكل الفتى كان يُشكِّل كلمة «امبراطور» بالكتابة الصينية، وصاحوا له من الجسر، إلاَّ أنَّ تشانغ دَمْدَمَ فحسب، وأدار لهم ظهره وأنزل مظلته فوق رأسه، وإذا بهيئته الجديدة هذه تشكل كلمة «ابن» بالكتابة الصينية، فلم

يصدق المتمردون حُسْنَ طالعهم وراحوا يتدافعون منحدرين إلى ضفة النهر على نحو مسعور خشية أن يفرَّ الفتى.

ونادى ليو - بو - وين بالفتى تشانغ ابناً للسماء، وراح المتمردون يقودون هذا الفتى ذا الرأس المتورم عبر القرى والمدن معلنين أنه مؤسس السلالة الحاكمة الجديدة. وكان كلٌّ من سمعَ بتصريح الفلكي يقرُّ بحكمته السامية، وينحني إجلالاً أمام الأمبراطور الطامح. كانت نبوءة الفلكي قد تحققت. وأصبح تشو - يوان - تشانغ ذو الرأس المتورم في نهاية المطاف أول امبراطور لسلالة «مينغ» الحاكمة.

قِــوى الحــمـــار

قبل سنوات كثيرة، وفي الصين القديمة، قاد تاجرُ حريرٍ حماره داخل بلدة تشيان ـ تشو التي كانت قد شُيِّدت على أرضِ وادٍ منحدر منعزل. وصل في المساء فيما كان السكان المحليون يقومون بنزهاتهم المسائية ويتناولون عشاءهم في المطاعم الصغيرة الكثيرة. وفيما كان التاجر يقود حماره عبر الشارع الرئيسي طفق سكان البلدة المذعورون ينهضون عن موائدهم في ارتياب إذ أنهم لم يكونوا قد شاهدوا حماراً من قبل. سُرَّ بعض الأطفال لرؤية هذا الحيوان الغريب، فيما ذُعر آخرون من جلده الرمادي الخشن ونهيقه الثاقب. وكلما زادت استثارة سكان البلدة، رفع الحمار نهيقه وكشف عن أسنانه. وطفق الحمار، وقد سرَّه أن يحظى باهتمام كبير لم يكن يتوقعه، يخبُّ في سيره عبر الشوارع بثقة جديدة، فيما راح التاجر يمشي خلفه في سعادة.

وفي تلك الليلة راح الحمار يتقلَّب ويدور دون أن يستطيع الإخلاد إلى النوم، وقرر في نهاية المطاف أن ينهك نفسه بالجري أثناء الليل. فراح يجري ويجري دون أن يفطن إلى أين كان يمضي لذا ما إن توقف في آخر

الأمر حتى كان قد ضل سبيله في الغابة. فقرر أن يستلقي أرضاً وينتظر انبلاج الفجر.

وأيقظه هطول الندى البارد على أنفه وأذنيه، وسرت قشعريرة في ظهره حين لاحظ جلده الرطب. فنهض ونفض نفسه وأخفض رأسه ليتناول بعض العشب قبل أن يتوجه بحثاً عن القرية. وفيما كان يأكل سمع همساً خلفه، ولم تلبث الهمسات أن انقلبت إلى ضوضاء من الثرثرة بلغت من العلوِّ شأواً أعجزه عن التركيز على فطوره. وحين التفت حوله رأى صفّاً من المشاهدين الفضوليين الذين فتنهم شكله الغريب وحجمه الضخم. فقال في قرارة نفسه: «إذا كان سكان البلدة قد ذهلوا أيما ذهول لرؤيتي، فإن هذه الحيوانات، على ماأتصور، عاجزة عن تصديق أعينها. سأعطيها مايثير تفكيرها».

ورفع رأسه، وأطلق نهيقاً يصمُّ الآذان، ورفس الهواء بقائمتيه الخلفيتين، فأطلقت الحيوانات صرخات ذعرٍ واندفعت ملتمسةً الأمان في جحورها وعرائنها. وحده الببغاء لم يخفْ، وصفَّق بجناحيه سروراً، وطار برشاقة إلى النمر ليخبره بما رأى. وفي غضون ذلك طفق الحمار يتابع فطوره وقد سرَّهُ عرضه لقوته أيّما سرور.

وعندما سمع النمر قصة الببغاء تحمس لمقابلة هذا المنافس المقتدر، فاندفع عبر الشجيرات النامية تحت الأشجار الكبيرة لإلقاء نظرة على الحيوان الغريب. وتوقف على مقربة من منطقة مقطوعة الأشجار ليستجمع أفكاره، ثم اقترب بحذر شديد من البقعة التي كان الحمار لايزال يتناول طعامه فيها. وغمره اليأس حين رأى الضخامة التي كان عليها الحمار، وقرر أنَّ مايتحتم عليه هو اختبار مهارة خصمه ليرى إن كانت سيادته قد تعرضت لتحد جدِّي.

رأى الحمار الساذج النمر من زاوية عينه، بيد أنَّه، بحكم كونه لم ير نمراً من قبل، لم يجد ما يبرر الخوف منه، وارتأى أن يعطي النمر لمحة عن قوته فصرَّ بأسنانه صريراً كان أعلى مافي استطاعته من صوت.

وانكفأ النمر متراجعاً داخل الشجيرات وقد استبد به الرعب، وداخله الخوف من أن الحمار قد يأكله إذا كانت أسنانه مقياساً لِحِدَّتها. واستمتع الحمار بشهرته المكتشفة حديثاً استمتاعاً حدا به إلى إطلاق هسهسةً مخيفة من بين أسنانه. كان النمر قد انزلق صدفة داخل قناة موحلة فأخفق في سماع الضوضاء، إلاَّ أن حيوانات الغابة كانت، لسوء الحظ، قد رأت سقوطه المخزي. وخرج ملك الأدغال من القناة مبلَّلاً، قذراً ومرتبكاً.

وراقب الحمار النمر وهو يدنو ويربض على مبعدة بضع خطوات منه. وشعر الحمار الآن وكأن في مقدوره أن يحارب ويضرب حيوانات الغابة لوحده دون مساعدة من أحد. فتقدم نحو النمر ذي الطالع السيء، دون رفَّة ذُعرٍ، ورفع قائمتيه الخلفيتين ورفسه في كتفه. وانقلب النمر داخل شجيرة شائكة، وخرج وهو يلعق جراحه ويظلع بقائمته اليسرى، إلا أنه كان قد غدا أمضى عزماً من ذي قبل على استرداد بسالته.

وطفق النمر يتجول في بطء حول حافة المنطقة ذات الأشجار المقطوعة وهو يفكر مليّاً في الموقف. لاحظ أن الحمار لم يكن ذا مخالب حادة، وبدا له أن خصمه هذا كان قد استعرض وسائل دفاعه الوحيدة: حوافره وأسنانه. فدنا منه، وأمسك ذيله وقائمتيه الخلفيتين بمخالبه على سبيل المزاح.

ورداً على ذلك أصدر الحمار نهيقاً حاداً مرتفعاً ورفس بحافريه الخلفيتين الهواء مرة أخرى. ففكر النمر قائلاً في قرارة نفسه: «إذن، أصبت

في رأيي . كلُّ ما في وسعه القيام به هو رفس قائمتيه في الهواء وإصدار صوت مرتفع » .

بعـدئـذ وثب النمر على الحمار الغافل وغرز أسنانه في عنق الحيوان . ولم يكن لدى الحمار فرصة للهرب ولا مهارة للدفاع عن نفسه . وفيما راحت حيوانات الغابة تتابع النظر في إعجاب كان النمر يستمتع بوجبة فاخرة .

وانتشرت أخبار قدر الحمار بسرعة في طول البلاد وعرضها ، ومنذ ذلك الوقت والحمير تعيش في السهول المكشوفة وسفوح التلال بعيداً عن الغابة الخطرة .

بحيرة الشمس والقمر

قبل سنوات كثيرة كانت ثلاثون عائلة تنتمي إلى عشيرة تساو تعيش في سلام وازدهار على صيد السمك والحيوانات البرية وزراعة أراضي تاي - وان. وذات صباح خريفي، وفيما كان أفراد هذه العائلات يحصدون محاصيلهم، حجبت الشمس غيوم سود متموجة، وطغى هزيم الرعد على صرخات عمال المزارع ونباح الكلاب.

· واكفهرت الغيوم حتى استحالت السماء سوداء اللون، وامَّحى ضوء الشمس.

واحتشد القرويون معاً في الحقول في انتظار أن تصحو السماء، لكن الساعات انقضت وبقي النهار مظلماً كالليل. فطفقوا يتلمَّسون طريقهم إلى بيوتهم في الظلام وقد اتخذوا من الأشجار والأسيجة نقاط علامٍ، ولم ير كل منهم وجه الآخر بوضوح مرة أخرى إلا عندما أشرق القمر. بيد أنه لم يكد يظهر حتى بدأ الرعد ينتشر على نحو أخطر من ذي قبل فلم يلبث أن غاب عن الأنظار.

ولم يرَ أفراد قبيلة تساو القمر والشمس بعد ذلك، وكانت الأيام

والليـالي حالكـة السواد إلى حدٍّ عجز فيه الناس عن رؤ ية أصابعهم . وماتت المحـاصيـل جوعـاً إلى ضوء الشمس وانتخـرت في الحقـول، وراحت الأسماك تسبح في أعمق أعماق المياه واستحال جلدها شفافاً، ولم يعد في وسع البط والإوز أن تدرك أين تطير، ورفضت تناول الطعام، لذا ماعتمت أن هزلت حتى غدت جلداً على عظمٍ قبـل مُضيٍّ وقت طويـل . وعافت الطيور الإنشـاد، ولم تفتـح الأزهـار تويجـاتهـا، وانقلب جلد كل قروي إلى لون رمـادي، ولم تسمـع بعـد ذاك ضحكـات الأطفـال . ولم تلبث القرية، التي كانت ملأى بالسعادة ذات مرة، أن استحالت مذعورة وكئيبة . قبل أن تباغت هذه الكـارثـة القـرية بستة أشهر كان تا ـ تشيين وشي ـ تشيين قد تزوجا وسط احتفـالات دامت يومين . كانـا قد أُعطيا قطعة أرض ليزرعا الجاورس، وكانا يعتمـدان على الشمس بشكـل تام للبقـاء على قيد الحياة . ولكنهما، عندما اختفت الشمس والقمـر بدآ يخشيـان الموت جوعاً كما حدث لأناس آخرين كثيـرين في القـريـة . ولم يلبثـا أن حزمـا، في قنوط، حقيبتين صغيرتين من الأرز، وعلى ضوء مشعـلٍ مضيـا للبحث عن الشمس والقمـر . وحيثمـا كانا يذهبـان كان المتضـورون جوعـاً والمحتضرون يتجمعـون حـول النيـران ليتقـاسمـوا ماتبقى من مؤ نهم الضئيلة من الطعـام، وكـان الغـربـاء ينظرون إليهمـا بأعين خاويـة فقـدت الإرادة على إلقـاء التحية عليهما . حتى كلاب الحراسة كانت تئن عند اقترابهما منها وقد لاحت في أعينها القرنفلية نظرة يأس .

وطفق الزوجان يمشيان إلى أن سقطا إعياء، وحين أفاقا شقّا طريقهما عبـر جبـال وسهـول مجهـولة . وغالباً ماكانا يتعثران بأغصان أشجار ميتة راحا يستخـدمـان خشبهـا لإضـاءة طريقهمـا . وبعـد أيـام لاتحصى وصـلا إلى منحـدرات شوي ـ شي القـاحلة . وفي اللحظـة التي وصـلا فيهـا إلى القمة

الصخرية المتحدِّرة ارتعش مشعلهما وانطفأ. وحين وقفا، وقد التصق كلٌّ منهما بالآخر التماساً للدفء والراحة إزاء الريح القارسة، شاهدت شي - تشيين رقعة ضوء خافت تومض فوق بحيرة عند الجانب البعيد من الجبل.

فصاحت في ابتهاج غامر:

- انظر. انظر هناك!

وانفلتت من ذراعي زوجها وبدأت تعدو نازلة الجبل باهتياج. وتبعها زوجها، متجاهلاً الحجارة الحادة كأمواس الحلاقة والتي كانت تجرح قدميه.

وركضا، وانزلقا، وتدحرجا، وسقطا على المنحدرات المائلة، لكن ما من شيء كان في وسعه أن يحول دون وصولهما إلى الضوء الموجود فوق البحيرة.

وعندما زاد اقترابهما صرخ الزوجان الشابان فرحاً إذ كانت الشمس والقمر هناك فوق البحيرة. وفيما كانا يقفان وهما يضحكان ويقبل كل واحد منهما الآخر، سمعا هديراً ينبعث من كهف ضخم عند جانب البحيرة. فلاذا، وقد تملكهما الرعب، بمأمن خلف أحد الجلاميد الصخرية الهائلة الكثيرة المنتشرة حول جانب البحيرة. وظهر تِنِّينان ناريان من الكهف وتحرَّكا بخطى متثاقلة نحو البحيرة. قفزا إلى مياهها الجليدية وتوجَّها مباشرة نحو الشمس والقمر، ولكن، وبدلاً من إخماد نوريهما المشعين، رفع التنينان الشمس والقمر بمخالبهما ذات الحراشف وبسهولة حاوٍ من الحواة راحا يقذفانهما عبر البحيرة كلٌّ إلى الآخر. وثارت ثائرة الزوجين الشابين حين شاهدا الشمس والقمر يعاملان على هذا النحو من الطيش، إلا أنهما كانا لا حول لهما ولا قوة أمام قوة هذين المخلوقين الجبارين. وبينما كان تا - تشيين وشي - تشيين يتناقشان فيما يتحتم عليهما أن يقوما به، تصاعد خيط

صغير من الدخان من الجلمود الذي كانا يتكآن عليه. فدفعا الجلمود بحذرٍ إلى أحد جانبيه وشاهدا نفقاً عميقاً محفوراً في منحدر الهضبة الصخري وعلى مبعدة، وراء الجدران الرطبة اللزجة شاهدا توهج نار دافئة، فتوجها متلهفين نحو هذا التوهج المغري يحدوهما الأمل في استعادة الشمس والقمر، كان النفق الطويل يفضي إلى كهف جافٍ نظيف مخطط بالحجارة. وفي إحدى زواياه كانت امرأة عجوز تذكي جمرات ساخنة إلى درجة الإحمرار في موقد. وزحف تا ـ تشيين وشي ـ تشيين بحذر عبر المدخل الضيق إلى داخل الكهف، إلاّ أن المرأة العجوز سمعت وقع أقدامهما فاستدارت وهي تلوِّح بقضيب حديدي، يستخدم لإذكاء النار، في وجهي الزوجين اللذين تحجرا ذعراً. وسألتهما قائلة:

ـ ماذا تفعلان هنا؟؟ لاتتقدما خطوة واحدة إلى أن تخبراني ماذا تريدان؟؟

فتوسلت شي ـ تشيين قائلة:

ـ ساعدينا أرجوك. لم نأت لإيذائك. نحن في حاجة إلى مساعدتك.

نظرت العجوز إلى ثيابهما الممزقة وأقدامها المجروحة ووجهيهما الغائرين. لم تكن قد شاهدت بشراً آخرين منذ سنوات كثيرة ولم يكن لديها سبب لطردهما.

وبعد أن قدمت لهما مكاناً قرب الموقد راحت تقص عليهما كيف حملها التنينان عنوة إلى هذا الكهف بعد أن كانت قد صبت مرجلاً من زيت يغلي في أحد روافد البحيرة.

فأحرق الزيت جلد التنينين وكانت عقوبتها أن تقضي حياتها في خدمتهما. لم تعد تذكر عدد السنوات التي أمضتها هناك، إلاّ أنها كانت شابة عندما وصلت أول مرة وقد تشوَّه جلدها الآن وانحنت أصابعها. وفيما كانت تتحدث راح تتلمس الزوجين الشابين من حين لآخر لتتحقق من أنهما

حقيقيان، إذ أنها كانت متيقنة من أنها ستموت دون أن ترى بشرياً مرة أخرى.

وعندما فرغت العجوز من حديثها أخبرها الزوجان الشابان عن الكارثة التي أحاقت بالأرض خلال سنوات أسرها وعن بحثهما الطويل عن الشمس والقمر. أصغت العجوز بإعجاب إلى حكايتهما الشجاعة إلا أن قلبها اكتأب عندما سمعت عن الحياة الكامنة وراء حدود الكهف.

وفي النهاية جلس الثلاثة في صمت دون أدنى فكرة عن المكان الذي يتحتّم عليهم الذهاب إليه أو العمل الذي يتوجب عليهم القيام به. وكسرت العجوز طوق الصمت بقولها:

- أعرف ماذا في مقدورنا أن نفعل. اعرف كيفية قتل التنينين. لقد سمعت حكايا عن فأس ومقص ذهبيين مدفونين تحت جبل لي - شان الذي لايبعد كثيراً عن هذا المكان. وهما الشيئان الوحيدان في العالم اللذان يخشاهما التنينان. إذا رميتما الفأس والمقص في البحيرة فسوف يقطع الفأس رأسي التنينين، وسوف يقصُّهما المقص إلى قطع بالغة الصِّغر. وعندئذ، عندئذ فحسب، سوف يكون في مقدوركما استرجاع الشمس والقمر.

ولم تُدخل المهمة الماثلة أمامهما الروع في قلبي تا - تشيين وشي - تشيين. وبعد أن شاطرا العجوز وجبة طعام تدجج الزوجان الشابان بمجرفتين مصنوعتين من الحديد ويمّما شطر جبل لي - شان. وسرعان ماوصلا إلى الجبل بعد أن اتبعا إرشادات العجوز.

فبدآ الحفر على الفور، وتابعا إلى أن تشققت وتقرحت أيديهما، وآلمهما ظهراهما بحيث لم يعد في وسعهما أن يتحركا. وحين بلغ منهما التعب شأواً أقعدهما عن الحفر غطا في نوم عميق، إلا أنهما ماإن استيقظا

حتى بدآ الحفر مرة أخرى متجاهلين وخزات الجوع في معدتيهما، والألم في أطرافهما وأيديهما المتورِّمة. وتابعا الحفر إلى أن سقطا على الأرض إعياء، وناما إلى أن تجددت قوتهما، ثم واصلا تنقيبهما بعزم وطيد.

وبعد أيام من البحث العقيم اصطدمت مجرفتاهما بأجسام معدنية في التراب. فطفقا يخدشان التربة حتى استخرجا بأيديهما الفأس والمقص الذهبيين. وأخيراً حملا هذين الشيئين الثمينين بأذرعهما وقفلا عائدين إلى بحيرة التنينين. وخشية أن يتعثرا على الصخور فيفقدا لقيتهما التي لاتُقدر بثمن على منحدر الجبل راحا يزحفان بحذر فوق الإفريز الضيِّق الناتيء والمشرف على البحيرة. ورفعت شي - تشيين الفأس فوق رأسها ورمتْه بكل مالديها من قوة على التنينين اللذين كانا يتلاعبان بالشمس والقمر في البحيرة. إلا أن الفأس بدلاً من النزول إلى الأسفل طار نحو الأعلى، وتعلق في الهواء عدة لحظات، ثم انقضَّ نحو التنينين يتبعه خطٌّ من البرق. وقبل أن يعرف التنينان ماذا حدث، فصلت رأسيهما ضربة واحدة بارعة، وتفجرت في الهواء نافورة من الدم أعلى من الجبال نفسها.

ورفع تا - تشيين المقص في الهواء وقذفه في الماء القاني بلون الدم. ودبت الروح في المقص فغاص في الماء ممزقاً أوصال التنينين وجسديهما ورأسيهما. وسرعان ما انتشرت قطع من الجسدين الممزقين إرباً عبر منحدر الجبل أو غاصت إلى قاع البحيرة. وفجأة عمَّ السكون والهدوء. ولم يتحرك شيء باستثناء الشمس والقمر اللذين برزا برقة فوق البحيرة.

ودون أن يبددا لحظة واحدة ركض تا - تشيين وشي - تشيين عائدين إلى الكهف ليطلقا سراح المرأة العجوز ثم عاد الثلاثة جميعاً إلى البحيرة إذ كان لايزال لديهم مايفعلونه. لقد استعادوا الشمس والقمر ولكن لم تكن

لديهم القوة لإرجاعهما إلى مكانيهما في السماء. ومرة أخرى تذكرت العجوز حكاية كانت قد سمعتها في صباها لسنوات كثيرة خلت.

قالت:

- يقولون أنك تمنح قوى خارقة لو أكلت عيني تنين. وربما ستمتلىء بقوة تكفي لإعادة الشمس إلى السماء.

كان تا ـ تشيين وشي ـ تشيين قد شاهدا وسمعا أشياء غريبة كثيرة في أسفارهما إل حدِّ أنهما كانا راغبين في أكل أعين التنينين، لو تمكنا من إيجادها. فطفقا يبحثان في منحدر الجبل عن الرأسين على ضوء الشمس والقمر. ولم يلبثا أن عثرا على رأس محشور بين الصخور على منحدر البحيرة. فاقتلعا العينين وابتلع كل واحد منهما عيناً.

وحين ذابت العينان في معدتيهما شحنا بقوة هائلة. في البدء راحت أقدامهما تكبر، وبعدئذ أحسَّا بأرجلهما تمتد، تلاها جسداهما وأخيراً عنقاهما ورأساهما. وأخذا يكبران ويكبران إلى أن أصبحا أطول من أعلى جبل. وانحنيا نحو الأسفل ورفعا بلطف الشمس والقمر إلى السماء.

إلا أن الشمس والقمر كانا قد نسيا كيفية البقاء في الفضاء وما إن تركهما تا ـ تشيين وشي ـ تشيين حتى انهارا ثانية إلى الأرض في ضجيج هائل.

ومرة أخرى هبت المرأة العجوز لإسداء العون لهما قائلة:

- لماذا لاتضعانهما على فروع أشجار الصنوبر القوية تلك ثم تزرعان أشجار الصنوبر مرة أخرى على أعلى قمة؟؟ وتستطيع الشمس والقمر الاستقرار هناك إلى أن يتذكَّرا بيتيهما القديمين ويتخليا عن خوفهما من العوم.

كان تا ـ تشيين وشي ـ تشيين قادرين على اجتثاث شجرتين من أطول

أشجـار الصنـوبـر وزراعتهمـا مرة أخـرى دون أية صعوبة ، إلاَّ أن تأثير عيني التنين القوي كان قد بدأ بالاضمحلال .

كانت الشمس والقمـر في مأمنٍ ، غيـر أن الـزوجين الشـابين كانـا قد تقلصـا عائـدين إلى حجميهمـا الطبيعيين . وانتظـر الثـلاثة معاً قرب منحدر البحيرة في قلق خشية حدوث شيء ، ولكن لم يتحرك شيء .

وبعد عدة ساعات ملأى بالقلق ، أحرقوا القرابين للآلهة وقاموا بتلاوة الصلوات للسمـاء . وحين تحـرك الـدخـان صاعـداً نحـو السمـاء ارتفعت الشمس والقمـر من أشجـار الصنـوبـر . وواصلا الارتفاع إلى أن أصبحا في وضعيهما الصحيحين في السماء مرة أخرى .

ولشـد ما ابتهـج الزوجان الشابان والمرأة العجوز حين راقبوا القمر وهو يغـوص خلف الأفق ، والشمس تشـرق على البلد كلهـا . وغـاصت الشمس حين أزف الـوقت ، خلف الأفق واستحـل القمـر مكـانها . ومرة أخرى بدأت المحاصيل تنمو ، والحيوانات تتكاثر ، واسترد الناس عافيتهم .

وعـادت المـرأة العجـوز إلى عائلتهـا ، ولكن تا ـ تشيين وشي ـ تشيين خشيـا أن يغـادرا البحيـرة مخافة أن تقرر تنانين أخرى سرقة الشمس والقمر . فبقيا فترة طويلة جداً إلى حدٍّ أنهما ضربا جذورهما في الأرض ، وعند موتهما ضرب إعصـار جامـح البحيـرة وتحـول جسداهما إلى جبلين . ويمكن رؤ ية جبـل تا ـ تشيين وجبـل شي ـ تشيين إلى يومنـا هذا . وفي كل عام يتجمـع القرويون عند منحدر البحيرة ليأخذوا دورهم في رقصة الشمس والقمر إحياء لذكراهما .

وانغ ـ إرْه ودبُّوس الشَّعر الذهبي

كان وانـغ ـ إره، الحطـاب، يعيش في كوخ خشبي صغيـر عنـد حافة غابة كثيفة تقع على بعد مسيرة يوم عن قصر الامبراطور. وفيما كان يحتطب في بقعة مقطوعة الأشجار من الغابة ذات يوم، مرت غيمة سوداء كثيفة فوق رأسه وحجبت الشمس. أمعن وانغ ـ إره النظر إلى الغيمة واستطاع أن يتبيَّن شكـل رجـلٍ، ولمـح في ضبـابهـا السميـك فتـاة شابة تحرِّك يديها باهتياج شديد. وهنا اتضح له أن الفتاة قد اختطفت، ولم يكن الخاطف رجلاً، بل شيطـانـاً. فالتقط فأسه، وجرى خلف الغيمة، وماإن أصبح على مسافةٍ منها تتيح له التسديد حتى قذف فأسه إلى داخل الضباب. كانت الغيمة المدوِّمة تحجب المنظر عنه إلا أنه سمع صرخة ثاقبة، وبعد بضع لحظات رأى خيطاً من الـدمـاء على الأرض. وراح هذا الخيـط يترك أثراً على أرض الغابة أثناء مرور الغيمة فوقها ببطء.

وتعقب وانـغ ـ إره الأثـر الـدمويَّ عبر الغابة إلى أن وصل إلى واد ناء. كان الليل قد أرخى سدوله. وتوقفت الغيمة فوق طرف الوادي تقريباً واختفت دون أن تترك أثراً. وحين تسلق وانغ ـ إره الهضبة بسرعة مستعيناً بضوء القمر

صادف، وعلى نحو لم يكن يتوقعه، كهفاً محفوراً في منحدر الهضبة تحت البقعة التي اختفت فيها الغيمة تماماً. فزحف بحذر إلى الداخل، غير أن الظلام الدامس لم يمكنه من رؤية شيء على الرغم من أنه استطاع أن يسمع غمغمات وتمتمات كان صداها يترجع من مكان عميق تحت الأرض. وحين لم يسعفه الرأي فيما يتوجب عليه أن يفعل زحف خلسة إلى خارج الكهف، وقفل عائداً إلى بيته.

في تلك الليلة أجهد وانغ ـ إره دماغه بالتفكير. ابتكر الكثير من الخطط، وخرج في نهاية المطاف بما بدا له أنها خطة مضمونة النتائج. وسرَّته الفكرة الجديدة فذهب إلى السوق المحلِّية بعد الفجر بوقت قصير للاستعانة بمساعدة أصدقائه الذين كانوا يعملون في أكشاك السوق. وحين وصل ألفى صخباً وجلبةً في السوق: كان كل قروي في السوق يتحدث إلى الآخر بقلق، وكانت مفرزة من حرس الامبراطور تتجول في السوق وتستجوب كل من يعبر طريقها.

سأل وانغ ـ إره مزارعاً عابراً بقوله:

- ما الأمر؟؟؟ ماذا حدث؟؟؟

فأجابه المزارع في ارتياب:

- ألم تسمع؟؟ لقد اختطف شيطان رجيم ابنة الامبراطور الوحيدة صباح أمس، ولم يرها أحد أو يسمع عنها أحد منذ ذلك الوقت. والامبراطور الآن يعرض يد ابنته للزواج من الرجل الذي ينقذها. تصوَّرا!.. قد تتزوج ابنة الامبراطور أيَّ واحد منا.

ثم ركض المزارع بانفعال ليتبين أين اختطفت الأميرة بالضبط ليتسنى له أن يبدأ بحثه عنها. ولم تلبث أحداث اليوم السابق أن اتضحت لعيني وانغ ـ إره، فاندفع إلى القصر وطلب الإذن لمقابلة رسمية مع الامبراطور.

كان الامبـراطـور على أهبة الاستعداد لمقابلة أي شخص يحمل أنباء عن ابنتـه، وكـان قد أمضى الهـزيـع الأخيـر من ليله وهـو يصيخ السمع إلى حكـايـا سردهـا عليـه الحمقى صائدو الثراء في محاولة منهم لإقناعه بأنهم يعرفون أماكن تواجدها.

وأخيراً استدعي وانغ ـ إره إلى قاعة المقابلة الرسمية وبدأ يسرد قصته بعـد أن انحنى أمـام الامبراطور. في بداية الأمر كان الامبراطور يصغي شارد النظـرات، إلا أنـه لم يعتم أن جلس يصغي بانتبـاه حين انبسطت أمـامـه أحداث القصة، فقد كانت قصة وانغ ـ إره تبدو مقبولة جداً بل، علاوة على ذلك، استطاع هذا الحطاب أن يصف مظهر الأميرة وصفاً مفصلاً كان كافياً لإقناع الامبراطور بأن ماقاله صحيح.

وأحس وانـغ ـ إره باهتمـام الامبراطور، وأنهى تقريره بطلبه خمسمائة خنزير، وفأساً، وسلّة ضخمة، وجرساً، وحبلاً بطول ألف قدم.

لم يكتف الامبراطور بإعطاء وانغ ـ إره ماكان قد طلبه فحسب، بل أمر أحد قواده أيضاً وزمرة من عشرين جندياً بمصاحبة الحطاب في مهمته.

وبعـد مسيـرة يومين، وصلت الحملة إلى الكهف وراحت تتبع وانغ ـ إره بحذر إلى داخله المعتم. وعلى ضوء مشعل واحد ربطوا خنزيراً في نهاية الحبـل وأنـزلـوه إلى أعمـاق ممر عمودي وجدوه في ركن من أركان الكهف. وانتظر كل واحد منهم بصمت فيما كان الخنزير يواصل النزول داخل منحدر الهضبة .وحـال وصوله إلى القاع سمع الجميع وقع أقدام تعدو وتصاعدت من الأعماق صيحات سرور حادة ومكتومة.

وسحب قائد الزمرة الحبل إلى الأعلى. كان الخنزير قد اختفى إلا أن طرف الحبـل كان ممـزقـاً وملطخاً بالدماء. وأنزلت الخنازير الباقية، وعددها

أربعمـائـة وتسعة وتسعون خنزيراً، في الممر العمودي، وكان الحبل في كل مرة يعود وهو في الحالة نفسها.

وبعـد أن أُنـزل آخـر خنـزيـر منهـا، ربط وانغ ـ إره الجرس بالسلة ثم تدجَّـج بالفأس وحشـر نفسـه في السلة. وبعـد أن أصـدر أوامـره برفع السلة عندما يرن الجرس، أنزل ثلاثة جنود الحطاب ببطء داخل الممر العمودي.

وحطَّ وانغ ـ إره، بعد رحلة بدت وكأنها لانهاية لها، في كهف ضخم تضيئـه نار طفيفـة. وعنـدمـا اعتـادت عينـاهُ الظـلام شاهد عدداً ضخماً من الشياطين يستلقون بارتخاء وتكاسل على الأرض حوله. كان بعضهم يشخر بصـوت مرتفـع، وكـان آخـرون يئنون من الألم أو السرور فيما راحوا يفركون بطونهم المتمددة. ولم يلاحظوا هذا الغريب بينهم، لذا خرج وانغ ـ إره من السلة بحذر وهو متدجج بالفأس. وطفق يقف خلسة قرب كل شيطان ليفصل رأسه بضربة واحدة من فأسه التي كانت قد سنت سناً فائقاً. وقبل مضيٍّ وقت طويل كان الكهف يعج بكتلة من الرؤوس المتدحرجة والجثث الملطخة بالدماء.

وفي سكـون الكهف سمـع صرخة خافتة بدت وكأن صداها راح يتردد في أرجاء الجدران السميكة المكسوة بالطحالب. فتوجه نحو الصوت وألفى نفسه في مواجهة درب خفيض محفور في جدار الكهف على نحو وعر.

وزحف وانـغ ـ إره على يديـه وركبتيـه في الـدرب القذر الرطب، ولم يلبث أن وصـل إلى غرفـة ضخمـة كئيبـة أخـرى. وفي وسـط الغـرفة شاهد الأميـرة. كانت منحنيـة وهي تنتحب فوق حوضِ غسيـل مليء بالثيـاب. فنـاداهـا هامسـاً كيـلا يلفت انتبـاه أيـة شيـاطين أخرى قد تكون متوارية في الظـلال. رفعت الأميـرة بصـرهـا في ذهـول فيمـا طفق يدنو ببطء، وانحنى أمامها. فصاحت قائلة:

ـ لا أكاد أصدق عيني! . . من أنت؟؟ وكيف وجدتني؟؟ وكيف عرفت من أنا؟؟؟

فطفق وانغ ـ إره يشرح لها، وعلى نحو سريع، أحداث الأيام الثلاثة المنصرمة، بيد أنه لم يبدد الوقت في سرد التفاصيل. قال:

ـ تستطيعين طرح ماتشائين من الأسئلة عليَّ عندما تنجين من الأسر، ولكن مأحتاج إليه معرفته الآن هو أين يختبىء ملك الشياطين؟؟؟

ـ إنه مستلقٍ في مغارته. لقد أصابه فأسك بجرح بليغ، وليس في مقدوره أن يمشي، وأنا مكرسةٌ للعناية بجراحه.

وأشارت الأميرة إلى رواقٍ ضيق في ركن قصي من الكهف يُفضي إلى مغارة كان ملك الشياطين يستلقي فيها فيما يشبه الغيبوبة. وامتثالاً لتعليمات وانغ ـ إره أعدت الأميرة كمادة ساخنة لتضعها على رأس ملك الشياطين، ثم زحفت على طول النفق يتبعها وانغ ـ إره عن كثب. وكان ملك الشياطين مستلقياً في فراشه في حالة هذيان وهو يمسك رأسه ويتأوه في هدوء. قالت الأميرة مخففة عنه:

ـ ياملكي الشيطان! . . لديَّ مايسكن ألمك. فقط أغلق عينيك واسترخ. وسرعان ماسأجعلك أفضل حالاً.

وفيما راحت تضع الكمادة بلطف على جبينه زحف وانغ ـ إره خلفه وعاجله بضربة من فأسه على جمجمته. وقلعت قوة الضربة الجمجمة وشطرتها، وقتلته على الفور.

ثم قاد وانغ ـ إره الأميرة عائداً أدراجه عبر الدروب الخفيضة والمغارات إلى السلة التي كان الجنود قد أنزلوه فيها إلى الكهف. رفع الأميرة إلى داخل السلة، وقرع الجرس ثلاث مرات، وسرعان ماراح الجنود يسحبونها إلى الأعلى. وقبل أن تختفي عن أنظاره سحبت من شعرها الأسود

الغزير دبوس شعر ذهبياً وكسرته إلى قطعتين ألقت قطعةً منهما إلى منقذها قائلة:

- شكراً على إنقاذك لي ياوانغ - إره. احتفظ بهذا الدبوس تذكاراً مني، وإذا احتجت إلي استخدمه لتثبت من أنت. تعال إلى القصر.....

إلا أن كلماتها أخذت تخفت شيئاً فشيئاً فيما كانت تسحب لتدنو من ضوء النهار إلى الأمان مخلِّفةً وانغ - إره بمفرده في الظلام مع الشياطين، وانتظر في صبر وأناة أن تنزل السلة إليه إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث. كان في ميسوره أن يرى جزءاً من الدرب إلى ضوء النهار فوق رأسه، وصاح إلى الجنود، غير أنه لم يتلق رداً. وخشية أن يلفت انتباه الشياطين الآخرين توقف عن الصراخ طلباً للعون، وطفق ينتظر في أناة وصبر في الكهف وقد تسمرت عيناه على دائرة ضوء النهار. ظن لوهلة أن الليل قد حل فجأة أو أن عينيه راحتا تخدعانه، إلا أنه سرعان ماتضح له أن الجنود كانوا يسدون المدخل بجلاميد صخرية ضخمة مغلقين بذلك طريقه الوحيد إلى النجاة. في غضون ذلك كانت الأميرة قد أخذت إلى القصر على الفور. وبعد ذهابها أمر قائد الحرس جنوده بإغلاق الكهف وهددهم بالموت إن هم كشفوا ماحدث.

ولدى عودته إلى القصر سرد القائد على الامبراطور كيف حاول وانغ - إره بشجاعة إنقاذ الأميرة، إلا أن الشياطين أكلته في اللحظة التي وضع فيها قدمه في الكهف. ودون أن يثنيه عائق انحدر نفسه داخل الحفرة الخطيرة وقتل بمفرده، ودونما عون من أحد، أكثر من مائة شيطان لينقذ الأميرة. فتأثر الامبراطور بهذه المأثرة البطولة ومنح القائد المخادع المكافأة الموعودة ألا وهي يد ابنته للزواج.

وانفطر قلب الأميرة حين سمعت الخبر، وطلبت من القائد أن يثبت

قصتـه. إلا أن توسـلاتهـا ذهبت أدراج الـريـاح، ولم تلق أذنـاً صاغيةً إذ أن الامبـراطـور كان قد أعطى كلمتـه وحـدد موعداً للزفاف. وسرعان ما أعلنت الأنبـاء رسميـاً في كل مقـاطعـة، وبـدأت التحضيـرات لاحتفـالات محلّية ودوليـة. وفيمـا كان ضبـاط القصر والحكام المحليون يعقدون الاجتماعات ويـرسمـون المخططـات بنشـاط طفقت الأميـرة تهزل في غرفتها، وقد أبت التكلم أو الحـديث. وراح أطبـاء الأعشـاب يستنبطـون كل يوم علاجـات جديدة لمرضها، إلا أن أياً منها لم يؤد إلى النتيجة المطلوبة. كان كل مافي وسع الأميرة أن تفعله هو التلفظ بكلمتي «وانغ - إره» مرة تلو المرة.

بعـد أن سد مدخـل الكهف راح وانـغ - إره يعـدو على نحويائس في الـدروب الـواقعـة تحت سطـح الأرض في محـاولة منه لاكتشاف طريق إلى النجاة. وبدا له أن ساعات كثيرة، بل أياماً على الأرجح، قد انقضت منذ أن أنقذت الأميرة، ولم يكن ثمة إلا فرصة ضئيلة في أن يراها مرة أخرى. وطفق يعود بانتظام إلى البقعة التي أنزلت فيها السلة على أمل أن يرى منقذين في الفتحة العليا الصغيرة، غير أنه كان عاجزاً حتى عن رؤية السقف في الظلام.

وأخيراً سمع صرخات عواء ووقع أقدام متثاقلة في مغارة قريبة فسارع إلى شقِّ طريقه نحو غرفة خفيضة مظلمة للابتعاد عن الأصوات قدر استطاعته.

لم يكن قد اكتشف هذه الغرفة من قبل، وسمع لدهشته ضجيج قرقرة رقيقـة في مكـان قريب جداً من مكـان وقوفـه. وفيمـا طفق يتقدم ببطء نحو الضجيج متلمساً طريقه تعثر بسلة مصنوعة من الخيزران كانت موضوعة على الأرض. فوقف ليلتقـط السلة وينعم النظـر فيهـا، وبهـره ضوء أصفـر اللون لوهلة من الزمن. كان هذا الضوء صادراً عن سمكة شبوط. فمد يده ليلمسها

كي يتيقن من أنهـا لم تكن رؤ يـا أو خدعـة من صنيـع الشيطان . فاستجابت السمكة للمسته اللطيفة برفرفة من ذيلها . كان رأسها الناعم الجميل قد ثبت في السلة بمسمار جديدي صديء .

سحب وانغ ـ إره المسمار عن جسدها الذهبي وقد آلمه منظر السمكة المعذبة . وما إن نزع المسمار عن جسدها حتى قذفت قوة شديدة السلة في الهواء ، وفي تلك اللحظة انتصب شابٌ وسيم أمام وانغ ـ إره ، وانحنى عرفاناً بالجميل ، وقال :

ـ لتبـاركـك آلهة السماء على إنقاذك إياي . أنا أمير من أمراء البحر ، والابن الثالث للملك تنين البحر . كنت منذ يومين مسافراً في قاع نهر مجاور حين باغتني شياطين هذه المغارة ، وخيِّل إلي أنني لن أشعر بملمس الماء على جلدي مرة أخرى ، غير أنك أنقذتني ، ومن واجبي أن أردَّ لك الجميل .

وأخـرج الأميـر ثلاث حبـات وقوقعة معقوفة من جيب سترته الحريرية المقصبة ، وأعطى وانغ ـ إره القوقعة وحبتين من الحبات الثلاث قائلاً :

ـ أولني ثقتـك . سأبتلع إحـدى هذه الحبـات وعليك أن تحذو حذوي . إن وسيلتـك الـوحيـدة للنجـاة تكمن عبـر النهـر الواقع تحت الأرض والذي يجـري عبـر هذه المغارة . أما الحبة الأخرى ففي وسعك استخدامها عند الضِّيق . والآن ابتلع الحبة فوراً .

فأطاع وانغ ـ إره الأمير وأحس بجسمه يتحول إلى سمكة شبوْط فضية مبسطـة . وعنـدمـا انزلق في النهر خلف الأمير سمع صرخات حادة ومسعورة كانت أصـداؤ هـا تتـردد عبر الأروقة القريبة . فطفقا يسبحان نحو أعلى النهر عبـر الميـاه المظلمـة إلى أن شعـر وانـغ ـ إره بدفء الشمس يضـرب جسده الفِضي ، فتيقن إذ ذاك أنه قد نجا أخيراً . وبضربة سريعة ورشيقة من ذيله قفز

إلى ضفة النهر. وكإشارة على الوداع قفز الأمير في الهواء ثم غاص ثانية إلى المياه المتدفقة السريعة.

زحف وانـغ ـ إره إلى بقعـة جافة على ضفة النهر وغط في نوم عميق. وعنـدمـا استيقـظ قرابـة الفجر كان قد تحول إلى رجل، وأكدت له حراشف السمـك الجـافـة على جلده أن أحداث الليلة السابقة كانت حقيقية. غسل نفسـه في النهـر، والتقـط بعض الفاكهة من شجرة قريبة، ثم شق طريقه إلى القصـر بمـا أمكنـه من السـرعة، وراح الحديث في كل قرية كان يعبرها عن زواج الأميـرة الـوشيـك يحث خطـاه. حين وصـل إلى بوابات القصر ارتاب حرس الامبراطور في قصته إلا أنهم أشفقوا عليه ومنحوه الإذن بالدخول إلى مقابلة رسمية مع الأميرة.

سجـد وانـغ ـ إره أمام الامبراطور ووضع القوقعة المعقوفة على كرسي خفيض حريري ومقصب عند قدمي الامبراطور، وقال:

- لقـد خدعـوك ياصـاحب الجلالة. أنا الرجل الذي أنقذ ابنتك. أنا الذي دخلت الكهف، وأنـا الـذي قتلت الشيـاطين وعـرضت حيـاتي للخطر. وحاول القائد قتلي. استدع الأميرة وسوف تثبت لك قصتي.

قال الامبراطور:

- ابنتي مريضـة ولا تستطيـع الحضور. عليك أنت أن تثبت قصتك. ما هو الدليل الذي تملكه؟؟؟

فقـدم وانـغ ـ إره دبـوس الشعـر الذهبي الذي كانت الأميرة قد أعطته إياه، وقدمه حارس الامبراطور الشخصي إلى الممرضة التي وضعته بدورها على وسادة الأميرة. وما إن لمحته الأميرة حتى نهضت وصاحت:

- إنه منه!. إنه الرجل الذي أنقذني.

ووسـط دهشـة ممرضتها وخادمتها غادرت فراشها، وجذبت على وجه

السرعة رداء ملكياً، ارتدته على عجل وهرعت إلى أبيها على الرغم من ضعفها من جراء مرضها، وتوسلت إليه أن يصدق قصة وانغ - إره.

كان الفرح المطلق الذي غمر الامبراطور لرؤيته ابنته تمشي مرة أخرى كافياً لإقناعه. وأمام رجال البلاط المجتمعين أصدر مرسوماً يقضي بجعل وانغ - إره صهره الوشيك، واتهم القائد بالخيانة جهاراً.

وامتلأ وانغ - إره بالفرح الغامر لحسن طالعه، فأعطى زوجته المقبلة هدية الصحة وهي الحبة التي كان قد تلقاها من أمير البحر. وما إن استردت الأميرة عافيتها حتى رسمت المملكة كلها الخطط للاحتفال بالزفاف بحماس أكثر من ذي قبل.

وفي تلك الليلة، وتحت جناح الظلام، أرسلت مفرزة من أشجع جنود الملك إلى الكهف لقتل كل شيطان فيه، وسد المدخل إلى الأبد.

غلطة القط البري

كان القط البري، الذي كان يعيش على جبل بل - تشيين في تاي - وان، مخلوقاً مختالاً ومتكبراً. كان مكسواً بشعر ذهبي أملس يومض تحت أشعة الشمس. وكان يدرك تمام الإدراك أنه جميل، فلم يمنح جيرانه في الجبل إلا النزر اليسير من وقته. وكان آكل النمل ذو الحراشف الكثيرة، من الناحية الأخرى، بطيء الحركة ودميماً إلا أنه كان عميق التفكير ومتواضعاً ومراعياً لمشاعر الآخرين. كان ظهره مغطى بطبقات من الحراشف القاسية ذات الشكل المثلثي ولم يكن يحب شيئاً أكثر من حبه مدَّ لسانه الطويل الدبق بسرعة البرق ولعق أية نملة تعبر دربه.

ذات يوم رأى القط البري الماكر آكل النمل المحرشف يغط في نوم عميق في فيء شجرة من أشجار تين البنغال. فتسلق القط الداهية أغصان شجرة البنغال خلسة، وأمسك اللحاء بكل مالديه من إحكام، وهز الشجرة إلى أن أيقظت ضوضاء الأغصان المطقطقة آكل النمل المحرشف من نومه العميق. لم يقلق ذلك آكل النمل المحرشف بل نقل موقعه فحسب، إلا أن القط تابع هز الشجرة إلى أن انزاح وكر للنمل من جذع الشجرة وسقط على

الأرض بصوت مكتوم . لم يستطع آكل النمل المحرشف أن يصدق حظه الحسن ، فانكب على تلة النمل بشهية عارمة . وحنق القط البري من نفسه لأنه زود آكل النمل بوجبة سهلة المنال ، وقفز عن الأغصان بسرعة وركل وكر النمل بغضب إلى داخل الحشائش الجافة القريبة ، وقال :

- إذا كنت تتوقع أن تأكل تلك النملات فعليك أولاً أن تدفع أتاوة لي لكوني القط البري الملك .

إلا أن آكل النمل المحرشف لم يسمعه . كان قد تحرك متثاقلاً في اتجاه تلة النمل وهو يتمتم قائلاً لنفسه كم كانت السماء لطيفة حين أغدقت عليه بمثل هذا العشاء الدسم والسهل .

وهنا ثارت ثائرة القط البري فوثب نحو الحشائش الجافة . وجثم بين سيقان الحشائش الطويلة إلى أن استقر آكل النمل المحرشف ليأكل فريسته ، ثم أشعل النار في الحشائش . وفي غضون دقيقتين كانت المنطقة برمتها قد اشتعلت وامتلأ الهواء بدخان لاذع ، وقال :

- متّع نفسك ياصديقي لأنك ستكون عمّا قريب عشاء مشوياً طيباً .

فأجابه صوت من خلفه قائلاً :

- أشكرك على هذا الإطراء .

دار القط البري بسرعة وشاهد آكل النمل يجلس راضياً على الحشائش قربه . وتابع :

- وهل لي أيضاً أن أقول شكراً لك على ذلك العشاء الشهي وتلك الخبرة الرائعة . ليس ثمة ما يدعو إلى السرور أكثر من مراقبة الألهبة الذهبية اللامعة وهي تتقافز عالياً نحو سماء زرقاء ، عليك أن تجرب ذلك بنفسك ذات مرة .

فتأتأ القط قائلاً :

- ولكنك . . . ولكنك حي . لماذا لم تحترق؟؟ ألا تؤلم النار؟؟ هل لي أن أجربها؟؟

أجاب آكل النمل :

- اهــدأ أيهـا القـط البـري . سأجيب على أسئلتـك كلهـا لو تفضلت عليَّ بلحظـة . النـار غيـر مؤذية بل هي في الحقيقة سارة جداً وأنا أنصحك أن تجـربهـا . إنهـا تجـربة لن تنساها أبداً . لماذا لاتدخل النار؟؟ ثمة أعداد وفيرة من الثعابين والضفادع المشوية تنتظرك هناك .

وجعلت فكــرة الطعـام المتـوفـر الجـاهـز لعـاب القـط البـري النهم يسيـل ، وبقفـزة قويـة توجـه نحو منتصف الحشائش المشتعلة . وعلى الفور انطلقت صيحـة ثاقبـة من الألهيـة ، وبـزغ القـط من النـار وهـو يجري لينجو بحيـاتـه . كان جلده الذهبي الدقيق قد سفع متحولاً إلى لون رمادي باهت . كان آكـل النمـل المراوغ قد حفر نفقاً في التراب ليقي نفسه وبقيت حراشفه على مبعدة من الحرارة الضارية ، إلا أن فراء القط البري لم يقدم له الحماية نفسها .

فانسل القط البري إلى الأفياء لينظف فراءه المسفوع إلا أنه لم يفلح قط في استعادة لونه الذهبي المتألق .

وإلى يومنـا هذا تبقي القطـط البـرية شعرها الرمادي الباهت محجوباً عن الأنظار.

عقوبـة ليانغ ـ يو ـ تشينغ

كان امبراطور اليشب قد بنى قصراً من الذهب واليشب ليقي بناته حياة السمـاء يومـاً إثـر يوم، وكثيـراً من الخـالـدين والأشبـاح الـذين كانوا يقومون بزيارات سماوية متكررة أيضاً. كان كل من في القصر، بمن فيهم الخادمات والفتيات الحائكات، قد منح إذناً بوضع إكليل نجمي بحيث كان القصر يبدو وكأنه مجرة سماوية دوارة.

وكـان من المتـوقع من الفتيات الحائكات أن يعملن بجد أكثر من أي شخص آخر وذلك لتقديم ثياب حريرية منمقة للأميرات.

كان العيش في القصـر يعتبـر شرفاً، وكان من المتوقع منهن أن يعملن وفقـاً لذلـك. وقمن جميعـاً بهذا الواجب باستثناء فتاتين. كانت ليانغ ـ يو ـ تشينـغ ووي ـ شينـغ ـ جوان تمضيـان كل أصيـل وهمـا تلتقطـان الفراشات وترسمان خططاً سرية للهرب إلى الكرة الأرضية حيث يمكنهما اللعب كلما وحيثما عن لهما ذلك.

ذات يوم كانت جنِّيـــة النجـوم تاي ـ بي تطيـر منخفضـه فوق حديقـة القصـر في مركبتهـا وشـاهدت الفتاتين منهمكتين في الأحاديث. ولضجرها

من أسفارها، وفضولها لمعرفة أسرارهما، حومت في غيمة فوق الحديقة إلا أن ضوء تاجهــا النجمي المتألق أجفـل الفتــاتين الحمــائكتين اللتين عرفتـا الإلهة على الفور. فصاحت ليانغ ـ يو ـ تشينغ قائلة:

ـ تعالي وانضمي إلينا. لن يعرف أحد أبداً أنك هنا.

ولم تكن جنيــة النجــوم في حاجـة إلى مزيـد من التشجيـع فهبطت بمـركبتهـا نحـو الأرض، ولكن ما إن لمست عجـلاتهـا الأرض حتى قفـزت الفتاتان إليها. قالت وي ـ شينغ ـ جوان:

ـ لدينـا فكـرة أفضـل. دعينـا نلعب على الكـرة الأرضيـة. لن يجـدنا أحد هنالك أبداً.

وسرعان ما أقتنعت جنية النجوم تاي ـ بي بالذهاب إلى الكرة الأرضية إذ أنهــا، كالفتــاتين الحــائكتين، كانت في غايـة السعـادة للفـرار من حمى امبراطور اليشب.

وهبطن في مديــة وي واستقــرين في مغــارة خارج البلدة. كان ثمـة احتمـال دائم في أن يكتشفهن أحـد الخالدين، لذا كن يظهرن في المساء فحسب ليصخبن إلى أن تشرق الشمس.

وبعـد ستـة وأربعين يوماً من وصولهن إلى الكرة الأرضية لاحظ الناس في طول الصين وعـرضهـا أن جنية النجوم تاي ـ بي قد اختفت من السماء، فقـامـوا بتقديم القرابين إلى امبراطور اليشب تجنباً لحصول بلاء. وفي تلك الأثنـاء، كان امبـراطـور اليشب ساخطاً من طيش تاي ـ بي فأمر آلهة الجبال الخمسة بإيجاد جنية النجوم والفتاتين.

عقـد آلهـة الجبال الخمسة اجتماعات لانهاية لها ليستقروا على خطة عمل ولكن كان من الصعب عليهم، والصين بأسرها تحتهم، أن يعرفوا من أين يبــدأون. وكـان حلهم يقتضي أن يقسمـوا الأرض إلى خمس منـاطق،

الشمـال والجنـوب والشـرق والغـرب والمـركـز، وسوف يرسل كل إله جنوداً وجواسيس سماويين يوثقون بالأرض إلى أن يكتشفوا الفتاتين.

وحين انطلقت فرق البحث كانت جنيـة النجـوم تاي ـ بي والفتـاتـان الحـائكتـان قد بدأن مغـامراتهن الليلية. وعندما عبرن الجبل الشرقي مالت ليـانـغ ـ يو ـ تشينـغ بجنسمها خارج المركبة لتلقي نظرة على القرى المنتشرة على منحـدراتـه، إلا أنها مالت كثيراً فانزلق تاجها النجمي عن رأسها وهوى على المنحـدرات المـائلة ومن ثم إلى الـوادي الواقع على مسافة بعيدة إلى الأسفـل منهن. ولعجـزهـا عن رؤ ية أي شيء في الظلام، توسلت إلى جنية النجوم أن توقف المركبة وتساعدها في التطواف على الجبل بحثاً عن تاجها المفقود.

وتـركت الصـديقـات الثلاث مركبتهن على قمة الجبل وزحفن، على ضوء التـاجين البـاقيين، على طول حواف الجبـل المنحدرة يحدوهن الأمل في إيجـاد التـاج قبـل انبـلاج الفجر. وعندما انعطفن في منعطف حاد على منحدر الجبل تقابلن على حين غرة وجهاً لوجه مع مفرزة جنود ينتمون إلى إله الجبـل الشـرقي. فدرن على أعقابهن وهرعن وارتقين الجبل إلى مركبتهن. تجاهلن الصخور التي مزقت ملابسهن الحريرية، وشققت جلودهن ولكنهن وفي غمـرة سرعتهن نسين أن يخلعن التـاجين النجميين البـاقيين واللذين أضاءا الطريق للجنود الذين كانوا يلاحقونهن.

وأفلحت جنية النجوم تاي ـ بي وليانغ ـ يو ـ تشينغ في القفز إلى داخل المـركبة في الوقت المناسب، إلا أن وي ـ شينغ ـ جوان تعثرت على الأرض الحجـريـة فصرخت إلى الثانيتين أن تذهبا من دونها. وحين ارتفعت المركبة في الهواء، جرت إلى كهف محفور في أعماق الجبل ولم تظهر ثانية.

ودون أن يدرك الجنـود أن إحـدى أهـدافهم قد فرت، اتبعـوا الضـوء

المنبعث من المركبة فيما كانت تسرع عبر السماء وتحط خارج المغارة قرب مدينة وي .

وفي غضون دقائق حوصرت المغارة واحتجزت ليانغ ـ يو ـ تشينغ وجنية النجوم. ألقي القبض عليهما وعلى الفور نقلتا إلى السماء مخفورتين .

وجلس امبراطور اليشب على عرشه الذهبي لإصدار الحكم بينما أرغمت السجينتان على الإنحناء أمامه في انصياع وقد حُظر عليهما أن تنبسا ببنت شفة في حضوره . قال امبراطور اليشب :

- أنت ياجنية النجوم تاي ـ بي نجمة مسؤولة ويجب أن تكوني قدوة . سوف تبقين في الموضع نفسه في السماء إلى أبد الآبدين ولن تتحركي مرة أخرى . وأنت ياليانغ ـ يو ـ تشينغ ، ياواحدة من حائكاتي المختارات ، سوف يتم نفيك إلى النجمة الأرجوانية حيث ستحاطين بحقول أرز لانهاية لها، سوف تنزعين القشور عن كل حبة أرز إلى أن أطلب منك التوقف .

وعملت ليانغ ـ يو ـ تشينغ آلاف السنوات في حقول الأرز دون تذمر إلى أن أحس الامبراطور اليشب بأنها قد نفذت عقوبتها ، فقرر أن يمنحها ابنة ، وهي هسوي ـ كو، تعنى بها في شيخوختها .

كان امبراطور اليشب التواب قد حبا هسوي ـ كو مواهب كثيرة . كانت حائكة خبيرة ومغنية ماهرة ، وذات طبيعة شهمة . وكانت على استعداد لأن تغفر لأي كان ماعدا أمها . وفي نهاية الأمر تزوجت هسوي ـ كو من هو ـ بي ، إله النهر، وعينها امبراطور اليشب إلهة للمطر وذلك بمثابة هدية زفاف .

كانت كل يوم تقوم بالتطواف في السماء لترى أية مناطق أحاق بها

الجفاف وأية مناطق غمرتها الفيضانات. ومع انقضاء السنين وازدهار الأرض نشأ سكان الصين على احترامها وعبادتها.

ولكن، وحتى مع كل هذا الحظ الحسن، رفضت هسوي ـ كو أن تنسى العار الذي جرته أمها على العائلة. فكانت كلما دنت من المغارة الواقعة خارج مدينة وي، حيث كانت الصديقات الثلاث يعشن، احتبست المطر، وكلما أشرقت نجمة تاي ـ بي على نحو لامع رفضت هسوي ـ كو أن تغادر السماء.

وحتى إلى يومنا هذا لاتزال الأرض التي تحيط بمدينة وي قاحلة، ولاتمطر السماء أبداً عندما تكون نجمة تاي ـ بي في أشد لمعانها، على الرغم من أن ضوءاً غريباً يمكن رؤيته في الليل أحياناً على الجبل الشرقي. ويقول البعض أن هذا الضوء هو وي ـ شينغ ـ جوان وهي تحاول أن تستأثر باهتمام هسوي ـ كو علَّ المطر يسقط أخيراً في هذه المنطقة.

زفاف الجرذان

عاشت أسرة واه ـ تشيو في منزل ضخم قرب جسر تشوى ـ لي على جبل يو في زمن العائلة الحاكمة مينغ. وعشية رأس السنة سمع صاحب المنزل صرخات ابتهاج صادرة من غرفة كانت موصدة لسنوات كثيرة. ففك القفل الصدىء بكل مالديه من هدوء وزحف إلى داخل الغرفة ليشاهد منظراً لايمكن تصديقه. شاهد في الركن القصي جرذاً أسود ضخماً يقود موكباً من الموسيقيين والخدم وحفلة زفاف. وكانت ستة جرذان أصغر حجماً ترقص خلف الجرذ الضخم، وكلٌّ منها يعزف على آلة موسيقية بالغة الصغر، وكان العريس يعتمر قبعة سوداء شُكلت فيها زهرة ذهبية ويمتطي فرساً رمادية اللون. وازداد ذهول صاحب المنزل عندما شاهد ثمانية رجال لاتزيد قامة الواحد منهم عن قدم واحد وهم يحملون كرسي الزفاف. وفي المؤخرة كان ثمة عجوز دامع العينين يجلس على كرسي في محفة يحملها جرذان. وعطف الموكب طريقه حول الغرفة، غافلاً عن وجود صاحب المنزل، واختفى في شق في المنجور الخشبي عند طرف الغرفة القصي.

نزل صاحب المنزل إلى الطابق السفلي إلا أنه لم يذكر شيئاً من ذلك

لأسرته خشية أن يكون قد تخيل كل ذلك. وفي الليلة التالية صعد مرة أخرى إلى الغرفة، ومرة أخرى رأى الجرذان التي كانت قد بدأت للتوحفلة زفافها. وخلال الأيام الثمانية التالية كان يزحف إلى الأعلى كل ليلة ليراقب الجرذان وهي تواصل احتفالات زفافها، وفي الليلة العاشرة اهتزت الغرفة عندما بدأ كل من فيها يرقص احتفاء بوصول القمر الجديد. وخلال الليالي العشر التالية كان العجوز الجالس على كرسي المحفة قد وظَّف مدرساً خصوصياً مهزولاً وصغيراً ليدرِّس صهره الجديد القراءة والمحاسبة.

وبعد عشرين يوماً من الزيارات السرية أخبر صاحب المنزل أسرته بما كان قد رأى، ولكن لم يصدقه أحد، وعندما قادهم إلى الطابق العلوي إلى الغرفة في الليلة الحادية والعشرين كانت الجرذان والبشريون الصغار قد اختفوا.

وعلى الرغم من أنه طفق يقوم بزيارات منتظمة إلى الغرفة الكائنة في أعلى المنزل خلال الأسابيع التالية إلا أن الغرفة كانت دائماً خاوية، واعتقدت أسرته أنه كان يعاني من هلوسات ناجمةٍ عن حمى سببتها احتفالات السنة الجديدة.

وبعد عدة شهور كان صاحب المنزل يجلس خارج باب منزله الأمامي ويراقب جيرانه، وهم يثرثرون ويلعبون المهجونغ[1] عندما مرَّ به كاهن طاوي. توقف الكاهن ونظر إلى المنزل ثم أعلن لصاحب المنزل قائلاً:

- إن ثمة روحاً شريرة قوية في منزلك وأستطيع أن أساعدك على طردها.

فأكدت كلمات الكاهن شكوك صاحب المنزل، لذا دعا الرجل العليم إلى منزله. ودون أن يسأل عن الطريق، مضى الكاهن إلى الغرفة

---

١ ـ المهجونغ: لعبة صينية. المترجمة.

الكائنة في أعلى المنزل واستلَّ من نطاقه سيفاً طويلاً مغطى بالقطع النقدية. رفع السيف عالياً ونفخ على السقف. فارتفعت أنفاسه وشكلت غيمة كثيفة. ثم انشقت الغيمـة لتتكشف عن إلـهٍ منزلي أشار إلى ركن الغرفة ثم اختفى. ولم يكـد يختفي حتى راح الـرجـال الصغار، الذين كانوا في منزل الزفاف، يهـرولـون باضطـراب من الحائط ويستلقون في حالة مشوشة على الأرض. وقبـل أن يصبـح في ميسـورهم العـودة إلى رشـدهم طفق الكاهن يطعن كلاً منهم بسيفه في قلبه. واستدعي خدم المنزل لتنظيف المكان من أجسادهم ومسـح دمـائهم عن الألـواح الخشبية الأرضية. وانحنى صاحب المنزل أمام الكاهن وسأله كيف يستطيع أن يرد له الجميل.

أجاب الكاهن:

- أنت تعـرف أنني طاويٌّ ولا أريـد مكافآت حين أساعد الآخرين، ولكنني استـدعيت ربـاً منـزليـاً ليسـاعـدني على تخليص المنـزل من الأرواح الشريرة، وأنا أعرف أنه يحب أن يشكر بالطعام والشراب.

فأومأ صاحب المنزل رأسه موافقاً، إلا أنه جلس بعد رحيل الكاهن ليفكر ملياً في المعاني التي تضمنتها إجابة الكاهن. كان مطلباً غريباً سيما وأن طرد الآلهـة المنـزليـة للأرواح الشـريـرة أمر بديهي، وكان من المعروف جيداً أن الآلهـة المنـزليـة لم تسـع قط إلى مكـافأة. علاوة على ذلك، ماكان لكاهن طاويٍّ أن يطلب مكـافأة أبـداً نيـابـة عن إله آخر. لذا قرر صاحب المنزل أن يتجاهل مطلب الكاهن ويترك الإله المنزلي يعيل نفسه بنفسه.

وما إن اتخذ هذا القرار حتى دوى صوت غاضب في أرجاء المنزل قائلاً:

- لقـد ساعـدتك على تخليص المنزل من الأرواح الشريرة، وها أنت تضنُّ

بالشكر على الإله الذي جعل ذلك ممكناً، وأنا أحذرك بأنني لن أترك أسرتك في سلام.

عندما سمع صاحب المنزل هذه التهديدات عرف أن الكاهن كان شيطاناً متنكراً، ولكن الوقت كان قد فات لتغيير القدر المخبوء لأسرته. ومنذ ذلك اليوم فصاعداً راح منزله يعج بالجرذان التي طفقت تقضم الأثاث، وتأكل ملابس العائلة، وتنهب مستودع التخزين. وعلى الرغم من أنهم حاولوا إغلاق الخزائن والحوايا بإحكام، لم يستطع شيء أن يمنع الجرذان من الهجوم على أيِّ شيء تمتلكه أسرة واه ـ تشيو وتخريبه. كان الخدم لايكادون يفرغون من تنظيف الحطام حتى تعود الجرذان في قوة لتسبب، مع ذلك، المزيد من الخراب.

وبعد أسبوعين من هذا التخريب دفعت الأسرة إلى مغادرة المنزل. وسافرت العائلة إلى كيانغ ـ سي لتزور تشانغ ـ تيين ـ شيه وهو أكثر الكهان الطاويين ثقافة وفقهاً في الصين. واستأثرت قصتهم باهتمام تشانغ ـ تيين ـ شيه إلى حدِّ أنه صحب أسرة واه ـ تشيو مع تلامذته ليروا الجرذان بأنفسهم. وفي فترة غياب العائلة كانت الجرذان قد ألحقت الخراب بكل غرفة، إلا أنها عندما أحست بوجود كاهن طاوي قوي فرت بحثاً عن مكمن وهي تصرخ ذعراً ويسقط كل واحد منها فوق الآخر في إسراعها للنجاة.

ولكي يجابه لعنة الجرذان سحب تشانغ ـ تيين ـ شيه كيس تعاويذ من ردائه الأرجواني الفضفاض وطلب من صاحب المنزل أن يضع التعاويذ فوق قمة خمسة أعمدة شُيدت حول المنزل عندئذ على سبيل الحراسة. ثم مضى الحكيم العالم بمفرده إلى الغرفة الموجودة في أعلى المنزل حيث كان الزفاف قد جرى. وضع قطعة منقوشة من خشب الدُّراق أمام الفجوة الموجودة في الحائط التي دخل فيها الجرذان عشية رأس السنة، وغرز

سيفين مصنوعين من خشب الدُّراق في الأرض الخشبية أمام الفجوة. وفيما كان يقوم بذلك كان يتلو ترتيلة بطيئة رتيبة. وحين أتم الطقوس عاد إلى العائلة وإلى تلامذته.

وبعد أن قبل الطاويون استضافة أسرة واه ـ تشيولهم عادوا إلى كيانغ ـ سي، وللمرة الأولى منذ أسابيع نامت العائلة في سلام. إلا أنهم وبعد خمسة أيام تعرضوا مرة أخرى لمتاعب سببتها رائحة لاذعة ملأت كل غرفة وتخللت ملابسهم ببخارها الذي يقزز النفس.

وخشي صاحب المنزل المذعور أن تكون الجرذان قد عادت وكان مرغماً على تسلق الدرجات إلى الغرفة الكائنة في أعلى المنزل حيث كانت الرائحة أشد ماتكون نفاذا. وطلب من خدمه أن يكسروا قفل خشب الدراق الموجود في ركن الغرفة ويزحفوا إلى داخل الفتحة. كانت الرائحة كثيفة للغاية إلى حدِّ أن بعض الخدم أُصيبوا بالاغماء قبل أن يتمكنوا من الدخول، إلا أن أولئك الذين أفلحوا في الزحف إلى داخل الحفرة أطلقوا صيحات سرور. كانت تعاويذ تشانغ ـ تيين ـ شيه القوية وخشب الدراق قد قتلت كل جرذ، وكان أول جرذين يتوجب إخراجهما هما أضخم جرذين، الجرذين الذين صبَّا اللعنة على أسرة واه ـ تشيو.

ومنذ ذلك اليوم فصاعداً، راح كل من يعيش حول جبل يو وعلى جانبي نهر يانغ ـ تزي الشمالي والجنوبي يتركون هدايا زفاف تتكون من الملح والأرز في أركان المنزل، ويذهبون إلى الفراش باكراً عشية رأس السنة بحيث يتركون الجرذان تتزوج بسلام. وفي مناطق أخرى من الصين ثمة يوم تقليدي خلال الاحتفال برأس السنة يتاح فيه للجرذان حُرية التحرك ليلاً، وأن تأكل وتشرب قدر استطاعتها لتترك العائلة في سلام طيلة السنة التالية.

طفل شجرة التوت

منذ ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة، وخلال حكم أسرة هسيا، عاشت امرأة عجوز لم تتزوج، وكانت تدير مزرعة في الجبل دون مساعدة من الأصدقاء أو الجيران. كانت ترفع القرابين إلى امبراطور اليشب قبل أن تبذر البذور أو تحصد الأرض، وكانت ترفع القرابين إلى أسلافها قبل أن تطهو أية حيوانات قتلتها في الغابة. وعاشت هذه المرأة طيلة حياتها في انسجام مع السماء والأرض. وذات مساء حلمت أن امبراطور اليشب حطَّ على غيمة من السماء وحين استقرت الغيمة أمامها، تحدث قائلاً:

- لديك قلب طيب وروح سمحة ولقد لاحظت أنك لم تخفقي قط في تقديم القرابين إلى السماء. ومكافأتك هي نصيحة ستنقذ حياتك. سترين غداً ماء يجري من الجرن الحجري الذي تدقين فيه أرزك. حالما يبدأ الماء في الجريان يتحتم عليك أن تركضي إلى الشرق، ولكن عليك ألا تنظري خلفك أياً كانت الظروف حتى تصلي إلى القرية التالية.

ولم يتسن لها أن تسأل امبراطور اليشب لماذا لايتعين عليها ألا تنظر خلفها، إذ ما إن فرغ من حديثه حتى كان قد اختفى.

عنـدمـا أفاقت في الصباح التالي تذكرت كل ماحدث في الحلم، إلا أنها أقصت ذلك عن تفكيرها حين تهيأت لقضاء اليوم في جمع الأرز. وفي المساء وحين جلست خارج منزلها تدق الأرز في جرن حجري، رأت مجرى رقيقاً من الماء يسيل من القاعدة. وعندئذ فحسب تذكرت كلمات امبراطور اليشب وركضت لتحـذر جيـرانها. وراحت تصيح وهي تركض من منزل إلى منزل قائلة:

- اتبعوني!!.. ولاتنظروا إلى الوراء مهما حدث ومهما سمعتم.

وأجفلت صرخـاتهـا المسعـورة جيرانها إلى حدٍّ لم يتح لهم طرح أي سؤال عليهـا، واقتنعـوا، عنـدمـا شاهدوا الخوف في عيني المرأة، بأن ثمة شيئـاً رهيبـاً على وشـك الحدوث. فتقاطروا أفواجاً خلفها عبر الحقول على الرغم من عدم وجود أية إشارة تنمُّ عن الخطر. كانت السماء أمامهم صافية، والأرض هادئة، إلاَّ أن الماء الذي كان قد بدأ كمجرى رقيق خلفهم استحال إلى منحـدر نهـرٍ هائـج راح يتـدفق بسـرعـة داخـل المنازل وخارجها مقتلعاً الشجيرات والجنبات التي كانت تعترض سبيله.

وفي هذه الأثنـاء كان القـرويـون يقتـربون من البلدة المجاورة، وكان فضول المرأة قد فاض بها ولم يعد في وسعها كبح جماحه، فاستدارت لترى حائط الماء يطبق عليها. فاتجهت على الفور إلى الشرق إلا أن الوقت كان قد فات. كان الآخـرون قد اختفـوا وبـدأ الماء يغمرها. غاصت قدماها في الـوحـل، وحين وصل الماء إلى عنقها استحال جسدها إلى خشب. فرفعت ذراعيها وصاحت طالبة العون، إلا أن أحداً لم يسمعها. واستحالت ذراعاها إلى أغصـان. وعنـدمـا همـد المـاء أخيـراً، كانت شجرة التوت تنتصب في البقعة التي تسمرت فيها.

ونمت الشجـرة قرب بلدة صغيـرة كان قد بنـاهـا وامتلكهـا تاجـر ثري

يدعى يو ـ سين ـ شيه . كانت إحدى نساجات الحرير العاملات لديه قد سمعت من صديقاتها أن شجرة توت ظهرت على نحو غامض خارج البلدة، فانطلقت لتبحث عنها ولتجمع أوراق التوت من أجل ديدان قزها . كان النهار مشمساً لا أثر فيه للرياح، لذا عندما سمعت المرأة طفلاً يبكي تيقنت أن الصوت جاء من جذع الشجرة . فمرَّرت يديها ببطء حول الجذع حتى وصلت إلى بقعة ناعمة في الجذع المليء بالعقد يمكنها أن تمد يديها فيها .

وغاصت يداها وتوغلتا وعندما بدا لها أنهما وصلتا إلى مركز الشجرة أحست بطراوة جسم رضيع وبرفق شديد أخرجت الرضيع من الشجرة . ولما كانت نسَّاجة الحرير تدرك أن هذا الطفل لم يكن طفلاً عادياً وضعته بعناية في أوراق شجرة التوت التي كات قد جمعتها وانطلقت إلى البيت .

وبما أن نساجة الحرير كانت قد اكتشفت الطفل في شجرة قريبة من ضفاف نهر آي فقد أطلقت عليه اسم آي ـ ين . وقدَّمت هذا الطفل إلى سيِّدها يو ـ سين ـ شيه الذي أمر خدمه بإطعام وتربية الطفل . وترعرع الطفل وغدا ذكياً ومستقيماً وعلى استعداد دائم لمدِّ يد العون لمن هم في حاجة إليها .

في ذلك الوقت كان يحكم الصين الامبراطور تشييه ـ كووي وهو حاكم عنيف متحجر القلب، وكانت سياساته قد أثارت سخط النبلاء والفلاحين على حدٍّ سواء، فاتخذ قائد محترم، هو تشينغ ـ تانغ، القرارات والخطط للقيام بالثورة . وخلال أسفاره كان قد سمع عن شخصية آي ـ ين الشجاعة والنبيلة، وبعد أن التقى به لأول مرة طلب منه أن ينضم إليه . فرفض آي ـ ين مرتين، إلا أنه وافق في المرة الثالثة على الانضمام إلى تشينغ ـ تانغ . وبعد سنوات من التخطيط الحريص أعلنا الثورة على الملأ،

وتمكّنـا، بمسـاعدة النبلاء المتعاطفين معهم والمقربين من الامبراطور، من الإطاحة بالامبراطور تشييه ـ كووي.

وأسَّس تشينــغ ـ تانـغ أسـرة تشـانـغ الحـاكمـة وعيَّن آي ـ ين رئيسـاً للوزراء. وحكم الـرجـل، الذي حبلت به مياه الفيضان وولدته شجرة توت، كرئيس للوزراء لأكثر من مائة عام.

كـــوان ـ يِـــنْ

اليـوم التاسع عشر من الشهر السادس من التقويم القمري هو الذكرى السنـويـة لصعـود كوان ـ ين إلى السمـاء على أساس بوديساتفا[1]. إنها إلهة العطف والرحمة ويعبدها البوذيون الصينيون في جميع أرجاء العالم. إلَّا أنَّ كوان ـ ين لم تكن إلهةً في الأصل. وتحكي هذه القصة كيف أحرزت حالة البوديساتفا.

قبل أن تحفظ السجلات التاريخية بزمن طويل كان ثمة شعب صغير يدعى هسينـــغ ـ لين يحكمـــه ملك كانت لديـه ثلاث بنـات. كانت الابنـة الصغـرى، مايـو ـ شان، أكثر الأخوات الثلاث ذكاء وشهامة وجمالاً. كانت أفكارها وأعمالها موجهةٌ دائماً إلى من هم في ضيق، وسرعان ما سمع رجال البلاط وخدم القصر بحكايا لطفها.

وذات مســاء، وفيمـا كانت تجلس تحت شجـرة صنـوبـر في حدائق القصر، سمعت زيز الحصاد[2] يصرُّ فوق رأسها. وشيئاً فشيئاً هدهدها صوته

---

١ ـ بوديساتفا: انظر المقدمة. المترجمة.

٢ ـ زيز الحصاد وفرس النبي المتضرِّع: حشرتان. المترجمة.

المنعِّس وقـادهـا إلى النـوم. وفجأة أيقظتهـا من أحـلامهـا صيحـات زيـز الحصـاد. فوثبت ورأت فرس النبي المتضـرِّع بسيقـانـه الطـويلة وهو يطوق جسد زيز الحصاد. قفزت مايو ـ شان على مقعد حجري لتحرر زيز الحصاد من قبضـة فرس النبي. فاستـدار فرس النبي المتضرع بسرعة وهاجم أصابع الفتـاة الصغيـرة في غضب، فسحبت يدهـا، وفقدت توزنها، وسقطت على الدرب الممهدة قرب المقعد الحجري. كانت تحت تأثير صدمة إلاَّ أنها لم تفقـد الـوعي، وعنـدمـا نهضت سال فيض من الـدم من جرح عميق في جبهتها. وعندما وجدتها أختاها وقامتا بمواساتها هزت كتفيها بلا مبالاة وأجابت:

ـ إنَّ ندبةً على جبهتي هي ثمن ضئيل أدفعه لقاء حياة زيز الحصاد.

وعنـدمـا التأم الجرح البليغ في جبهتها شكل ندبة، ومع مرور السنين تحولت الندبة إلى بقعة من الشامات الحمر. وهذا هو السبب في أن تماثيل وصور كوان ـ ين تمثلها دائماً بشامات على وجهها. وكانت مايو ـ شان تراعي مشـاعـر البشر أيضاً. لم يكن في وسعها أن تتحمل رؤية الآخرين يتعذبون، وحين توفيت والـدتهـا بعد مرض طويل لم يكن ثمة مايمكن أن يدخل العزاء إلى قلبها. ومرة تلو الأخرى كانت تسأل الكائنات السماوية لماذا يتحتم على البشر أن يقاسوا الأمرَّين، وماذا في وسعها أن تفعل لمساعدتهم؟

وذات صباح وفيما كانت تكرر هذه الأسئلة أمام أحد تماثيل بوذا، غمر المعبد ضوء ذهبي ودبت الحياة في التمثال، فقال:

ـ ياطفلتي الطيبة. بعيداً عن هذا المكان وعلى قمة جبل سوميرو ثمة زهرة لوتس بيضاء وإبريق من اليشب. إذا كان لديك الشجاعة لإيجاد طريقك إلـى ذلـك الجبـل وبلوغ قمتـه، فسـوف تتغلبين على كل الأخطـار والصعـوبـات التي تحلُّ بهذا العالم. إذا عُدْت بهذه الزهرة والإبريق إلى

هذا المكان ودرست وتأملت فسوف تصبحين ذات يوم بوديساتفا وسوف تتحقق أمنيتك في مساعدة الأخرين.

ولم تسنح الفرصة أمام مايو ـ شان للكلام إذ تحول بوذا ثانية وعلى الفور إلى تمثال. إلا أن كلماته، على أية حال، كانت قد وهبتها أملا جديداً، فاستدعت وصيفتها يونغ ـ ليين لتساعدها في اتخاذ التحضيرات السريعة للأخطار المجهولة التي يمكن أن تواجههما. وبعد أن تركتا رسالة إلى والد مايو ـ شان انطلقت المرأتان.

كانتا تنتعلان في أقدامهما أحذية قشية سميكة، وتحملان على أكتافهما سلالاً تحتوي على الطعام وأواني الطهو.

وبعد شهر من مغادرتهما القصر كانتا تعبران تلالاً على سفوح سلسلة جبلية عندما أظلمت السماء من جراء سرب من الغربان راح ينخفض أكثر فأكثر منقضاً نحوهما. وصاحت يونغ ـ ليين على نحو هستيري وقد داخلها الخوف من أن هذه الطيور السود المنقضة بسرعة كالسهام سوف تقتلع عينيها، إلا أن مايو ـ شان قامت بتهدئتها قائلة:

- لاحاجة إلى القلق، ماكانت هذه الطيور لتتصرف على هذا النحو مالم يكن ثمة سبب لذلك. فكّي رزمة الطعام وارميه على الأرض لأنني متأكدة من أنها جائعة.

فرمت يونغ ـ ليين سلتها على الأرض ونقبت فيها إلى أن وجدت زبدية كبيرة من الأرز البارد فرمته على الأرض أمامها. وكما كانت مايو ـ شان قد تنبأت، كانت الغربان تبدو في حالة تهديدٍ بسبب جوعها، وبعد أن التقطت آخر حبة أرز، ارتفعت بانسجام وطارت مبتعدة إلى الشرق. وتعجبت يونغ ـ ليين من حنو سيدتها في وقت كانتا فيه معاً جائعتين ومتقرحتي القدمين. وفي نهاية الشهر الثاني من أسفارهما صادفتا غابة كثيفة، فقادت مايو ـ شان

وصيفتهـا دون خوف إلى داخـل الشجيرات النامية المعتمة. وكلما كان ضوء الشمس يفلح في اختـراق الأغصـان والوصول إلى أرض الغابة كانتا تلمحان عجـائب سمعتـا عنهـا من الـرواة المسافرين فحسب. حيوانات من أشكال وأحجـام ونمـاذج كثيـرة كانت تندفع كالسهام داخل وخارج الظلال وكأن قوة خفيـة تطـارهـا، وكانتا أحياناً تلمحان رجالاً أقوياء صغار البنية يرتدون جلود حيوانات غريبة.

وعندما وصلتا إلى بقعة مقطوعة الأشجار من الغابة، دخل أحد قاطني الغابة إلى الجانب المقابل من البقعة وهو يزأر في ألم مبرح ويحمل صديقاً جريحـاً. ومـرة أخـرى خشيت يونـغ ـ ليين أن تتعرضا لهجوم، إلا أن مايو ـ شان أمرتها أن تتوقف وتلزم السكون وسألتها:

- ماالذي يدفعك إلى الاعتقاد بأننا سنتعرض للأذى؟؟ هذا الرجل جريح ويحتاج إلى مساعدتنا.

وسحبت مايـو ـ شان وصيفتهـا الخـائفـة إلى داخل البقعة ذات الأشجار المقطوعة وقامتا معاً بغسل جراح الرجل العميقة والنازفة. وعلى الرغم من أن قاطني الغـابـة الإثنين لم يتحـدثـا في حضـور المـرأتين رأت مايو ـ شان أن أقـدامهمـا متشققـة ومشـوهـة لأنهمـا قضيـا سنيَّ عمـريهمـا في الصيد بين الشجيـرات فقـدمت لهمـا صندلها وصندل الوصيفة المصنوعين من القش. فقبلهمـا الـرجلان وفحصاهما بعناية ثم انحنيا شاكرين. ودون أن ينبس أحد ببنت شفـة حمـل الـرجـل القـوي صديقـه الجريح بين ذراعيه وغادر الاثنان البقعة ذات الأشجار المقطوعة.

وتـابعت مايـو ـ شان ويـونـغ ـ ليين أسفارهما بحثاً عن جبل سوميرو. كانت مؤنهمـا قد نفـذت بعـد سبعين يومـاً، فراحتـا تقتـاتـان الثمـار البـرية والتوت، وبما أنهما غدتا بدون أحذية فقد لفتا أوراق أشجار حول قدميهما.

وعلى الــرغم من أن الطعــام لم يسكت جوعهمـا ولم تحم أوراق الأشجـار أقـدامهمـا، تابعت المـرأتـان بحثهمـا بإرادة من حديد، وبعد ستة أشهر من انطلاقهما في رحلتهما هذه وصلتا إلى جبل سوميرو.

كان أشق أقسام الرحلة يكمن أمامهما، إذ بدت المنحدرات المكسوة بالجـلاميـد الصخـريـة شديـدة الانحـدار، وبدت القمة الثلجية ممتدة إلى السمـاء. وكلفهمـا الـوصول إلى القمة ثلاثة أيام من التسلق الشاق، وعندما وقفتـا على الثلج ظهـر بوذا مرة أخـرى. كان يحمـل إبريقاً نصف شفاف من اليشب في يده اليسرى، وفي يده اليمنى استقرت زهرة لوتس بيضاء متلألئة.

قال بوذا في صوت بدا أنه يملأ السماء والأرض:

- ياطفلتي الطيبتين!.. لقـد أثبتُّمـا إخـلاصكما في هذه الرحلة الطويلة، وأعرف أنكما جاهزتان لتناول هديتي. يجب أن تعيدي هذا الإبريق وهذه الـزهـرة إلى القصر وتضعيهما أمام المذبح في غرفة التقديس. وعليك أن تقدمي القرابين للسماء كل يوم وتطوري الحكمة عبر التأمل والفهم. فإذا مافعلت هذا ستكتشفين ذات يوم أن إبــريق اليشب مليء بالمـاء وسـوف يبـزغ من هذا المـاء غصن صفصـاف. وسيكـون ذلـك هو اليـوم الـذي ستصعدين فيه إلى السماء وتصبحين بوديساتفا.

وتـلاشى بوذا في الهـواء الـرقيق دون أن يترك أثراً على الثلج يبين أين كان يقف.

وانحـدرت مايـو - شان ويـونـغ - ليين من الجبـل وبـدأتا رحلة الأشهر الثلاثة عائدتين إلى البيت. عندما وصلتا إلى القصر نبذتا وسائل الترف التي تعـجُّ بهـا الغرف الملكية، وطفقتا تنامان على فراشين بسيطين من القش في فنـاء المعبـد. وضعت مايـو - شان إبـريق اليشب أمـام تمثـال بوذا، وزهـرة

اللوتس في بركة في ساحة المعبد. وراحت كل يوم تجلس أمام المذبح وهي تُرتل محاورات بوذا لمنح الانسجام لجميع المخلوقات الحية.

ومرت سنتان، وكان كثيرون من الناس في المملكة يأتون ليتحدثوا إليها وليتأملوا بجانبها، وطوال تلك الفترة كلها كانت زهرةاللوتس في تفتح كامل. وكانت يونغ ـ ليين تقص على كل زائر قصة الوعد الذي قطعه بوذا، وكانوا ينتظرون بلهفة اللحظة التي ستصعد فيها مايو ـ شان إلى السماء، إلا أن إبريق اليشب ظل خاوياً.

وكان غلام محلي محب للمزاح، ويدعى شان ـ ينغ، ينسلُّ بانتظام إلى فناء الملعب ليلعب في الحدائق. وشكا أناس كثيرون إلى مايو ـ شان أنه كان ولداً مؤذياً عديم النفع، إلا أنها سمحت له بالبقاء لأنه كان يبدو سعيداً وهو يقضي وقته هناك. سخر من يونغ ـ ليين عندما أخبرته بقصة إبريق اليشب وغصن الصفصاف، وذات يوم خطرت له خطة يجعل فيها مايو ـ شان تبدو حمقاء. في تلك الليلة، وعندما كان الهدوء يعم المعبد، انسلَّ إلى غرفة التقديس، وملأ إبريق اليشب بماء من البئر، ووضع غصن صفصاف في الإبريق.

كان اليوم التالي هو اليوم التاسع عشر من الشهر السادس، وكعادتها نهضت مايو ـ شان عند الفجر لتتأمل أمام تمثال بوذا. وفيما كانت على أهبة الاستعداد لمغادرة غرفتها تردد صدى صيحة طفلٍ منفعل في أرجاء المعبد.

كان شان ـ ينغ يصيح وهو يندفع داخلاً وخارجاً من غرف المعبد قائلاً:

ـ لقد حدث ذلك. رأيت ذلك بنفسي. اليوم هو اليوم الذي ستصبح فيه أميرتنا بوديساتفا.

وأزعج صوته ذو الطبقة العالية الخدم والأسرة الملكية وسرعان مااحتشدوا في غرفة مايو ـ شان الصغيرة. وعندما شقَّ شان ـ ينغ طريقه عبر

الحشد الساكن المترقِّب، سمع مايو ـ شان تتحدث مع المحيطين بها قائلة:

ـ لقد حلمت حلماً غريباً الليلة الفائتة. حلمت أن صبياً قد جاء ليساعدني على أن أصبح بوديساتفا. لم أستطع أن أرى وجهه أو أسمع صوته ولكنني أعترف أن أعماله غيرت حياتي.

والتقطت مايو ـ شان إبريق اليشب وجلست بجانب بركة الزنبق فيما راح المحيطون بها يرتلون محاورات بوذا. وتناهى صوت موسيقيٍّ خافت من أرجاء السماء وراح يعلو وهو يطبق عليهم. وبدأ شان ـ ينغ يرتعد خوفاً عندما أخذت زهرة اللوتس تتضخم وتتضخم حتى ملأت البركة تقريباً. وتراجع البالغون عندما ارتفع جسد مايو ـ شان عن الأرض وطفا ليستقر بلطف وسط تويجات زهرة اللوتس. وبقيت دون حراك لعدة دقائق بينما سجد الحشد ثم سحبت زهرة اللوتس جذورها من البركة وارتفعت مايو ـ شان إلى السماء. وصاحت قائلة لشان ـ ينغ عندما اختفت في الغيمة:

ـ شكراً لك.

وأخذت مايو ـ شان إلى السماء ونصبها امبراطور اليشب إلهة للرحمة باسم كوان ـ ين. وبقيت وصيفتها على الأرض، وعند وفاتها منحت لقب فتاة التنين، وصيفة لإلهة الرحمة.

وتتمتع كوان ـ ين بالمقدرة على السفر حيثما تشاء وتتخذ أي شكل ملائم لمساعدة من هم في ضيق. فهي أحياناً امرأة عجوز، وأحياناً امرأة شابة، وأحياناً أخرى فتاة صغيرة. وعندما تجف الأرض تقف على غيمة وتغمس غصن الصفصاف في الماء الموجود في إبريق اليشب وترشُّ على الأرض.

ويمكن العثور على كوان ـ ين حيثما يتواجد الألم أو المعاناة، وتزين صورتها منازل ومعابد الأغنياء والفقراء على حد سواء.

جبل يو ـ لنغ

قبل سنوات كثيرة حل جفاف بقرية باي ـ لي في الصين الغربية وكان من الشدة بحيث تشققت الأرض وجفت الأنهار. وكانت القرية قد سُميت هكذا تيمناً بأشجار الإجاص الأبيض التي كانت تنمو بوفرة في تلك المنطقة، إلا أن جذورها، بعد ستة أشهر بلا مطر، لم تلبث أن ذبلت.

كان يو ـ لنغ يعيش في هذه القرية مع أمه الكفيفة، وكان مصدر دخله الوحيد، شأنه شأن القرويين الآخرين، هو محصول الإجاص الأبيض. كان يعرف أن لاجدوى من جلوسه في البيت آملاً أن تمطر السماء أرزاً، لذا انطلق إلى الجبال، متدججاً بسكين، يحثاً عن جذور أعشاب صالحة للأكل. مشى أميالاً كثيرة فوق تراب ساخن وأحجار حادة إلا أن أعشاب الجبل حتى كانت عاجزة عن البقاء على قيد الحياة بسبب الجفاف. وجلس، وقد أضناه البحث، على حافة جرف[1] ليستريح. وحملت الريح إلى مكان جلوسه صوت امرأة تنتحب وتتنهد. فصاح وقد أذهله أن يتواجد أي شخص في هذه البقعة المنعزلة:

---

١ ـ الجُرف: صخرة شديدة الانحدار. المترجمة.

ـ من هذا؟؟ من هناك في الأسفل؟؟

ولم يتلق رداً على سؤاله إلا أنه ظل يسمع المرأة تبكي فطفق ينحدر انحداراً محفوفاً بالخطر. كان القمر مشرقاً في الشرق لحظة وصوله إلى الكهف المظلم الكائن عند قاعدة الجرف والذي منه تصاعدت أصوات البكاء. أشعل مشعلاً من أغصان مقطوعة وأخذ نفساً عميقاً ودخل الكهف. وشاهد على الفور امرأة عجوزاً بيضاء الشعر تربض على الأرض، وعندما زاد اقترابه منها رأى سبب دموعها. كانت سلسلة من الحديد قد لفت حول قدميها الاثنتين وثبتت بصخرة ثقيلة في الركن القصيِّ من الكهف. فسألها يو ـ لنغ وهو مذهول أكثر مما كان مذعوراً:

ـ لم أنت هنا أيتها المرأة العجوز؟ هل أنت شبح؟؟

وردَّت العجوز وهي ترتجف قائلة:

ـ لست شبحاً ولا روحاً شريرة. أنا زوجة الملك تنين البحر وبيتي في قاع المحيط. كانت مهمتي تقتضي أن أسافر إلى السماء كل يوم لجعل المطر يهطل، إلا أنني ذات يوم انهمكت في الحديث مع امبراطور اليشب فسمحت لمطر كثير جداً أن يهطل. ونتيجة لذلك فاضت الأرض وغضب زوجي غضباً شديداً إلى حد أنه ضربني بهراوة التنين ثلاثمائة مرة ثم نفاني إلى هنا لمة أربعمائة عام.

وتوقفت عن الكلام وبدأت تبكي بهدوء، وكان جسمها بأكمله يرتعش مع كل تنهيدة. فتوسل يو ـ لنغ إليها قائلاً:

ـ أرجوك توقفي عن البكاء. سأعثر على طريقة لإنقاذك. أعدك ألا أغادر المكان إلى أن تتحرري.

فأجابت العجوز قائلة:

ـ إذا كان لديك الوقت فثمة طريقة. إذا تسلقت إلى قمة الجرف ستجد

شجـرة «هـو» عمـرهـا ثلاثة آلاف سنة . عليك أن تقطف منها ثلاثة آلاف ورقـة جافَّـة ولكن تأكد أن الأوراق هي بحجم راحة يدك تمـاماً . أحضر الأوراق إلى هذا المكان وأحرقها تحت السلسلة الحديدية . وسوف تذيب حرارة ودخان الأوراق هذه السلسلة . ولم يكن يو ـ لنغ في حاجة إلى أي تشجيـع ليقـوم بمـا طلبتـه العجـوز، فبـدأ صعوده دون أن يفكر بالأخطار المتربصة على الجرف المظلم . كان من السهل العثور على شجرة «هو» ذات العقد الكثيرة ولكن العثور على الأوراق ذات الحجم الصحيح كلَّفه الليلة بأكملهـا والصبـاح بأكمله . فصرَّها في سترته وانحدر مرة أخرى من الجـرف . وحين عاد إلى الكهف كانت ملابسـه ممـزقة وجلد يديه وقدميه ممـزقـاً ونـازفـاً . ومـع ذلك أشعل النار وانتظر بجانب العجوز طوال الليلة التالية . وذابت السلسلة عند فجر اليوم التالي .

نهضت المـرأة العجـوز على قدميها ببطء وحين عصرت يدي يو ـ لنغ اعتـرافـاً بالجميـل وعدته بثروة تصل إلى سقف الكهف . كان يو ـ لنغ يصغي فاتر الشعور وهي تصف الجواهر التي لاتقدر بثمن والتي ستمنحه إياها، غير أن صوتها تضاءل حالما لمحت النظرة الفاترة المرتسمة على وجهه . فأسرع يو ـ لنغ إلى القول :

ـ إنني آسف، لاأود أن أرفض لطفــك إلا أن النقـود لاتهمني . ماهـو أكثـر أهمية هو أن تمنحيني ثلاث أمنيات . هل يمكن تحقيق ذلك؟

فأومأت العجوز بالموافقة وتابع يو ـ لنغ قائلاً :

ـ لقد مضى على أمي عشر سنوات وهي مكفوفة النظر . هل في وسعك أن تشفيها؟؟

فأومأت العجوز مؤكدة على ذلك، وعرض يو ـ لنغ مطلبيه المتبقيين :

ـ أود منـك أن تجعلي أشجـار الفـاكهة في حديقتنا تثمر مرة أخرى، ثم هل

تسمحين بجلب المطر إلى قريتنا بحيث تزهر أشجار الإجاص مرة أخرى؟؟؟

عندما سمعت العجوز هذا الطلب هزت رأسها في ارتياب. كان في وسعها أن تحقق أي طلب في العالم إلا هذا الطلب، طالما أنها منعت من انتاج المطر لأكثر من أربعمائة سنة. ولكنها كانت أيضاً تعرف أن واجبها يحتّم عليها أن ترد له الجميل، لذا أخرجت من ثنية عميقة في تنورتها كرة بللورية وزبدية. رفعت الكرة فوق الزبدية، وهزت الكرة ثلاث مرات بعد أن رفعت الصلوات للسماء. ومع كل هزة كان يسيل دفق من الماء كضوء الشمس من أسفل الكرة إلى الزبدية. أعادت الكرة إلى نطاقها وسلمت يو-لنغ الزبدية قائلة:

- استعمل ماء الخلود هذا لغسل عيني أمك، ثم خذ منه ملء فمك وابتلعه. وعندما تنهي ذلك، املأ فمك مرة ثانية وابصقه عبر حديقتك الخلفية. ولكن عليَّ أن أحذِّركَ، إذا ملأت فمك أكثر من مرتين بالماء ستتحول إلى ضفدع. وإذا ملأت فمك مرة رابعة فسوف يسبب ذلك الموت غرقاً. يجب أن تدرك أنني أستطيع أن أغير قدرك ولكنني لا أستطيع أن أغير مستقبل قريتك. ضع تحذيري نصب عينيك. إذا عصيتني فلن ترى أمك مرة أخرى.

وعندما عاد يو-لنغ إلى بيته كانت تحذيرات المرأة العجوز وتوسلات القرويين تدور وتدور في رأسه. عندما أخبر أمه بما حدث نصحته أن يعمل ماكان يظنه صواباً. وعندما سمع هذه النصيحة سقط يو-لنغ على ركبتيه وسجد أمامها ثلاث مرات. لم يكن في حاجة إلى قول أي شيء. إذ كان كلاهما يعرف أن هذه هي آخر مرة يجتمعان فيها معاً. بعدئذ غسل عيني أمه بالماء فاستعادت بصرها. وبعد ذلك ملأ فمه مرتين بالماء وبصقه في

حديقتــه الخلفيــة . وكمـا توقـع ، بدأت الأشجـار على الفـور تطلع أوراقـاً وبـراعم ، ثم ، وهـو يدرك تمـام الإدراك القـدر الذي كان ينتظره ، ركض إلى الجبـل المـواجـه لقـريـة باي ـ لي مع زبدية الماء البللورية . ملأ فمه مرتين بالماء وبصقه عالياً إلى السماء . تعلق الماء في الهواء إلى أن شكلت غيمة سوداء ضخمة نفسها كمظلة ثم هطل المطر بعنف بالغٍ ترك الحقول مشبعة بالماء حتى الإفراط لعدة أسابيع .

وفيمـا راح القـرويـون يهنىء كل منهم الآخـر انشقت الأرض تحت قدمي يو ـ لنغ وابتلعته بسرعة البرق . ولم يكن في وسع أي شخص أن يفعل ما من شأنـه أن ينقـذه . ولكن في اللحظـة التي أطبقت الأرض فيها مرة ثانية على بعضهـا انبجس ينبـوع ماء من البقعـة التي اختفى فيها . وحتى في أيام الجفـاف يتـابع ذلك الينبوع جريانه ويسقي محاصيل قرية باي ـ لي ، ويقال أن الماء هو هدية من يو ـ لنغ . وفي طول الصين وعرضها يعرف ذلك الجبل باسم يو ـ لنغ ويعرف الينبوع الذي لايجف أبداً باسم ينبوع الخلود .

جبل بوابة التنِّين

وظَّفت الحكومة تا ـ يو كمفتش على القنوات والأنهار ومصارف المياه والسدود. فإذا ماكف نهر عن الجريان، أو كانت قوة الماء كبيرة جداً، أو إذا كان تدفق النهر في حاجة إلى تحويل، كان تا ـ يو أول رجل تتصل به الحكومة. وبعد ثلاثة عشر عاماً من الممارسة الماهرة كان قد نال احترام الناس واستحسان الهة.

وذات يوم استدعي تا ـ يو إلى جبل بوابة التنين في مقاطعة شانسي. كان نهر سريع التدفق قد ضرب الجانب الشمالي من الجبل بقوة كبيرة قاذفاً الجلاميد وغامراً الحقول بالفيضانات. ثم تدفق حول قاعدة الجبل وتابع مجراه على الجانب الجنوبي. أمر تا ـ يو ببناء نفق عبر الجبل ليربط تدفق النهر في الشمال بمجراه في الجنوب.

زار تا ـ يو الجبل مرات كثيرةً ليستنبط أفضل طريقة لحفر تجويف عبر الحجارة وسد مجرى النهر القديم. بل نام هناك حتى ليرى فيما إذا كان في وسعه أن يتلقى إلهاماً. وأخيراً صاغ خطة كان يأمل أن تجدي نفعاً، وأعطي فريقاً يتكون من ثلاثمائة رجل لإتمام المهمة.

ومنذ اليوم الأول مني المشروع بالحوادث: انكسرت مثاقب الحجارة عند احتكاكها بالجبل، وزاد تدفق الماء، وسقط رجال كثيرون إلى حتفهم في الدوَّامة الدوَّارة في الجانب الشمالي، لم يكن تا ـ يو يتوقع من رجاله أن يتولوا أي شيء لم يفعله بنفسه، لذا كان يضع حياته رهن الأخطار في كل لحظة من لحظات النهار. كانت الحكومة، على أي حال، قد عقدت العزم على إنشاء نفق وبعد خسارة أرواح كثيرة حُفِرَتْ فجوةٌ كبيرة وعميقة عند منحدر التل.

وذات مساء، وبعد أن عاد العمال جميعاً إلى بيوتهم، تمشى تا ـ يو على طول قاعدة الجبل ليفحص العمل. وحين فتَّش كل مرحلة من مراحل النفق تنهد برضى وقد أسعده أن يرى المشروع وقد تم، وأسعده أن يعرف أن مئات الأرواح سيتم إنقاذها في المستقبل. فمشى مبتعداً عن النفق على طول درب كان ينتهي إلى الجبل، وكان منهمكاً في التفكير إلى حد لم يلاحظ معه أين كان يمضي. كانت شمس المساء تدفىء جسده تارة، والهواء الرطب البارد يبعث القشعريرة في أوصاله تارة أخرى.

كان قد دخل سهواً في كهف لم يشاهده من قبل. وأمامه كان ثمة نفق تضيئه أشعة ضوء غريبة بدت وكأنها تمتد أميالاً وأميالاً داخل الجبل. كان شيء ما قد أرغمه على دخول الكهف، وما إن بدأ المشي عبر النفق الضيق ذي السقف المنخفض حتى اختفت من ذهنه كل الأفكار عن العالم الخارجي. كان في بادىء الأمر قادراً على التماس طريقه عبر الأرض الحجرية الخشنة، ترشده في ذلك أشعة الضوء، إلا أنها اختفت شعاعاً إثر شعاع، وترك يمشي باضطراب عبر الظلام. وفي نهاية الأمر عمَّ الظلام الدامس بحيث لم يعُد في وسعه أن يرى أي شيء فاستدار وتلمَّس طريق

العـودة على طول النفق. كان قد فقـد كل إحسـاس بالـزمن، إلا أنـه عندما خرج أخيراً من الكهف كانت نجوم المساء الأولى قد ظهرت.

وفي الصبـاح التـالي ترك تا ـ يو رجـاله وعاد إلى الكهف ومعه مصباح زيت وراح يتعقب خطـواتـه السابقة. كانت الجدران غير مستوية وكان يلمح بين الفينـة والفينـة كتـابـات صغيـرة منقـوشة على الحجر الرمادي إلا أنه لـم يستطـع فهم ماكـانت تمثله. وبعـد أن مشى لأكثـر من ساعـة، سقط الضوء الصادر من مصباحه على حيوان نائم كان يجثم عند جدار النفق. كان يبدو كخنـزيـر إلا أنـه كان ذا مسحة صفراء غريبة في جلده، وكان يمسك في فمه لؤلؤة براقة كاملة الاستدارة.

وتقـدم تا ـ يو في طريقـه شيئاً فشيئاً متوغلاً في النفق ولمح عندئذ كلباً أخضر ضاري المنظر هو يُقعي على نحو خفيض وكأنه على أهبة الاستعداد للانقضاض. وتجمَّد تا ـ يو على الفور، إلا أن الكلب لم يقم بما هو أكثر من النبـاح لمـدة دقيقة وكأنه يحاول التحدث إليه. ثم نهض وبدأ يمشي متوغلاً في عمق الجبـل. وفي غضـون ذلـك كان الخنـزيـر قد أفاق من نومه ووقف خلف تا ـ يو، الذي لـم يكن لديه خيار إلا أن يتبع الكلب.

ومشى الثـلاثـة معـاً في صمت أميـالاً وأميالاً. كان تا ـ يو قد فقد كل إحسـاس بالـزمن والاتجـاه، وعلى الـرغم من أنـه توقع الشعور بالتعب كان جسده يبدو دون وزن. وكلما توغل في المشي شعر أنه أوفر صحة، إلى أن رأى ضوءاً أبيض لامعاً أمامه، وشعرت أوصاله على حين غرة بأنها مثقلة بالحديد.

توقف الكلب فجأة واستدار ووجه عينيه الخضراوين الثاقبتين إلى تا ـ يو. وفيمـا كان الكلب يستحـوذ اهتمـام تا ـ يو بدأ الخنزير يغير هيئته. أصبح جلده الأصفـر أكثـر قتـامـة وأصبحت قوائمه الأمامية والخلفية ساقي وذراعي

إنسـان . وأخيـراً حـرك الكلب رأسـه ليحـدق إلى الشبـح وتابع تا ـ يو نظرته المحـدقـة . كان الخنـزيـر قد تحـول إلى رجل يرتدي رداء أسود . وفي تلك اللحظـة بالـذات غيـر الكلب أيضـاً هيئتـه وأصبح هو أيضاً رجلاً يرتدي رداء أسود فضفاضاً . وعلى الرغم من أن أحداً لم ينبس ببنت شفه ، عرف تا ـ يو أنه كان يقف أمام اثنين من خدم امبراطور اليشب .

ونظر تا ـ يو وراء الخادمين نحو درب من الضوء الأبيض المتلألىء كان ماثـلاً أمـامه . شاهد رجلاً بوجه ثعبان وجسد إنسان يجلس في دائرة الضوء . وتحرك تا ـ يو دون خوف أو ارتعاش نحو هذا الشكل وأدرك أنه كان في حضرة أحد الآلهة . رفع الإله لفيفة من الرق عن الأرض بجانبه ، وأومأ إلى تا ـ يو أن يدنـو أكثـر حتى ، وحـلَّ اللفيفـة على الأرض الحجـريـة . كان ثمـة ثمـاني مجموعات من الخطوط رسمت بالحبر الأسود : بعضها كان منكسراً وبعضها كان كامـلاً ، وأدرك تا ـ يو على الفـور أن الخطـوط كانت النجـوم السـداسية الثمانية . فسأل قائلاً :

ـ هل أنت الحكيم الذي ولد من الإلهة واه ـ سو؟ ؟

أجاب الإله :

ـ أجل . أنا هو. عاشت أمي في أرض مثالية ، وذات يوم وفيما كانت تسافر بمفـردهـا عبـر هذه الأرض أحيطت لمـدة ساعتين بقـوس قزح . أرسـل امبراطور اليشب طفلاً على قوس القزح إلى أمي وبعد اثنتي عشرة سنة وُلدت .

وفيما كان الإله يتحدث ، كان لدى تا ـ يو وقت ليتذكر الخرافات التي لقنتـه إيـاهـا أمـه وهـو طفـل ، واتضـح له ببـطء أنه كان يقف وجهاً لوجه مع امبراطور حكم الصين ذات مرة . وعندما أدرك ذلك خرَّ على ركبتيه تحية له .

نظر الامبراطور حوله ورفع لوحاً من اليشب بطول اثنتي عشرة بوصة .

كانت كل بوصة تمثل إحدى تقسيمات النهار الاثنتي عشرة وإحدى وحدات التقويم الاثنتي عشرة. سلَّم الامبراطور اللوح إلى تا ـ يو، وقال:

كان النفق المقـام عبـر جبـل بوابة التنين اختبارك الأخير ولقد أنجزته حتى الآن على أكمل وجه. لقد قرر آلهة السماء أن الوقت مؤاتٍ لك لتحكم الصين. ستساعدك النجوم السداسية، الموجودة على هذا الرسم البياني على التنبؤ بسنـوات السعـد لشعبك وسوف يمنحك لوح اليشب الأساس لتحكم بحكمة. ولن يشك في حكمتك أكثر الحكماء ثقافة.

تقبل تا ـ يو هدايا الآلهة بتواضع وترك الخالد الذي كان لايزال يغتسل في دائرة من الضوء.

وبـإرشـادٍ من خدم امبـراطـور اليشب عاد إلى العالم الخارجي وإلى عمله في بنـاء نفق عبـر جبـل بوابـة التنين. وسـرعان ما أتمَّ النفق وحاز على التهليـل الشعبي من الفقـراء والأغنيـاء على حد سواء، وكما كان الامبراطور الخـالـد قد تنبأ، أعلن تا ـ يو نفسـه امبـراطوراً. ووفقاً للخرافة حكم بحكمةٍ لمدة أربعين عاماً، وخلال عهده لم يصب الأرض جفاف أو مجاعة أو فيضان.

الـقِـدْرُ الفضِّيةُ والبحر الغالي

كان تو ـ لو، الذي كان يعيش في قصر السماء عبر البحر الشرقي، هو الإلـه المسؤول عن تكـريـر ومزج الإكسيرات[1] السحرية. وذات يوم خرقت الصمت في غرفـة عمله صرخـة حادة ثاقبـة أطلقها كركي كان قد طار داخلاً الغـرفـة من النـافـذة المفتـوحة. دار الكركي ثلاث مرات فوق رأس تو ـ لو، وأسقط رسالة من منقاره على الأرض، ثم طار خارجاً من الغرفة، أوقف تو ـ لو تجاربه ليفتح هذه الرسالة المفاجئة.

كانت الـرسـالـة من هسي ـ وانـغ ـ مووهي أميرة سماوية كانت تعيش على جبل كَنْلَنْ، واشتهرت بوجود مئات الأرواح في إمرتها. وكانت الرسالة تقول:

---

١ ـ الإكسـير: سائـل زعم الأقـدمـون أن من يشرب به يعش إلى الأبد. والإكسير في الخيمياء (الكيمياء القديمة) مادة كان يُعتقد أنها قادرة على تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب. المترجمة.

عزيزي تو ـ لو

لقد أقمت حفلة مؤخراً على بحيرة ياو ـ تشيه لأحتفل بعيد ميلادي . وخلال المساء شرب تشن ـ تنغ ويو ـ نو، وهما خادمي وخادمتي ، الكثير من الخمر الخالدة . وبعد أن كسرا عدة أباريق من الخمر وأهانا ضيوفي اختفيا لمدة ثلاثة أيام . وقد عادا الآن واعتذرا ، إلا أن واجبي يقتضي ، مع ذلك ، أن أعاقبهما . وأنا أقترح أن أحول تشين ـ تنغ إلى انسان ، وأُنزل يو ـ نو إلى قصر الملك تنين البحر . وستمر سنوات كثيرة قبل أن أدعهما يلتقيان مرة ثانية ويتزوجان . وعندما يحين ذلك الوقت هل ستتكرم بالإفراج عن روحيهما وإعادتهما إليَّ ؟؟

أنا واثقة من أنك ستمتثل لأوامري .

صديقتك

هسي ـ وانغ ـ مو

وضع تو ـ لو الرسالة في مكان أمين وتابع تجاربه متأكداً من أن الإلهة سوف تتصل به عندما تكون في حاجة إليه .

وكما أنذرت الإلهة ، حولت تشن ـ تنغ إلى رضيع ووضعته في عائلة تشانغ . وسمَّاه والداه تشانغ ـ يو، وهما يجهلان هويته الحقيقية ، ورباه ليكون غلاماً محترماً وحسن الثقافة . وعندما بلغ الثانية والعشرين توفي والداه ، فأخذ تشانغ ـ يو إرثه ، وغادر بيت العائلة وسافر في أرجاء الصين ليزور المعابد والأديرة التي طالما حدثه عنها مدرسه الخصوصي .

وانجذب تشانغ ـ يو على وجه الخصوص إلى معبد منعزل مقام على شواطيء البحر الشرقي ، فقرر البقاء والدراسة مع معلم المعبد ، وفي أول

مســاء، وبعــد الــدراسة والتأمل، أخذ عوده من حقيبة سفره الصغيرة وجلس على الشــاطىء المــواجـه للبحر الشرقي. كان البحر هادئاً، والقمر بدراً فيما طفق يعــزف لحنــاً كان ينتـابــه باستمرار وكان والده قد علَّمه إياه في طفولته. وهـامت النغمـات الناعمة في الليل وعبر البحيرة وذابت في المياه المظلمة. ووصـــل اللحن إلى أذني فتـــاة شابـــة تدعى يو ـ ليين في قصــر الملك تنين البحــر. كان أحـد سرطانات البحر الحراس، على مايرويه خدم القصر، قد اكتشفها على قاع البحر فأخذها إلى القصر حيث تبناها الملك تنين البحر. كانت يو ـ لبين تجهل هويتها الحقيقية وكانت قد نسيت منذ زمن طويل أنها نفيت من السمـاء هي وتشن ـ تنـغ. أخـذت أنهار الموسيقى الخافتة القادمة من مكـان بعيـد فوقهـا بمجـامـع لبِّها فغادرت القصر لتبحث عن مصدرها. وارتفعت إلى سطـح البحـر بحـذر متجنبـة الســرطـانــات التي كانت تحرس بوابات القصر وسبحت إلى الشاطىء. ودنت خلسة من الضفة الرملية حيث كان تشـانـغ ـ يو يعـزف، وكمنت في تجـويف قريب منـه بحيث يكـون في مقـدورهـا الإصغـاء إلى المـوسيقى. وفجأة انقطـع وتر من أوتار العود فوثب تشانغ ـ يو إلى الخلف لئلا يصيب أصابعه. وسمع خشخشة في الرمل إلى جانبـه، فرفـع بصـره بسرعة ليلمح فتاة جميلة تحدق فيه. وتسمَّرت عينا كل منهما على الآخر لمدة لحظة وعندئذ وثبت يو ـ لبين على قدميها، وركضت إلى البحـر واختفت تحت سطحـه. وطفق تشـانغ ـ يو يمشي باضطراب عبر شاطىء البحر متعقباً إياها إلا أنه تعثر بجسم حاد على الرمل. كانت يو ـ لبين قد أصبحت في مكـان عميق تحت سطـح البحـر في الـوقت الذي وصل فيه إلى المـاء لكن الجسم الحـاد الـذي سبَّب وقـوعه منحه الأمل إذ كان دبوس زينة من اليشب وقع من فستانها.

في تلك الليلة نام تشانغ ـ يو ودبوس الزينة المصنوع من اليشب إلى

جانبه، وتجول في اليوم التالي على الشاطىء جيئة وذهاباً وهو يأمل أن يلمح الفتاة. انتظر حتى غروب الشمس ثم قفل عائداً إلى المعبد. وفي تلك اللحظة ظهر كاهن طاويٌّ إلى جانبه وسأله لِمَ كان يبدو حزيناً إلى ذلك الحد. فسرَّ تشانغ ـ يو لوجود شخص يتحدث إليه. وبعد أن سرد عليه قصته قدَّم دبُّوس الزينة المصنوع من اليشب كدليل على ماقال.

قال الكاهن وهو يفحص الدبوس بالتفصيل:

ـ لا أعتقد أنك تدرك مدى أهمية قطعة اليشب هذه. إنَّها تخص أميرة من أميرات تنين البحر، وماكانت لتتركه وراءها لو لم تكن راغبة في رؤيتك مرة أخرى.

فناشده تشانغ ـ يو قائلاً:

ـ أرجوك ساعدني لأجدها مرة أخرى. سأفعل أي شيء لأراها مرة أخرى.

أمسك الكاهن الطاويُّ بذراع تشانغ ـ يو لتهدئته ونصحه قائلاً:

ـ والآن لاتنفعل كثيراً. إذا كنت عاقداً العزم على رؤيتها مرة أخرى فعليك أن تفهم أباها، الملك تنين البحر. إنه ذو طبع هائج وإذا ماأغضبته فلن تعيش أبداً لتسرد هذه القصة على أي شخص آخر. إنَّ مُجرَّد منظره كافٍ لجعل الكثيرين من الآلهة والخالدين يرتعشون، فهو ذو وجه طويل أخضر داكن ونابين ضخمين ناتئين فوق شفته السفلى. وله قدرة على امتصاص أي شيء يزعجه إلى داخل جسمه حتى الناس والأبنية ولو كانت في أقصى بقعة في بقاع الأرض. يستطيع أن يعضَّ الحجر ويمزِّق الذهب بأسنانه، وثقل جسمه كافٍ لقتل مائة رجل. وهو قويٌّ بما فيه الكفاية لإرسال موجةٍ أعلى من أعلى جبل لتتحطم على الشاطىء موجةٍ تبتلع كل سفينة في البحر وتغمر كل قريةٍ تقف في سبيلها. أما زلت راغباً في تعقُّب ابنة تنين البحر؟؟؟

ـ إذا خامرني الاعتقاد بأن ثمة وسيلةً للوصول إليها فسوف أظل أتعقبها. وبعد كل ماقلته أعرف أنني سألاقي حتفي حال دخولي البحر، ومع ذلك لن أقطع الأمل.

فتأثر الكاهن الطاويُّ لما لمسه من تصميم هذا الشاب على إيجاد يو ـ لبين، وأدرك أن القدر كتب على هذين الاثنين أن يلتقيا مرة أخرى. فجثا على الرمل، وفك رباط حقيبة جلدية عند قدميه. كان ثمة أشياء غريبة كثيرة في الحقيبة، إلا أن الكاهن انتقى ثلاثة منها على وجه الخصوص: قِدْراً فضيةً ومغرفةً نُحاسيةً وقطعةَ نقدٍ ذهبيةً، وسلَّمها إلى تشانغ ـ يو قائلاً:

ـ املأ هذه المغرفة بماء البحر، واسكب الماء في القدر الفضية، ثم ضع قطعة النقد في القدر. سخِّن القِدر على موقد، وحالما يبدأ الماء في الغليان سيبدأ ماء البحر بالغليان أيضاً. وكلما تبخر الماء عشر بوصة انخفض مستوى البحر عشرة أقدام. وحين تتبخر القِدْر كلها وتجف سينكشف قعر البحر. وعندئذ عليك أن تضرب ضربتك، إذ سيكون الملك تنين البحر في أقصى درجات ضعفه.

وبعد أن قدم الكاهن الطاويُّ تعليماته إلى تشانغ ـ يو تركه بمفرده لتنفيذ الخطة. وطفق الشاب يجمع من الشاطىء أغصاناً مقطوعةً سائبةً، ثم أضرم ناراً وضع فوقها القِدر الفضية. وحين بدأت القِدر تغلي برفق راح يكدِّس المزيد من الأغصان المقطوعة فوق النار كي يزيد من سرعة غليان الماء. وما إن بقبق الماء حتى بدأ سطح البحر يبقبق أيضاً، وقبل مضيٍّ وقت طويلٍ كان قد تغطى ببخار كثيف.

كانت الحرارة قد بلغت حداً جعل تشانغ ـ يو يتصبب عرقاً، وسرعان ما بدد الصَّمت صراخ حشودٍ من السرطانات والقريدس وهي تندفع إلى

الـرمـل البـارد بعـد أن سلقتها الحرارة إلى حدِّ الإحمرار، وفي تلك اللحظة هرع راهب بوذيٌّ عجوز إلى تشانغ ـ يو وناشده أن يتوقف قائلاً له:

ـ أنت من سبب هذه الكـارثـة. أوقفهـا حالاً. قبل بضع دقائق هرع حرَّاس تنين البحـر إلى مقـابلتي وطلبـوا مني معـرفـة الإنسان المسؤول عن هذا الدمار. إنَّ الملك تنين البحر موافق على منحك ماتشاء، إلا أن عليك توقف غليان ماء البحر.

فردَّ تشانغ ـ يو غاضباً:

ـ لاتخدعني. كيف لي أن أغوص إلى قعر البحر؟؟ إنه سحيق العمق.

قال الراهب البوذي بهدوء:

ـ لاتقلق. اتبعني فحسب، وأعدك ألا تمسك قطرة واحدة من الماء.

فانصاع تشانغ ـ يو لمطلب الراهب وأطفأ النار، وما إن برد الماء حتى انقشع البخار عن البحر وارتفع مستوى الماء مرة أخرى.

قاد الراهب البوذي تشانغ ـ يو نزولاً إلى شاطىء البحر، وأشار بعصاه الخشبيـة إلى البحـر فارتفعت ميـاهـه وراحت أمـواج هائلة ترتطم ببعضهـا البعض، وانفصلت الكتلة المـائيـة ببـطء لتشكـل جدارين هائلين من الماء مخلِّفـة دربـاً فوق قعـر البحر. ومشى الرجلان فوق قعر البحر الجاف إلى أن انتهى بهمـا المطـاف إلى القصـر المكسُوِّ بالحجارة وهو ماكان عادة محجوباً عن الأنظار البشرية.

وعندما اقترب الرجلان من القصر تنحَّى جانباً أربعة من سراطين البحر ذوي العيون الضارية كانوا يقومون بحراسة أبواب القصر، وفتحت سلحفاتان بحـريتـان متثـاقلتـان البوابات المرجانية ببطء. كانت جدران القصر مرصَّعةً بالأحجار الكريمة على نحو سخي، وكانت الستائر الحريرية مثقلة باللآلىء

تصف الشفافة. ومن السقف كانت تتدلى مصابيح مرجانية تضيئها كرات من البللور، وكان الأثاث منحوتاً من الذهب واليشب والعاج.

وبعد أن عبرا عشرين غرفة وصلا أخيراً إلى غرفة العرش حيث كان الملك تنين البحر يجلس وهو يمسح جبينه بإسفنجةٍ صفراء كبيرة.

أشار إليهما بالجلوس على كرسيين خفيضين أمامه، بيد أنَّ شعوره بالحرارة الشديدة واهتياجه حالا دون قيامه بالترحيب بهما.

ثم رفع قوقعة لولبية إلى فمه ونفخ لحناً واحداً طويلاً وعميقاً وثاقباً لم تلبث أصداؤه أن تردَّدت في أرجاء القصر، وقبل أن يتمكن تشانغ - يو من التلفت لرؤية مايحدث كانت ستُّ حورياتٍ من حوريات البحر يرافقن حبيبته يو - ليين إلى عرش الملك. قال الملك وهو لا يزال يلهث من جرَّاء الحرارة:

- لست في حاجة إلى إعلامي بأنك وقعت في حب ابنتي. لقد أعلمتني جواسيسي الأسماك بذلك للتو. لا أود تبديد أي وقت، لذا وبصفتي حاكماً للبحر الشرقي أمنح إذني لابنتي للزواج منك. عليك أن تعبد السماء والأرض، وسوف يدمغ رباطكما بختم الأبدية. والآن ليحضر أحدُ ما خمراً لمساعدتي على الابتراد.

ووضعت قوقعة لولبية مترعة بالخمر في يد الملك، وبدأت احتفالات الزواج، وبعد عدة ساعات كان كل من في القصر قد أفلح في شق طريقه إلى غرفة العرش ليرقص ويشرب ويغني، إلا أن جرساً قرع قرب عرش الملك سرعان ماأسكت الضوضاء والصخب.

كان تو - لو قد هبط من السماء لينفذ أوامر هسي - وانغ - مو. وقف على سجادة من الغيوم وطفق يتحدث إلى الحشد المتنبه الذي راح أفراده يتدافعون قدماً ليسمعوا قصة الهوية الحقيقية لهذين العروسين، والجنحة

التي ارتكباها في السماء والعقوبة التي تمخضت عنها. وعلى أية حال، زادت القصَّة من شعبية تشانغ ـ يو ويو ـ ليين بين المحتشدين، ومرة أخرى بثَّت قواقع الخمر الدفء في أوصالهما، ولكنَّ تو ـ لو، وفيما كان الحشد يعدُّ الخمر، سكب إكسيراً سحرياً في قواقع الخمر، وما إن جرع تشانغ ـ يو ويو ـ ليين الخمر حتى أحسَّا بأنَّ جسميهما قد فقدا كل إحساس بالوزن، وطافت أمام أعينهما الأصوات المبتهجة وألوان القصر الزاهية.

وحمل تو ـ لو كلاً من تشانغ ـ يو ويو ـ ليين إلى موطنهما وسط حفلة تكريم وداعية أقامها سراطين البحر الحراس، وجموع القريدس، والسلاحف البحرية وقناديل البحر.

ولدى عودة الزوجين الشابين إلى السماء حيَّتهما هسي ـ وانغ ـ مو التي كانت قد سامحتهما منذ سنوات كثيرة. كانا قد أثبتا جدارتيهما خلال فترة نفيهما إلى الأرض، ومُنحا مناصب رفيعة في منزلها.

وفي كل مرة تعود فيها الأرواح أو الجنيات من عملها على الأرض إلى جبل كنلن كان تشانغ ـ يو ويو ـ ليين يقومان باستقبالها هناك. ويُقال أنهما، حتى في يومنا هذا، يُلمحان أحياناً وهما يقومان بإطعام الأرواح الهائمة على جبل كَنْلَنْ.

الطفـل الـذي لـم يـرِدْهُ أحـد

لم يكن سكـان الصين، قبـل آلاف السنين، على إلمام بكيفية حراثة الأرض أو زراعــة المحـاصيـل، بل كان اعتمـادهم الكلي على الصيـد هو الوسيلة الوحيدة للبقاء على قيد الحياة. كانوا يعمدون كل صيف إلى تشكيل فرق للصيـد، وتنظيم رحـلات إلى الغـابـات والجبـال تدوم أسبـوعاً برمَّته. وكانت عمليات الصيد الناجحة تتيح لهم البقاء على قيد الحياة طوال الشتاء والفصل الماطر، أمَّا إذا أخفق الصيادون في قتل مايكفي من الحيوانات فإنَّ مئـاتٍ من النـاس كانت تمـوت في أشهـر الشتـاء. كان سكان الصين آنذاك يعتقدون أنَّ قدرهم يعتمد على إله السماء لذا كانوا يعبدونه كل صباح وكل مساء.

في ذلـك الـزمـان كانت الأميـرة المحظية للإمبراطور فتاة في العاشرة تدعى تشـانـغ ـ يوان، وكانت تتحلَّى بالذكاء والنشاط والطاعة. وكانت ترفع الصلوات إلى إلـه السمـاء كل صبـاح ومسـاء مبتهلة إليه أن يمنَّ على الناس بالحظ الحسن.

وذات صبـاح، وفيمـا كانت تصلي لإلـه السمـاء على منحدر تل بري

قاحل، لاحظت أن ثمة مجموعة من آثار الأقدام تقود إلى أقصى مافي وسعها أن ترى، فانحنت فوقهـا، وقـد أجفلهـا ماكـانت عليـه هذه الآثـار من طول وعرض هائلين، وطفقت تقارن حجمها بحجم قدميها الصغيرتين. كان في مقـدور قدم واحـدة بأكملها من قدميها أن تنطبق على حجم الأصبع الكبرى من إحدى آثار الأقدام.

وبـدافـع من الفضـول، لا الخـوف، راحت تتعقب آثار الأقدام على الجبـل وهي تنحـدر من الجـانب القصي إلى الوادي. وانقطعت الآثار فجأة عنـد صخـرة منعـزلـة تقع على نتوء جبلي مكشوف للريح ومكسوٍّ بالحشائش البـريـة. فنقَّبت المنطقـة بحثاً عمَّا يشير إلى وجود مكان سري محجوب عن الأنظـار، ولكن لم يكن ثمـة ماهـو غريب أو غيـر مألـوف في المكان، وحين تيقَّنت من أنها في مأمن غطَّت في نوم عميق على الصخرة.

وأقلق نومها حلمٌ تحدث إليها فيه صوت واضح قائلاً:

- أنـا إلـه السماء، وكنتُ أصغي إلى صلواتك صبحاً ومساء. أنت صغيرة، إلا أن لديك من القوة مايكفي لتنفيذ الرسالة التي سأمنحك إياها الآن.

فجثت تشـانـغ - يوان في حلمهـا وسألت في خشـوع عمَّـا يعتزمه إله السماء، فأجاب الإله:

- ستعرفين قريباً.

وكـان هذا كل ماقـالـه. حاولت تشانغ - يوان أن تفوز بلمحة من الإله بيد أن كل ماكان في وسعها أن تراه هو مجرد ظل لاغير. وكان عليها أن تستر عينيهـا من النـور البـاهـر. نادتـه، إلا أنـه كان قد اختفى، وأفاقت من نومها ويداها لاتزالان تحميان عينيها.

كان الظـلام قد حل الآن على وجـه التقريب، وهبَّت ريح قارسة على النتـوء الصخـري حيث كانت تستلقي. فشقَّت طريق العودة مسترشدة بضوء

النجوم والانخفاضات العميقة التي خلفتها آثار الأقدام. وشعرت وكأن الحلم قد بث في أوصالها طاقة متجددة. ولم تتلاشَ أحداث الحلم في ذاكرتها مع مرور الأيام بل ازدادت حيوية ونشاطاً.

وبعد مضي تسعة أشهر تماماً على حديث إله السماء معها، وضعت طفلاً، ولأنها لم تكن قد تزوجت بعد اعتبر كل من في القصر، من الخدم إلى الامبراطور، أن هذا الحدث نذير شؤم. واعتبر الطفل شريراً، ولم يكن ثمة أحد، ما عدا الأميرة، يجرؤ على لمسه، إذ كانوا يعتقدون أنه سوف يسبب كارثة.

كانت تشانغ ـ يوان أصغر من أن تناضل في سبيل طفلها، ولم يكن في وسعها منع الامبراطور من إصدار أمر بنفيه. فأخذت عائلتها الطفل إلى بقعة باردة غير مأهولة، وقبل أن تتركه فريسة للموت أطلقت عليه اسم «تشي»، وهو الاسم الذي يُطلق على أي شيء لانفع له وينبغي طرحه.

لم تلاحظ العائلة أن قطيعاً من الماشية كان يرعى قرب البقعة التي تركت الطفل فيها. وحين استلقى تشي على الأرض في تلك الليلة الأولى والباردة استلقت الثيران قربه لحمايته، وقدمت له الأبقار حليبها. وبعد أربعة أيام كان فريق من صيادي القصر يسير عبر هذه البقعة البرية عندما تناهت إلى أسماعه صيحات رضيع، واكتشف الصيادون في هلع أن الطفل الذي كان ينذر بكارثة للمملكة لايزال على قيد الحياة. فوضعوه في شبكة من الحبال الجلدية وأخذوه، وقد اعتزموا تركه في مكان يكفل موته، إلى مكان عميق وكثيف في الغابة كانت أشعة الشمس تعجز عن اختراق أغصانه.

وضعوا تشي على سرير من أوراق الأشجار الرطبة ليكون فريسة سهلة للثعابين السامة التي كانت تنسل بين النباتات المنتخرة.

كان إله السماء قد تولى تشي برعايته، فسمع حطاب كان يعمل عند

طرف الغـابـة صيحـات الطفـل وقـد ترددت أصـداؤ ها على نحو غريب بين الأشجـار، فهـرع إلى بيته ليحضر مصباح زيت، وعاد إلى الغابة حيث ألفى الطفـل مستلقيـاً قرب شجرة مجوفة . وقبل أن يتمكن من التقاطه انسل ثعبان ضخم للغـايـة منحـدراً على جذع الشجرة، وطفق يُحَدِّقُ بنهم إلى الرضيع وهو يقذف لسانه المرتعش بين الفينة والفينة نحو الصرة الباكية .

ولأكثر من خمس عشـرة دقيقـة كان الثعبـان يهـدد بالهجوم إلا أن قوة خفيـة كانت تحمي الطفـل، وبقي الثعبـان محـافظاً على المسافة بينه وبين الرضيع . وقطع هذا المشهد المتوتِّر اقتراب نمرٍ من المكان، فانكفأ الثعبان متراجعاً إلى موضع آمن على أحد الأغصان .

وزحف النمر الجائع بدوره حول الرضيع وهو يلعق شفتيه، إلا أنه لم يجـرؤ أيضـاً على لمس الطفـل، ومالبث أن انسل مبتعداً في نهاية المطاف ليبحث عن طعامه في مكان آخر .

وطـوال ذلـك الوقت كان الحطاب مختبئاً في داخل الشجيرات النامية يراقب المشهـد كله في صمت مذهـول . ومـا إن تراجـع الحيـوانـان وعمَّ السكـون الغـابـة حتى هرع إلى الطفـل ووضعـه برفق في بطانيته المحبوكة وأخذه إلى بيته .

ولكن الطفـل لم ينـج من الخطـر حتى في بيت الحطاب إذ سرعان ما تناهت أنباؤ ه إلى الامبراطور الذي أكدت القصص شكوكه فيما يتعلق بهذا الطفـل، فأرسـل مفـرزة من الحراس لتأخذ الطفل من الحطاب . ومخافة أن يقضي عليهم سحر شرير إن هم عمدوا إلى قتل الطفل، قام الحراس بإبعاده إلى ضفة نهر جليدية حيث كان حريّاً به أن يتجمد قبل حلول الليل .

كانت الطيـور والحيـوانـات المقيمـة عنـد ضفـة النهر قد اتخذت لها مخـابىء تحميهـا من البـرد الـلاسـع، ولم يكن ثمـة أي مخلوق حي على

الضفاف الجليدية ليمد له يد العون. ومرة أخرى تدخل إله السماء، فطارت مجموعة من نوارس البحر فوق البقعة التي تُرك فيها الرضيع، ولمحت أعينها الحادة الطفل تشي على الرغم من أن رداءه الأبيض كان قد امتزج بالجليد المحيط به، فانقضت نازلة إليه لتحميه بأجنحتها. وأبقته دافئاً طوال الليل وكانت مستعدة للبقاء ليلة ثانية معه، إلا أن سهماً أطلقه نحوها صياد محليٌّ أذعرها فطارت. أدركت لو أنها بقيت مع الطفل لأصبحت فريسة سهلة، لذا طارت إلى مكان أكثر أماناً.

وعندما ولت نوارس البحر هبت الريح وبكى تشي بصوت مرتفع حين اخترق البرد القارس عظامه. فانجذب الصياد نحو صراخه وأخذه إلى البيت وقد أدرك أن هذا الطفل قد تُرك ليموت، وأفسح له مكاناً بين أفراد عائلته. لم يكن الصياد قد سمع قصص الطفل المنذر بالشؤم والذي وضعته الأميرة المحظية، فنشأ تشي وترعرع على أنه ابن الصياد بالذات.

وبعد سنوات كثيرة كان تشي يعمل بمفرده كل يوم فوق الهضاب التي تضربها الرياح وفي الوديان المهجورة المحيطة بقريته.

وعن طريق الخبرة صار يعرف أية نباتات كانت سامة وأية نباتات كانت مأمونة. وعلَّم نفسه كيف يزرع البذور والمحاصيل، وكان يعرف متى يزرع الأرض ومتى يريحها. ومع مرور السنين كان قد حول برية كثيرة الأعشاب الضارة إلى أرض مخصبة حسنة العناية.

وانجذب كل من في المنطقة، حتى أكبر الناس سناً وأكثرهم حكمة، إلى واديه ليتعلموا منه أسرار الزراعة. وانتشرت معرفته من مقاطعة إلى أخرى، وسرعان ماطفق كل واد وسهل يطفح بالأرز والفاصولياء والبازيلاء والقنب والقمح والبطيخ.

وكـان الـرجـال على استعداد للسير أسابيع بأكملها للتعلم من تشي، وسرعان ماشتهر على أنه الوسيط الإلهي بين السماء وبين الأرض.

وراح القـرويـون يقـدمـون قرابين الشكـر لإلـه السمـاء، وحين كانوا يسلقـون الأرز كانـوا يتـركون البخار يرتفع إلى السماء علامةً على الامتنان. وأخيراً غادر تشي قريته وسافر في البلاد يزرع ويدرس ويعلِّم ويربي عائلته. وبعـد سنـوات كثيـرة، وصلت سلالة تشو الحاكمة، والمنحدرة من صلبه، إلى عرش الصين. وبـإتبـاع إرشـاداتـه ازدهـرت الأرض وكانت تغل حصاداً سخياً في كل سنة من سنوات حكمهم.

الـقِـطَّـة الأولى

منـذ زمن طويـل، وحين كان العـالم حديث الولادة، كان يعيش على سطح الأرض آلاف الحيوانات وكائنان بشريَّان فحسب وشيطان وحيد. كان البشـريـان يعمـلان بجد في النهار ليزرعا من الطعام مايكفي للبقاء على قيد الحياة، وعند حلول المساء كانا ينسحبان إلى منزلهما تاركين الحيوانات البرية لتصيـد في سلام. ومن النـاحيـة الأخـرى، كان الشيطـان يكـره ضوء النهار ويُقعي في كهفــه المظلم الـرطب حتى حلول الليـل حيث ينطلق ليبتكـر ما أمكن من الشرور إلى أن يبزغ الفجر.

كان البشـريـان يكـرهـان الشيطـان المـولـع بتـدبيز المكائد، وكانت الأشجـار والنبـاتـات تهلع منـه، بل إن الآلهـة حتى كانت تمقتـه وتأنف من مواجهته. إلا أنه لم يكن يُعيرُ وزناً لما كان الآخرون يفكرون به إذ كان لديه جيشه من الفئران الفاسدة، وكان يعرف أن لاشيء، ولا حتى قوى السماء، يمكن أن يدمره.

وذات صبـاح صاف، حين كانت النبـاتـات في إزهـارها التام والعالم يبـدو هادئـاً، توارى الشيطان في مدخل كهفه الظليل وهو يحاول التفكير في

شيء يقوم به. وعندما وقع نظره على النقطة التي يربط فيها الأفق بين السماء وبين الأرض خطرت له خطة بارعة. كان يعرف أن إله السماء خلق الأفق ليبقي السماء والأرض معاً على نحو متين. كان قد سمع الكائنين البشريين يقولان أنه لو اختفى الأفق فسوف تطفو السماء مبتعدة، وسوف تنقلب الأرض رأساً على عقب وتتدحرج إلى زمن لانهاية له. وفكر في قرارة نفسه كم سيكون ممتعاً أن يرى ماذا سيحدث حقاً لو دمر الأفق.

وعندما هبط الليل استدعى الشيطان جنوده الفئران إلى اجتماع تكتيكي. وعندما تجمعت أخيراً برتبها أمامه استقرت على أرجلها الخلفية وطفقت تصغي بانتباه إلى خطة سيدها.

قال الشيطان:

- لطالما طلبت منكم القيام بأعمال جمَّة في الماضي ولكن أكثر خططي تدميراً على الإطلاق قد خطرت لي اليوم.

وأشار إلى الأفق والذي كان البدر يجعله مرئياً على نحو معتم، ثم ابتسم ابتسامة ماكرة وأضاف:

- أريدكم أن تقرضوا الأفق قبل الفجر. أريد أن تدمروه تماماً قبل حلول تباشير النهار. هل ذلك واضح؟؟ والآن تحركوا!..

صاحت الفئران ابتهاجاً واندفعت نحو الأفق البعيد فوصلت قبل بزوغ الفجر بثلاث ساعات وشرعت في العمل بعنف. وعلى الرغم من أن أفواهها كانت صغيرة، إلا أن أسنانها كانت حادة، وما إن حل الفجر حتى كانت السماء والأرض مرتبطتين بالأفق بخيوط ضعيفة نصف ممضوغة فحسب. وهرعت الفئران بحثاً عن ملجأ قبل أن تضرب الشمس ظهورها، والتجأت إلى الكهف الرطب.

استيقظ الرجل والمرأة في وقت أبكر من المعتاد وقد أقلق راحتهما هزة

الأرض التي كان من الممكن الإحساس بها وإن كانت طفيفة. فهبَّا من سريريهما ليقابلهما منظر مرعب، منظر الأرض والسماء تتحركان مبتعدتين كل عن الأخرى. وصمتا لوهلة، وقد خشيا أن يموتا في أية لحظة، ثم أدركا أن إنقاذ العالم كان يقع على عاتقهما. فركض الرجل إلى داخل المنزل ليجمع إبراً حديدية غليظة وخيطاً متيناً قويَّ التحمل بما فيه الكفاية للصمود في وجه الزوابع والأعاصير الإستوائية.

واستغرق إصلاح الأفق النهار برمته، وحتى في ذلك الوقت كان لايزال متكتلاً ومرقعاً، إلا أنهما كانا قد بذلا قصارى جهديهما، وصارت الأرض والسماء متينتين مرة أخرى.

عادا إلى البيت وقد أخذ الإعياء منهما كل مأخذ، إلا أنهما حين اقتربا من المنزل سمعا صوت اختلاط وقع أقدام وصياحاً صادراً من غرفة تخزين الطعام. كان الشيطان، انتقاماً من مساعيهما لإصلاح السماء، قد أرسل عدداً كبيراً من الجرذان إلى غرفة تخزين الطعام لتقوم بتدمير مخزون طعامهما بأكمله.

فأمسك الرجل عصا غليظة وأمسكت المرأة مجرفة حديدية وراحا يضربان الجرذان بجرأة وقد أثارت المخلوقات السود المتلوية حنقهما. وأفلحت بعضها في الهروب السريع إلا أن أجساد الجرذان الأخرى المختلطة كانت مبعثرة على الأرض. ولما كان التعب قد بلغ منهما شأواً حال دون تنظيف المكان من الجثث، ذهب الزوجان إلى الفراش وغطَّا في نوم عميق.

وحين أفاقا في الصباح التالي ركضا إلى النافذة ليتحققا من أن السماء كانت لاتزال في مكانها، وكانت كذلك. إلا أن قلبيهما غاصا اكتئاباً عندما

حدقــا إلى حقـــول أرزهمـــا، إذ كانت الجـرذان أثنـاء الليـل قد أتت على المحصول كله.

فقررا، وقد أدركا أنهما سيفارقان الحياة مالم يقوما بحماية خضارهما القليلة المتبقية، أن يناشدا إله الأفق مساعدتهما. أشعل الرجل والمرأة الجُسِّ[1] وقـدمـا سلالاً من الفـاكهـة قربـاناً إلى إله الأفق، الذي كان تمثاله يتصـدر غرفـة التقـديس في منـزلهمـا. جثيـا أمامه، والتمسا مساعدته فهبط ضباب رقيق بلطف على المذبح ودوَّى صوت رنَّان من التمثال قائلاً:

- لقـد كنت أنتظـر أن تأتيـا إلي. شكراً لكما على إنقاذ أفقي. لن يهدم مرة أخرى. ولستما في حاجة إلى القلق من الفئران لأنني أعرف طريقة تُبقيها قيـد السيطـرة. ابحثـا عن قطـة. وعنـدما تجدا واحدة اتركاها تقاسمكما البيت والأرض ولن تسبب لكما الفئران أية متاعب مرة أخرى.

سألته المرأة في يأس:

- ولكن ماهي القطة وأين يمكننا أن نجد واحدة؟؟

تردد إله الأفق لمدة لحظة ثم ردَّ قائلاً:

- أعـرف أن ثمـة قطـة في السمـاء ولكنني لا أعـرف أين يمكن العثور على واحدة على الأرض. وأعرف أن النمر يعرف كل الحيوانات على الأرض. ربما كان في وسعه أن يساعدكما. أتمنى لكما حظاً سعيداً.

وتلاشى صوت الإله من الغرفة وارتفع الضباب الرقيق من غرفة التقديس.

كان الـرجـل والمـرأة يعـرفان أن نمراً كان يعيش في كهف لايبعد عن بيتهمـا إلا أنهمـا كانـا دائمـاً يبقيان مسافة أمان بينه وبينهما ولم يزعجهما هو

---

١ - الجُسِّ: وثن صيني. المترجمة.

قط . وكانت هذه هي المرة الأولى التي يجسران فيها على محادثة مثل هذا الحيوان المحترم والقوي ، لذا اقتربا من كهفه وهما يرتعشان . كان النمر جالساً في الخارج يعرض نفسه لأشعة الشمس ، وبالكاد رفع رأسه عندما اقتربا ، إلا أنه رفع مخلبه وأومأ إليهما أن يجلسا أمامه . فجلس الزوجان على الأرض بجبن وعلى مسافة قريبة جداً منه إلى حدٍّ أنه كان في وسعهما أن يشاهدا انعكاسهما في عيني النمر الكبيرتين الصفراوين . زمجر النمر قائلاً :

- كيف أستطيع أن أساعدكما؟؟

فردَّ الرجل قائلاً :

- إننا آسفان لإزعاجك إلا أن فئران الشيطان على وشك تجويعنا حتى الموت ونحن في حاجة إلى إيجاد قطة . وهذا هو سبب مجيئنا إليك .

فطفق النمر يكرر وهو يقرقر لنفسه :

- قطَّة . أنتما تبحثان عن قطة ، أليس كذلك؟؟ ليس لديَّ قطة هنا إلا أن في وسعي أن أصنع واحدة لكما . لو انتظرتما لحظة فسأنتج واحدة .

وخدش النمر جانب جسمه بمخالبه السود الحادة وتابع الخدش إلى أن أحدث تجويفاً عميقاً إلى حدٍ يكفي لإظهار كبده . ثم التفَّ النمر دون إجفال وأخرج كبده من جسده . وبهدوء وضع الكبد أمام الرجل والمرأة وختم جرح جسمه البليغ بالشمع . وقال :

- خذا هذا الكبد واذهبا به إلى البيت . هذه قطتكما .

فأجاب الزوج في دهشة :

- شكراً جزيلاً لك . لم أرَ قطة من قبل وأنا أصدِّق ماتقوله . ولكن كيف تستطيع قطة لها شكل الكبد أن تطارد فأراً؟؟ حتماً ستأكل الفئران الكبد بدلاً من حدوث العكس .

فزمجر النمر المتضايق قائلاً :

ـ صَدِّقا ماأقول. هذه قطة. خذاها إلى البيت ولن تزعجكما متاعب الفئران مرة أخرى أبداً. والآن اتركاني من فضلكما لأستريح.

ولم يجرؤ الرجل والمرأة على عصيانه لذا لفَّا الكبد في حصيرة من قش وغادرا الكهف بالسرعة الممكنة. وفي طريق العودة إلى البيت وبينما كانا يتباحثان فيما يتحتم عليهما أن يفعلاه، شعرت المرأة بشيء يتلوى في حصيرة القش. وضعت الحصيرة على الأرض وفكتها لتتكشف عن قطة مرقشةٍ باللون البني والذهبي راحت تفرك نفسها على أرجلهما وتقرقر برضى.

فصاح الرجل بانفعال:

ـ لابد أن هذه هي القطة!.. أسرعي ولنأخذها إلى البيت بحيث يمكننا أن نرى ماذا سيكون رأي الفئران فيها.

وفي اللحظة التي دخلا فيها حقول الأرز وثبت القطة من ذراعي المرأة وطفقت تندفع كالسهم جيئة وذهاباً عبر الحقل وهي تموء ابتهاجاً. وكانت بين الفينة والفينة تقذف فأراً في الهواء وتمسكه مرة أخرى بمخالبها. ففرَّت الفئران مذعورة وسرعان ما انتشرت الأنباء بين جيش الشيطان عن هذا المفترس الضاري الذي ينتظرها عند منزل الرجل والمرأة.

وهذا هو السبب الذي يجعل الفئران تنأى عن أي منزل تعيش فيه قطة، ويشرح التشابه الكبير بين القطة وبين النمر.

جبـال الـرجـال الخمسـة

كان يحكم دولــة شو في ستشـوان ملك جشـع وكسـول، ترك شؤون الـدولـة للوزراء وراح يمضي نصف وقتـه وهـو يفكـر في طرق جديدة لزيادة ثروتـه، والنصف الآخـر وهو يجري التجارب بالإكسيرات السحرية بحثاً عن الحياة الأبدية.

كانت الدول المتاخمة لمملكته تحارب كلٌّ منها الأخرى باستمرار إلا أنها لم تكن لتجرؤ على مهاجمة دولة شو إذ كان يحرسها خمسة عمالقة في مقـدورهـم اجتثـاث الأشجار بيد واحدة، وتدمير منزل برفسة واحدة، واقتلاع رجل من قدميه بالصفير فحسب.

كانت دولة تشن تقع إلى الشمال من دولة تشو ولكن الممر الوحيد بين الـدولتين كان دربـاً ضيقة محاطة بجبال منحدرة. كانت هذه الدرب الضيقة وتهـديـد العمالقة قد منعت ملك دولة تشن الطموح من شن الحرب، إلا أنه كان عاقد العزم، أكثر من أي حاكم من الحكام المجاورين، على ضم دولة شو إلى مملكتـه. وبعـد أشهـر من التفكيـر خطـرت لملك دولـة تشن خطـة لإضعاف دفاع جاره. أمر بنَّائي القصر بصنع خمس أبقار حجرية ضخمة من

كتلة حجـريـة منحـوتـة من جانب الجبل. وعندما فرغ البنّاؤ ون من عملهم سحبت الأبقار بالسلالم والبكرات إلى مدخل الدرب الضيقة ووضعت خلف كل منهـا كتلة من الـذهب. ثم أمر ملك دولة تشن جواسيسه بنشر إشاعة في أرجاء دولة شو مفادها أن هذه الأبقار كانت تطرح كتلاً ضخمة من الذهب كل يوم. وعنـدمـا وصـل النبأ إلى أسمـاع ملك دولة شو أمر على الفور مفرزة من الجنود بحراسة الأبقار وأرسل بعثة ديبلوماسية لتتفاوض بشأنها مع حاكم دولة تشن.

كانت الأبقـار قد وضعت عبـر الحدود القائمة بين الدولتين بحيث كان لكـل دولـة الحق بالتسـاوي في المطالبة بها، إلا أن حاكم دولة تشن قال أنه كان راغباً في التنازل عن حقه على أساس أن دولته كانت أضخم وأكثر ثراء من دولــة جاره. فلم يستطــع ملك دولـة شو أن يصـدِّق حسن طالعـه وأمـر العمـالقـة بحمـل الأبقـار إلى قصـره حيث في مقـدورها أن تعيش في راحة وتواصل إنتاج كتل الذهب.

رفـع العمـالقـة الأبقـار على أكتـافهم وراحـو يتمـايلون نحـو الـدرب الضيقة، إلا أن الفجوة بين الجبال كانت ضيقة للغاية بحيث طفق العمالقة يصطـدمـون بالأشجار والجلاميد الصخرية مع كل خطوة. وخشية أن يدمروا الأبقـار الثمينـة قرر العمـالقـة توسيع الفجوة بحيث تمر الأبقار عبرها بأمان. فوضعت الأبقـار جانبـاً وطفق العمـالقـة يبعدون الجبال عن بعضها بأيديهم فحسب. قذفوا الأشجار إلى داخل المملكة المجاورة، ورموا الحجارة إلى مسـافـات بعيـدة، وقـذفوا كتلاً صخرية هائلة إلى داخل دولة تشن. وعندما اتسعت الفجـوة اتسـاعـاً كافياً، حمل العمالقة الأبقار الخمس على أكتافهم وساروا بها ووضعوها في ساحة القصر.

كان ملك دولـة تشن قد حقق هدفـاً واحـداً، أمـا الآن فقد كان يتحتم

عليه إيجاد طريقة لتدمير العمالقة الذين كانوا يقفون عقبة في سبيله . كان قد سمع عن ثعبان ضخم مميت عمره ألف سنة كان يعيش في الغابة الكائنة بين الدولتين ، لذا نشر إشاعة أخرى عن ثعبان عمره ألف سنة كانت عيناه شديدتي الفعالية بحيث لو أكلهما أحد لمنح الحياة الأبدية . وعندما سمع ملك دولة شو الإشاعة الجديدة أصبحت إمكانية الخلود هذه هاجسه .

وأرسل العمالقة الخمسة لأسر الثعبان واقتلاع عينيه ، وعلى الرغم من أنهم اشتبهوا بأن هذه القصة كانت فخاً لم يكن في وسعهم مجادلة حاكمهم . وبعد التنقيب في الغابة شاهد العمالقة ذيل الثعبان الضخم خارج أحد الكهوف . كان عرض الذيل أربعة أقدام ، وكان قوياً للغاية بحيث لم يكن في وسع عملاق واحد أن يرفعه بمفرده . وعندئذ حاول عملاقانِ أن يسحبا الثعبان الضخم خارج الكهف ، إلا أنهما لم يتمكنا من تحريكه إلا بشقِّ النفس .

وانضم إليهما عملاقان آخران ، ومع ذلك لم يكن الثعبان الضخم ليتحرك إلَّا بجهدٍ جهيد . وأخيراً انضم العملاق الخامس وسحبوا الثعبان الضخم بحيث تعرَّض جسده بأكمله شيئاً فشيئاً إلى أشعة الشمس . كان الثعبان الضخم مستلقياً بلا حراك على الأرض ودنا العمالقة من رأسه بحذر شديد وذلك بغية اقتلاع عينيه .

وفي اللحظة التي كانوا فيها على وشك أن يغرزوا أظافرهم الحادة في رأس الثعبان ، ارتعد الثعبان بقوة جعلت الأرض ترتجُّ والجبل الموجود إلى الأعلى منهم يهتز .

وقبل أن يتمكن العمالقة من الهرب انسلَّ الثعبان مرة أخرى عائداً إلى داخل الكهف ، وانحدرت نحوه جلاميد صخرية هائلة الحجم . وامتلأ الهواء بالرعد حين انهار الجبل ودفن العمالقة تحت كتلته . وحين انسحق

العمـالقـة إلى حدٍّ المـوت أصبحت أجسامهم أكثر صلابة وتحولوا ببطء إلى خمسة جبال حجرية.

وحين سمـع ملك دولـة تشن بمـوت العمـالقـة شنَّ هجوماً في الحال على دولة شو إلاَّ أن ملك شو استسلم دون حرب. واحتفالاً بذكرى انتصاره أعـاد حاكم تشن تسميـة الـدرب الضيقـة بحيث أصبـح اسمهـا فجـوة البقـرة الـذهبيـة. وفي ذكـرى العمـالقـة الذين ضحوا بحياتهم، أطلق على المكان الذي ماتوا فيه اسم جبال الرجال الخمسة، وهو الاسم الذي تعرف به حتى يومنا هذا.

قصة عُرفِ الدِّيك

منذ زمن طويل كان صياد يعيش في واد منعزل في غرب الصين، وكان يصطاد نهاراً ويقضي كلَّ مساء في العناية بالأشجار والنباتات، التي كانت تزدهر في حديقته، والتي كان يتولاها بعنايته منذ أن كان غلاماً.

وذات مساء ولدى عودته من صيد النهار اكتشف أن شجيرة التوت الأثيرة لديه قد بدأت تذبل. وخشية أن تكون الأرض مصابة بمرضٍ أعاد زراعة الشجرة في تربة محفورة حديثاً، ونشر طبقة من السماد حول جذورها ورشها بماء النبع. وقبل أن يأوي إلى فراشه طمأن الشجرة قائلاً:

- ستستردين عافيتك مرة أخرى غداً.

وفي الصباح التالي هرع إلى الخارج ليفحص شجرته، إلا أن أغصانها كانت أكثر ذبولاً من اليوم السابق وكانت جذورها متفسخة. وعرف الصياد أن شجرة توته كانت تحتضر.

نظر حوله يائساً ليتحرى سبب هذا المرض، ولكن لم يكن ثمة شيء في التربة المجاورة أو على النباتات المجاورة ليفترض أنها كانت المسؤولة عن ذلك. فرفع بصره إلى الشمس وهي تضرب أشعتها على نباتاته وعرف

الـرَّدَّ على سؤالـهِ. فصـاح بغضب وهـو يلوِّح بقبضته في وجه الشمس التي كانت تشع بجمود:

- إنَّها أنت. أنت التي قتلت شجرة توتي. لماذا فعلت هذا؟؟ لماذا تريدين قتـل نبـاتـاتي؟؟ أنتِ ساخنة جداً إلى حد أنك ستدمرين أي شيء تمسه أشعتـك. ولست أنت فقـط من يحـاول قتـل كل شيء، فصديقك القمر ليس طيباً. إن أشعته قوية جداً أيضاً.

وعاد الصياد عاصفاً إلى داخل منزله وراح يذرع الغرفة جيئة وذهاباً في يأسٍ محـاولاً أن يفكـر بطـريقة تدمِّر الشمس والقمر. درس احتمالات كثيرة وقـرر في نهـايـة المطـاف أن يستخـدم قوسـه وسهـامـه التي يستخدمها في الصيـد. كانت الشمس في كبـد السماء عندما سدد الصياد نحوها. وببراعة أطلق السهم مباشرة في اتجاهها. فطار عالياً فوق الأرض ووصل إلى هدفه، مختـرقـاً عينهـا. تدحرجت الشمس متألمة واختبأت في أقرب غيمة. وعلى الـرغم من أن الغيـوم حاولت دفـع الشمس لإعادتها إلى السماء مرة أخرى، رفضت الشمس إظهـار وجههـا وتوغلت في انسحابها داخل الغيوم حتى غدا نورها مظلماً من الأرض.

وقـام الصيـاد، وقـد سرتـه جريمتـه، بالتسديد نحو القمر الذي أوقظه الظـلام المفـاجيء من نومـه فراح يشق طريقـه في السمـاء وهـو على أهبـة الاستعداد للقيام بعمله الليلي إلا أنه ما إن أظهـر وجهه حتى انغرز سهم في أعمـاق عينيـه. صاح القمـر من الألم بصـوت بلغ من العلو شأواً أغرى حتى الشمس بالخروج من مكمنها، ولكن التفكير بسهم آخر دفعها إلى الإحجام عن ذلك. انتحب القمر وانتفض وهو يغوص في غيمة كثيفة وأقسم ألا يظهر ثانية أبداً.

وهنـا دار الصيـاد باهتمـامه إلى النجوم إلا أنها كانت باهتة الضوء إلى

حد لم يزعجه. وعلاوة على ذلك، كان في حاجة إلى بعض الضوء ليتسنى له أن يرى كيف كانت نباتاته تزدهر. فعاد إلى منزله راضياً، إلا أنه عجز عن إدراك الضرر الذي أحدثه، إذ بدأت الحيوانات والنباتات والناس تمرض، وراحت النباتات تنمو ببطء، إذا كان لها أن تنمو.

وبعد الذعر الذي حلَّ بها للوهلة الأولى بسبب اختفاء الشمس والقمر، شكلت مخلوقات الأرض والهواء مجلساً لمناقشة مايتوجب عمله.

افتتحت عصفورة الصفارية الذهبية الاجتماع بقولها متسائلة وهي تطير فوق الحشد المجتمع:

- من يستطيع أن يقترح طريقة ندعو بها الشمس والقمر للرجوع إلى السماء؟؟

ورفرفت قريباً من الحيوانات وحومت فوق رأس الثور وسألته:

- ما رأيك؟ ستسمع الشمس بالتأكيد خوارك العميق وفي وسعها أن تنقل رسالتك للقمر.

سر الثور وشعر بالزهو لاختياره ممثلاً وطفق يخطر متهادياً أمام الحشد. ثم اتخذ موقعاً على منحدر التل حيث يمكن للشمس وللحيوانات الأخرى جميعاً أن تراه بوضوح. ونادى قائلاً:

- أيتها السيدة الشمس. لاخطر عليك من الخروج الآن. نريد أن نراك مرة أخرى، لذا نرجوك أن تأتي بسرعة.

وسمعت الشمس خوار الثور العميق بيد أنها قررت ألا تخرج، لذا ناداها الثور مرة ثانية.

وواصلت الشمس تجاهلها لندائه. وكرر الثور تأكيده ثماني عشرة مرة، ولكن لم يكن في مقدور شيء أن يقنع الشمس بالتحرك من بقعتها الآمنة.

صاح خنزير من مؤخرة الحشد قائلاً :

- ربما لم يكن صوته قوياً بما فيه لكفاية .

واقترح كلب كان في مقدمة الحشد قائلاً :

- لِمَ لانختار أحداً آخر؟؟ ربما كان النمر راغباً في القيام بذلك . يستطيع أن ينادي القمر. وربما كان القمر يصغي .

أطلق النمر صيحة ابتهاج ، ووثب إلى مقدمة الحشد وركض صاعداً منحدر التل إلى المكان الذي كان الثور يقف فيه . قذف رأسه إلى الخلف وزأر إلى القمر قائلاً :

- أيها السيد القمر! . . اخرج حالاً فالسماء آمنة .

ودوَّى صوت النمر في أرجاء السماء وداخل الغيوم إلا أن القمر أصيب بالهلع من هذا الصوت إلى حد أنه لم يجرؤ على إظهار وجهه . وحاول النمر مرة أخرى إلا أنه أحنى رأسه في نهاية المطاف متأسفاً . واعترف مجلس الحيوانات بالهزيمة . وتفرقت الحيوانات إلى أعشاشها وعرائنها وكهوفها وأوكارها المعنية .

وبعد ثلاث سنوات ، وحين كانت ثلاثة أرباع مخلوقات الأرض قد لاقت حتفها جوعاً ، عقدت الحيوانات مجلساً آخر. كانت تجلس في دائرة وهي تفكر ملياً بالمشكلة الماثلة أمامها ، وعجزت ، حين تذكرت أن النمر الفخور والثور القوي أخفقا في محاولتيهما ، عن ترشيح من يمكنه اتباع خطوات هذين الحيوانين الجريئين . وحين قطعت الأمل ، مشى الديك مختالاً إلى مركز الدائرة . وقال :

- لماذا لاتدعونني أحاول. الشمس ابنة عمي وأنا واثق من أنها ستصغي إلي .

فنبح الكلب قائلاً :

- أجـل. ربمـا كان مصيبـاً. صوتـه واضح، وهو نسيب الشمس ولن نخسر شيئاً إذا أخفق في جذب انتباهها.

ودون أن ينتظـر موافقـة الآخرين أمال الديك رأسه إلى الخلف وصاح بأعلى مالديه من قوة قائلاً:

- يابنـــة عمي الشمس، مضى وقت طويـــل وأنت تختبئين. لم يعــد هنـا مايؤذيك، اخرجي وأضيئي عالمنا مرة أخرى.

ارتفـع صوت الـديـك إلى السماء، وأيقظ الشمس من نومها، فشقت طريقهـا خارج الغيمة، ولم يلبث الديك أن ناداها مرة أخرى. فأخرجت نفسها أكثر مصحوبة بتشجيع ابن عمها إلى أن غمر نورها السماء والأرض. كانت الشمس مســرورة لتجـديـد معـرفتهـا بالأرض ومخلوقاتها، إلا أنها ذهلت إذ اكتشفت أن القمـر الخجـول كان لايـزال يختبىء في الغيـوم. فرقصت عبـر السماء ودفعته برفق من الغيوم التي تحميه. وأعلنت قائلة له:

- سنشـرق اليـوم معـاً. وسترى أن ليس ثمة ماتخشاه. وعندما أستريح هذه الليلة ستكون في مأمن للعودة إلى موقعك القديم في السماء.

ثم أخفضت الشمس نفسها في السماء ونادت الديك قائلة:

- أنا واثقة من أن كل ذلك الصياح قد أضناك. خذ هذا المشط هدية مني. يمكنك أن تستعمله في تمشيط ريشك الجميل كل صباح.

وألقت الشمس مشطـاً على الأرض، إلا أن الـــديـــك كان منـدفعـاً لاستلامه اندفاعاً شديداً جعله يركض إلى الأمام فاستقر المشط مقلوباً على رأســه وقـد أشار أحد أطرافه إلى الشمس. ولاتزال هدية الشمس إلى الديك تستقر مقلوبة فوق رأسه إلى يومنا هذا.

سبب ملوحة البحر

منذ آلاف السنوات عاش أخوان معاً على مقربة من البحر الشرقي. كان الأخ الأكبر، واسمه آه ـ بونغ، كسولاً وشرهاً، بينما كان الأخ الأصغر، واسمه آه ـ دونغ، نشيطاً وكريماً وهادئاً. كان آه ـ بونغ يقضي كل يوم في الفراش بينما كان أخوه يعمل في الأرض ويعود ليطبخ وجبة العشاء عند غروب الشمس. وفي وقت مبكر من صبيحة أحد الأيام غادر آه ـ دونغ المنزل وهو يحمل صُرَّة من الأرز اللزج لغدائه، وتوجه نحو هضبة قريبة ليقطع بعض الحطب للوقود. وحين استخدم فأسه لأول مرة في ذلك الصباح، قفز قزم عجوز من خلف الشجرة التي كان على وشك أن يقطعها. فأخفض آه ـ دونغ فأسه ومشى إلى القزم ليرى فيما إذا كان في وسعه أن يساعده.

أمسك القزم العجوز يد آه ـ دونغ ورفع بصره إليه محدقاً بعينين متوسلتين وأنَّ قائلاً:

ـ لم آكل منذ أيام. هلاَّ أعطيتني نصف غدائك من فضلك؟؟

كان من الصعب على آه ـ دونغ أن يرفض طلب القزم المهزول والذي

كان يبدو وكأنه لم يستحم أو يتناول وجبة مناسبة لمدة شهر على الأقل . فحل أوراق الملفوف التي كانت تغلف أرزه اللزج وقسم الرزمة إلى قسمين أعطى القـزم أحـدهما . أمسك القزم قسمه بأصابعه الصغيرة المشوهة ودفعه داخل فمـه بكـل مالـديـه من سرعـة . وفيما كان لايزال منتفخ الأوداج بالطعام لعق أصـابعـه القذرة وطلب النصف الآخر من الأرز اللزج . وتردد آه ـ دونغ لحظة لأن هذا الأرز كان مخصصاً لتغذيته حتى المساء إلا أن القزم كان طاعناً في السن ومثيـراً للشفقـة فلم يطـاوعـه قلبـه على رفض طلبـه ، لذا سلمه طعامه المتبقي . أكـل القـزم هذه الـدفعة من الأرز اللزج بالسرعة نفسها التي تناول بهـا النصف الأول ، ثـم استنـد مستـرخيـاً على إحـدى الأشجـار وهو يتجشأ ويحوزق في سرور .

قال برضى :

ـ أنت شاب ظريف . أعرف عدداً قليلاً من الناس الذي يمنحون آخر لقمة من طعـامهم لشخص غريب تمـامـاً . وفي مقـابـل حسن وفـادتك يتحتم عليك أن تقبل هديتي .

وأخـرج القـزم علبـة حجـرية مهترئة وفتح غطاءها . ورفع منها مطحنة حجرية صغيرة خرقاء الصنع وسلَّمها إلى آه ـ دونغ قائلاً بفخر :

ـ هذه مطحنة حجرية ممتازة . كل مايتعين عليك عمله هو أن تطلب منها أن تطحن وسوف تنتج أي شيء تريده . وحين تريدها أن تتوقف ، عليك فقط أن تقـول : «أيتهـا المطحنة . أيتها المطحنة . شكراً جزيلاً لك» . وسوف تتوقف على الفور .

وقبـل آه ـ دونـغ هذه الهدية الأصيلة بامتنانٍ وإن كان قد ساوره الشك في قدرتهـا المـزعـومـة . وبعدئذ انحنى القزم انحناءة مجهدة وترك آه ـ دونغ ليتابع عمله . وضع آه ـ دونغ العلبة بعناية فوق رقعة معشبة من الأرض وتابع

الاحتطـاب. وحين حلَّت الظهيـرة شعر بالجوع لذا قرر أن يختبر المطحنة. رفعها برفق في يديه وأعطاها الأمر المناسب قائلاً:

- أيتها المطحنة. أيتها المطحنة. اطحني لي من فضلك كمية من الأرز اللزج.

ودفعت كلمـاتـه المطحنـة إلى العمـل على نحـومايشبـه المعجزة، وراحت تخرج كمية إثر كمية من الأرز اللزج.

وأمـر آه ـ دونـغ المطحنة أن تتوقف إلا أنها تجاهلته واستمرت رزم من الأرز تنسكب على الأرض. وأخيراً تذكر طلب الإيقاف المهذب فقال:

- أيتهـا المطحنـة. أيتهـا المطحنة. شكراً جزيلاً لك على عطاياك. والآن أرجوك أن تتوقفي.

فأوقفت المطحنـة إنتـاجهـا على الفـور، ووضعهـا آه ـ دونـغ باحترام داخل علبتها. وبعد ذلك جمع كميات الأرز اللزج ووضعها كلها في حقيبته القشيـة باستثنـاء رزمـة واحـدة. كانت روائحهـا الشهيـة تُسيل اللعاب وكان طعمها أطيب مذاقاً من طعم أي أرز ذاقه من قبل. كان الأرز قد سلق سلقاً كاملاً وكان منكهاً بالفاكهة والفول السوداني والفلفل. وقد أعطته كمية واحدة فقط الطاقة الكافية للعمل حتى الغروب. وعاد إلى البيت في المساء محملاً بالأرز والمطحنة وفأسه ورزمة من الحطب.

كان آه ـ بونـغ قد استيقـظ لتـوه عنـدمـا عاد أخـوه، وكـان منهمكاً في تفتيش خزائن المطبـخ بحثـاً عن شيء يأكله. وشم رائحـة الأرز حالما دخل آه ـ دونـغ البـاب. ودون أن يطلب إذنـاً اختطف الحقيبـة القشيـة من أخيه، وفتحهـا وحشـا فمـه بالأرز إلى أن لم يعد في مقدوره أن يمسك حبة أخرى. وفيما كان يأكل سرد عليه آه ـ دونغ قصة القزم والمطحنة الحجرية السحرية.

وبينما كان آه ـ دونغ لايزال يتحدث أمسك أخوه المطحنة الحجرية،

وهرع إلى المطبخ وأمر الحجر أن يعد عشاء. وبانصياع راحت المطحنة تسكب طبقاً إثر طبق من الطعام اللذيذ. وحين اقتنع آه ـ بونغ بأنه حصل على مايكفي أمر المطحنة أن تتوقف. إلا أنه نسي أن يطلب منها ذلك بتهذيب، لذا تابعت المطحنة سكب الطعام. وفي اللحظة التي بدأ فيها الذعر يتولاه، دخل أخوه المطبخ، وطلب من المطحنة الحجرية أن تتوقف مستخدماً العبارة التي لقنه إياها القزم.

وطيلة الوقت الذي استغرقته الوجبة كان آه ـ دونغ يقترح الطرق التي يمكن لهما أن يستخدما بها المطحنة الحجرية على نحو حكيم، إلا أن أخاه لم يتفوه بكلمة إلى أن فرغ من الأكل. وعندئذ قال:

- لماذا يتحتم علينا الحرص مع هذه المطحنة؟ سوف تعطينا أي شيء. لنستخدمها في إنتاج حمولة عربات من الملح الناعم. ومن يدري، لو بعنا منه مافيه الكفاية لصرنا أغنى رجلين في الصين.

قال آه ـ دونغ:

- لنناقش ذلك في الصباح.

ومضى لإعداد فراشيهما المصنوعين من القش.

وحين غاب آه ـ دونغ كان آه ـ بونغ لايزال يفكر ملياً بالطرق المتنوعة التي ستجعلهما ثريين. وأخيراً قرر ألا يتقاسم ثروة المستقبل مع أخيه.

ولم يكلف آه ـ بونغ نفسه مشقة حزم أمتعته حتى، بل وضع المطحنة الحجرية تحت ذراعه وغادر المنزل للمرة الأولى منذ شهور. وركض نازلاً إلى المرفأ حيث كانت سفينة تجارية على وشك الرحيل إلى جنوبي الصين. كان قد خطط للسفر إلى مكان سري أبعد مايكون عن أخيه، مكان يتسنى له فيه أن يغدو ثرياً ومحترماً بقية حياته.

وبعد أن رفعت المرساة ويمّمت السفينة شطر البحر الطلق، وضع آه ـ

بونـغ المطحنـة الحجـريـة في ركن هادىء من سطـح السفينـة وطلب منهـا أن تنتج ملحـاً. وطفقت المطحنـة المطيعة تخرج أكواماً من الملح، وجثا آه ـ بونغ قربها على نحو مسعور وهو يجرف الملح ليعبئه في أكياس من الخيش. وطفق الملح يزحف فوق أصابع صندله القشي وينتشر عبر سطح السفينة باتجاه مطبخها. وخشي آه ـ بونغ أن يكتشف أحد ما سرَّه، لذا أمر المطحنة أن تتوقف، إلا أنها لم تعره انتباهاً. وأمر المطحنة مرة أخرى بالتوقف إلا أنها تابعت إخراج أكوام الملح والذي راح يهدد الآن بغمر المطحنة نفسها. كان آه ـ بونغ قد نسي أن يقول «من فضلك» و«شكراً لك» ولن تتوقف المطحنة إلا إذا قيلت هذه الكلمات.

وشقَّت هضبة الملح طريقها إلى طول سطح السفينة ونزلت إلى مطبخ السفينـــة، وحـاول آه ـ بونـغ إعـادة صيـاغـة أمـره إلا أنـه كان قد نسي أهم الكلمـات. وغطَّت أكـوام من الملح المطحنة الآن ومع ذلك واصلت عملية الطحن. وفطن طاقم السفينـة إلى الكـارثـة وحاول أفراد الطاقم في يأس أن يجـرفـوا الملح عن سطحهـا خشيـة أن تغـرق، إلا أنهم لم يكـونـوا أنـداداً للمطحنـة المتكـرسـة والمخفيـة تحت ركـام متنقـل من الملح. وبدأ الذعر ينتـاب المسـافـرين فقفز بعضهم عن سطح السفينة في محاولة للسباحة إلى الشاطىء. وأخيراً هجر الطاقم السفينة. وبقي آه ـ بونغ فقط وقد عقد العزم أن يظل قريباً من مطحنته الحجرية الثمينة.

وحين وصل الملح إلى عنق آه ـ بونغ بدأت السفينة تغوص، وراحت أمـواج البحـر تلطم سطحهـا. وفي غضـون عشـر دقائق اختفت السفينة عن الأنظار تحت الأمواج. وغرق آه ـ بونغ، إلا أن المطحنة تابعت إنتاج الملح منتظرة أن يطلب منها أحد ما أن تتوقف.

إنهـا لاتـزال تطحن في مكـان ماتحت البحـر الشـرقي وهذا هو سبب ملوحة البحر.

عـازف الـنـــاي الأبـكـــم

كان آه ـ تشن أبكم إلا أنه عندما كان يعزف على الناي كان من يسمعه يتـوقف عن أي شيء يقـوم به ليصيخ السمع إلى ألحانه البالغة حدَّ الكمال. وكـان من عادتـه أن يعـزف أيـامـاً وليالٍ دون توقف. ونشأ أهالي القرية على محبة عازف الناي الأبكم، إلا أن زوجته بعد خمس سنين من الاستماع إلى النـاي كانت قد بلغت حد الاشبـاع. وذات صبـاح، بعـد أن كان زوجها قد عزف لمدة ثلاثة أيام بأكملها، طردته خارج المنزل وحذرته من العودة إذا لم يجد لنفسه عملاً.

انفطـر قلب عازف الناي، وراح يتجول نازلاً إلى شاطىء البحر حيث طفق يعـزف لحنـاً حزيناً آسراً. وفتنت الأسماك والقريدس بموسيقاه إلى حدِّ أنهـا طافت على سطـح المـاء لتصيخ السمع إليه. حتى الأمواج تدفقت إلى الشـاطىء في تنـاغم مع ألحـانـه. وفي غضـون ساعة كان الشاطىء مكسواً بالمحـار والسـرطـانـات وأسماك السيف وقناديل البحر وكل مخلوقٍ آخر من مخلوقـات المحيـط وطفقت كلهـا تتنعم بالألحـان الرقيقة التي بدت وكأنها تملأ الهواء والماء.

وعلى حين غرة حدث هرج ومـرج بين الأسمـاك، وانشقت مياه البحر لتتكشف عن درب فوق قعـر البحـر. وعلى مبعـدة منه رأى عازف الناي فوجاً من جنود القريدس والسرطانات تمشي نحوه وحين دنت منه لمح على رأسهم الملك الجبـار تنين البحـر. فواصل عازف الناي ألحانه إلى أن وقف الملك تنين البحـر أمـامـه ورفع يده ليأمره بالصمت، ثم أخذ عازف الناي من ذراعه وقاده على طول الدرب بين الأمواج. وحين اقتربا من القصر قال الملك تنين البحر:

- إن موسيقـاك هي أجمـل موسيقى سمعتها في حياتي. الملكة مريضة إلا أنهـا مع ذلـك شعرت بتحسن عندما سمعت لحنك. فهلاّ عزفت كل يوم في القصر بحيث يتسنى لزوجتي أن تشفى؟؟

فأومأ عازف النـاي موافقـاً وتبـع الملك إلى بوابـات القصر اللؤلؤية.

كان الجو في القصر كئيباً ومنذراً بمكروه منذ أن مرضت الملكة، ولكن ما إن بدأ عازف الناي في عزف لحن من ألحانه حتى انقشع الحزن الذي كان قد تخلل كل غرفة، واستردت الملكة عافيتها كاملة. ومكافأة له على ذلك منح عازف النـاي حريـة التجـول في القصـر ومـع مرور الـزمن أصبح الصـديق الصدوق للعائلة الملكية.

كانت موسيقى عازف الناي فرحة بشكل طبيعي، ولكن اهتمام الملك تنين البحـر انشـد ذات مسـاء إلى أنغـام حزينـة صـادرة عن حديقـة القصر فمضى يبحث عن عازف النـاي، ووجـده متكئـاً على جدار ظليـل وكـانت الدموع تترقرق من عينيه وهو يعزف. فسأله:

- ما الخطب؟؟ هل تشعر بالوحشة؟؟

أومأ عازف الناي برأسه. فتابع الملك قائلاً:

- هل حننت إلى بيتك وعائلتك؟؟

ومرة أخرى أومأ عازف الناي برأسه. فردَّ الملك قائلاً:

- إذن لاأستطيع أن أستبقيك ضد إرادتك. يحزنني أن أفقدك ولكنني سأطلب من حراسي السرطانات أن تصطحبك إلى بيتك. وقبل أن تذهب أود أن أعطيك هذه المحارة التي ستنفتح وتمنحك أي شيء تريده حالما تسمع موسيقاك.

ووضع الملك المحارة في جيب رداء عازف الناي الحريري وقام بتوديعه. ومرة أخرى انشق البحر واقتيد عازف الناي بأمان إلى الشاطىء.

وحين عاد إلى بيته رحبت به زوجته بحذر إلا أن موقفها تغير عندما علمت سرَّ المحارة. وضع آه - تشن المحارة على طاولة المطبخ وطفق يعزف، فرقصت المحارة على طول الطاولة ووثبت إلى الأرض، وفتحت صدفتها على اتساعها أمام آه - تشن وزوجته.

سألته الزوجة المحارة قائلةً:

- هل تستطيعين تزويدنا بوليمة لنرحب بعودة زوجي إلى البيت؟؟

وبانصياع قدمت المحارة كمية وافرة من أطايب الطعام. فصاحت الزوجة قائلة لزوجها:

- إذا كانت هذه مكافأتك على عزفك الناي ففي وسعك أن تعزف إلى الأبد.

وانجذب سكان القرية بعد ذلك إلى منزل أه - تشن إذ كان هنالك اهتمام مزدوج بموسيقاه الجميلة وبمجموعة جميلة من الطعام أو أي شيء كان آه - تشن أو أصدقاؤه يحتاجونه.

وعندما سمع حاكم المقاطعة الماكر بالمحارة الثمينة عقد العزم على الحصول عليها، فقام بزيارة مجاملة لمنزل عازف الناي. أربك شرف الزيارة زوجة آه - تشن فطلبت من المحارة تقديم وليمة لضيفهما. وحين

فرغـوا من الطعـام امتـدح حاكم المقاطعة مزايا الناي والمحارة إلى حد كبير وعـرض أن يشتـريهمـا من آه ـ تشن. خشيت زوجـة عازف الناي أن تعارض رغبـة الحـاكم ولكن آه ـ تشن هز رأسـه بعنف معارضاً ذلك. بيد أن الحاكم المحتال اتخذ صمت آه ـ تشن على أنه موافقة فأخرج على الفور ميزاناً من حقيبته الجلدية. وأعلن قائلاً:

ـ كبرهانٍ على صدقي ونزاهتي سأقايض المحارة بما تزنه من ذهب وفضة.

وحـاول آه ـ تشن مرة أخـرى أن يوقف الحـاكم إلا أن الحـاكم اكتفى بدفعـه جانبـاً. وضـع المحـارة في إحـدى كفَّتي الميـزان وثلاث سبائك من الذهب في الكفة الأخرى، إلا أن المحارة كانت أثقل وزناً. فأضاف ثلاث سبـائـك من الفضـة إلا أن المحـارة ظلت تفوق النقود وزناً. واصل الحاكم تكـديس المعـادن والحجـارة الكـريمـة في الميزان، إلا أن لاشيء كان في وسعـه أن يرفـع المحـارة الثقيلة. فأمـر الحـاكم خدمه في يأس أن يحضروا ميزاناً أكبر. وحين وصل هذا الميزان أفرغ الكنز والمحارة في الميزان الجديد وتابع تكديس المجوهرات النفيسة على الجانب الأخف وزناً.

كان جمع من الناس قد احتشد الآن وخشي الحاكم أن يفقد اعتباره، لذا تابع تكديس المجوهرات في الميزان. وبقيت المحارة بعناد في الجانب الأخفض. وحين أفـرغت كل حقيبـة من الحجـارة الثمينة قدَّم الحاكم رداءه الـرسمي ولقبـه إلى آه ـ تشن إذ أن المحـارة كانت في نظره أكثر جدارة بكثير من النقود التي كان في وسعه أن يغتصبها كحاكم.

وحـالمـا وضـع الحـاكم قبعتـه ورداءه الـرسميين في الميزان ارتفعت المحـارة في الهـواء وتسـاوت كفتا الميزان. فأمسك الحاكم المحارة والناي وقـد تنفس الصعـداء، وهـرع إلى منـزلـه ليجـرب سحـرها. أوصد الأبواب والنـوافـذ وقبـل أن يبـدأ العـزف على النـاي طلب من المحـارة أن تنتـج من

الـذهب مايكفي لمـلء غرفة نومه. ثم رفع الناي إلى شفتيه وبدأ يعزف، إلا أن الألحـان بلغت من الارتفـاع والنشاز شأواً بث الرعدة في أوصال العابرين بالمكـان. فتـابـع دون وجـل على الـرغم من أن المحارة رفضت أن تنفتح، وكان الجيران قد طفقوا يخبطون على الجدران في تذمر. وأخيراً لم يعد في وسـع المحـارة أن تتحمـل الضجيـج، فوثبت إلى الأرض وخبأت نفسها في إحدى الخزائن.

واستمـرت أنغـام الحاكم الصارخة في الرنين عبر القرية إلى أن وثبت المحـارة في الهـواء في ألمٍ وحطمت صدفتهـا على عارضـة خشبيـة. وبدأ السقف يتصـدع، وبـدأت العـوارض تصدر صريراً، وبدأت الجدران تنثني وفيمـا كان الحـاكم يعـزف على الناي باهتياج سقط منزله على كتفيه. وحين همـد الغبـار أخيراً زحف الحاكم خارج أنقاض منزله المحطم، وعلى الرغم من أنه بحث عن المحارة عدة أيام عجز عن إيجادها.

في هذه الأثنـاء أعلن آه ـ تشن حاكمـاً جديـداً وعـاش هو وزوجتـه، بثروته المكتسبة حديثاً، حياة الخالدين، ومات الحاكم الماكر فقيراً معدماً.

شجـرة البـاغـودا

عاش تنـغ ـ ينـغ مع والـده المقعد في منزل طيني صغير في ضواحي إحدى القرى. وكان هذا الفتى قد اشتغل عاملاً منذ سنّ العاشرة ليدفع أجور أطباء الأعشاء والمعالجين بوخز الإبر الذين كانوا يعالجون والده بانتظام.

عنـدمـا توفي والده كان تنغ ـ ينغ في العشرين من عمره وكان قد أنفق كل ماكسبه على المعالجات الطبية. ولم يكن في مقدوره أن يدفع أجور دفن أبيه.

وطلب من أصدقائه وجيرانه أن يقرضوه النقود اللازمة لذلك، إلا أنهم رفضوا جميعاً لعلمهم بعجزه عن إيفاء ديونه. وساقه قلقه على تأمين ضريح لجثمـان والـده إلى بيـع نفسـه كخـادم لتاجر ثري يُدعى ليو. وقدَّم ليو النقود الـلازمـة للدفن وبـالمقـابـل وعـده تنـغ ـ ينغ أن يعمل في منزله لمدة ثلاث سنـوات. وبعـد دفن والـده قدم تنـغ ـ ينـغ القرابين لأسلافه، وغادر المقبرة بقلب كسـير إذ أنـه كان يعلم أنـه لن يتمكن من الاعتنـاء بقبـر أبيـه أو عبـادة الأسلاف لمدة ثلاث سنوات على الأقل.

حزم تنـغ ـ ينـغ ممتلكـاته القليلة في كيس وتوجه في ساعات الصباح

المبكـرة إلى منـزل ليـوعنـد طرف الجبل البعيد . وعند الظهيرة كان قد قطع نصف المسافة فجلس تحت شجرة لينال قسطه من الراحة . وعلى حين غرة أجفله صوت فتاة بقربه . سألته :

- هل أنت تنغ - ينغ ؟ ؟

سُرَّ تنـغ - ينـغ لسمـاع صوت ودِّي فقدم نفسه ، على الرغم من أنه لم يكن قد شاهـد المـرأة من قبـل قط ، وأخبـرهـا بقصـة موت أبيـه وإتفاقه مع التاجر . وما إن فرغ من سرد قصته حتى طفق يبكي . فقالت له :

- لا تقلق . سأسـافـر معـك إلى منـزل التـاجـر وسوف أساعدك في الطهي والغسيـل والتنظيف . وبـوجودي إلى جانبك سيتم العمل بضعف السرعة التي يتطلبها منك وتستطيع الرجوع إلى بيتك في أقل من ثلاث سنوات .

للوهلة الأولى كان تنغ - ينغ على أهبة الاستعداد للموافقة إلا أنه تذكر أن هذه المـرأة الغـريبـة كانت قد عرفت اسمه ، فتساءل فيما إذا كانت الآلهة تدبر له مكيدة . وحتى لو كانت بشرية جاءت لتساعده فإنَّه لايستطيع أن يصل إلى منزل التاجر وإلى جانبه فتاة غريبة . إلا أن الفتاة قرأت أفكاره وأخذته من يده ، وسألته برقة :

- إذا وافقت على أن أكون زوجتك ، هل تتزوجني ؟ ؟

فصُعق تنغ - ينغ ونظر حوله في قلق محاولاً أن يفكر في عذر . غمغم قائلاً :

- لا أستطيع . كلا . هذا ليس صحيحاً . لا نستطيع أن نتزوج بدون صانع زيجات[1] .

---

١ - صانع الزيجات : شخص يجمع بين اثنين عن طريق الزواج . المترجمة .

ودون أن يقلقهـا ردُّه مشت الفتـاة إلى شجـرة ضخمـة قريبـة وركلت جذعها ثم ردت بهدوء:

ـ هذه صانعة زواجنا.

فاقتنـع تنـغ ـ ينغ الآن بأنها إماً مجنونة أو روح شريرة، إلا أن الشجرة أذهلتـه حين انحنت وكأنهـا تقول «نعم». قرر تنع ـ ينغ أن يسايرها، فسألها عن جدوى صانعة الزيجات هذه إذا كانت لاتستطيع إلا أن تنحني دون أن تتكلم.

فصـاح من جوف الشجـرة الكائنة خلفه صوت ساخط وكأنه صادر من الحلق لا من الفم قائلاً:

ـ ومن قال أنني لاأستطيع التكلم. إنني صانعة زواجكما وأنا آمرك بالزواج.

فتيقن تنـغ ـ ينـغ الآن من أن روحـاً طيبـة أو شريرة تكمن وراء ذلك، فانحنى لقـواهـا واتخـذ الفتـاة زوجة له. وعندما وصل الزوجان إلى منزل ليو أدخلهـا إلى غرفـة استقبـاله. واهتاج ليو عندما اكتشف أن عليه أن يطعم فماً آخـر إلا أن الفتـاة طمأنتـه قائلةً أن في مقدورها أن تخيط، وتحبك، وتنظف على نحو أسرع من أي خادم في المنزل. فكَّر التاجر الماكر بكلماتها ووافق على السمـاح لهـا بالبقاء شريطة أن تحبك أربعاً وعشرين قطعة من القماش في ثلاثـة أيـام. عنـدما سمع تنغ ـ ينغ ذلك طلب من زوجته أن يعرف كيف ستلبِّي هذا الشرط، إلا أن كل ماقالته كان: «لا تقلق. الحبك سهل بالنسبة إلي».

وبعـد ثلاثـة أيام انتهى الحبك ووضعت قطع القماش أمام ليو. وفيما راح التـاجـر يفحصهـا بمسحـة من الازدراء عانق تنغ ـ ينغ زوجته بفرح. لم يكن، خلال الأيام الثلاثة، قد شاهدها تحبك خيطاً واحداً ومع ذلك أنجزت المهمة. قال ليو بغطرسة:

ـ لقد حصلت على إذني بالبقاء. ولكن لا تتوقعي مني أن أعطيك طعاماً بالمجّان. وإذا لم يكن في مقدورك أن تحبكي خمسين قطعة من الحرير الناعم في غضون ثلاثة أيام فستطردين خارج المنزل.

وحين خرج سيده من الغرفة جثا تنغ ـ ينغ على ركبتيه في يأس قائلاً:

ـ كيف له أن يتوقع منك أن تحبكي خمسين قطعة من الحرير في ثلاثة أيام؟؟ هذه هي النهاية. أعرف أنني لن أراك مرة أخرى.

ولكنَّ زوجة تنغ ـ ينغ طمأنته مرة أخرى قائلة أنها ستنجز العمل في الوقت المحدد.

وراح تنغ ـ ينغ، خلال اليومين التاليين، يراقب زوجته بدقة. كانت تقضي وقتها في قطف الأزهار في الحديقة إلا أنها لم تدخل قط، ولو لمرة واحدة، غرفة الحبك. ودهش التاجر نفسه عندما رآها تتصرف على ذلك النحو الاعتباطي وراح يترقب طردها من منزله.

وفي مساء اليوم الثاني بلغ تنغ ـ ينغ من القلق شأواً منع عنه النوم، فتسلل إلى غرفة الحبك ليرى فيما إذا كانت زوجته قد بدأت مهمتها. فتح الباب بشكل طفيف وراح يسترق النظر إلى الغرفة المضاءة بشكل براق، فشاهد كركياً[٢] يسقط مكوك حبك في يد زوجته لترميه بدورها إلى آلة الحبك والآلة تبدأ الحبك بسرعة ودون مساعدة من أحد. فرك تنغ ـ ينغ عينيه مقتنعاً بأن كل مارآه كان حلماً، وحين فتحهما مرة أخرى كان الكركي وزوجته قد اختفيا، وغرفة الحبك تغرق في الظلام. فعاد تنغ ـ ينغ أدراجه إلى سريره متيقناً من أنه كان يحلم.

---

٢ ـ الكركي: طائر يشبه طائر مالك الحزين. المترجمة.

وعنـد فجـر اليـوم الثـالث وضعت المـرأة خمسين قطعـة من الحـرير المحبوك بشكل جميل أمام ليو وقالت :

ـ أنا واثقة من أنك ستجد هنا الكمية الصحيحة من الحرير.

وانحنت وغادرت الغرفة .

وذهـــل ليـــو إلى حد جعله يقضي الصبـــاح بأكمله وهـــو يتعجب من براعتها . وعند أواخر الأصيل استدعاها إلى غرفة استقباله وسألها :

ـ هل تستطيعين تطريز الحرير؟؟

فأومأت المرأة برأسها . قال :

ـ في تلك الحالة أريدك أن تحبكي وتطرزي خمسين قطعة من الحرير في عشـرة أيـام . إذا استطعت أن تقـومي بذلـك فسوف أبيع الحرير وأشتري خمسين عبـداً وبـالمقـابـل ستحصلين أنت وزوجك على حرية المغادرة وإذا أخفقت فسوف يتحتم عليك أن تقيمي عندي ست سنوات بدلاً من ثلاث .

كان التاجر متأكداً من أن المرأة لن تستطيع إنجاز هذه المهمة ، وراح يفـرك لحيتـه وهـو يفكـر مسبقـاً في النقـود التي سيحصل عليها إذا بقيت في خدمته ستَّ سنوات .

وخلال الأيام العشرة التالية لم يستطع تنغ ـ ينغ النوم أو تناول الطعام . كان كل يوم يرى زوجتـه تنـال قسطهـا من الـراحة في الحدائق ، ويتخيل كم ستكســو الأعشـاب قبر والده في غضون ست سنوات . وكان كلما لام زوجته لم تكترث ، لذا ما إن حلت الليلة التاسعة حتى غدا تنغ ـ ينغ شبه مسعور من القلق .

وعنـد منتصف الليلة التـاسعـة كان تنـغ ـ ينغ يذرع غرفته جيئة وذهاباً عندما سمع أصوات نساء تأتي من غرفة الحبك . دنا من الغرفة وفتح الباب

بحذر، فتسمَّر في مكانه مذهولاً مما رآه. كانت زوجته وستُّ فتيات جميلات يحبكن ويطرِّزن قطعاً كاملة من الحرير. وكانت سبعة كراكي تطير فوق رؤوسهن وتسلِّمهن المكاكيك[٣] وخيوط تطريز الحرير ذات الألوان الجميلة. كان تنغ ـ ينغ قد بلغ من الإعياء شأواً جعله لايقوى على تحمل هذه الصدمة فانهار عند مدخل الغرفة.

وحين أفاق كانت زوجته تغسل جبهته وتحاول أن تخفف عنه قائلة:

- إنني آسفة إذ سببت لك صدمة على ذلك النحو، إلا أنهن كن أخواتي الست الكبيرات اللواتي أتين لمساعدتي في حبك الحرير. وقد تمَّ ذلك الآن، وقد حصلنا على حريتنا في المغادرة.

وفي الوقت المحدد من اليوم العاشر وضعت المرأة خمسين قطعة من الحرير، مطرزة على نحو جميل بالتنانين والبطات وطيور العنقاء أمام سيدها. أخرست الدهشة ليو، وأدرك أنه عاجز عن التأثير على هذه المرأة أو زوجها، فصرفهما عن أنظاره.

وفي ذلك الأصيل بدأ تنغ ـ ينغ وزوجته رحلة العودة عبر الجبال، إلا أن المرأة أصرت على التوقف قرب الشجرة التي تقابلا عندها أول مرة. فهُرع تنغ ـ ينغ إلى الشجرة وعانقها بفرح، إلا أن الشجرة لم تستجب له، وعندما التفت إلى زوجته ليخبرها بذلك فتحت حقيبتها المصنوعة من القش وسلمته عشر لفات كاملة من الحرير. وشرحت له ذلك قائلة:

- هذه هدية افتراقي عنك. إنني خالدة وقد اتخذت هيئة بشرية لأساعدك، ولكن امبراطور اليشب سمع بزواجنا وأنا مضطرة للرجوع إلى السماء.

---

٣ ـ المكاكيك: جمع مكوك. المترجمة.

خذ هذا الحرير وبعه في السوق، واستخدم النقود التي تكسبها على نحو حكيم. سأتولاك بعنايتي دائماً.

حاول تنغ ـ ينغ أن يقبلها قبلة الوداع إلا أنها ارتفعت نحو الغيوم قبل أن يتمكن من لمسها. فرفع بصره نحو الأعلى وشاهدها وهي تطير إلى السماء محاطة بسبعة كراكي.

لِـمَ ليـس لـدودة الأرض عينـان

في زمن ما كان لدودة الأرض عينان، وكان في وسعها أن ترى. وكان في وسعهـا السبـاحـة أيضـاً والتحـرك فوق الأرض بسـرعـة. كان القريدس أخلص أصدقائها ولم يكن له عينان، إلا أن دودة الأرض كانت تساعده على السباحة وعلى المشي فوق الأرض الجافة.

كانت دودة الأرض تجـد في السبـاحة متعةً مابعدها متعة ولكنَّ جنرال السرطانات كان دائماً يتنمَّـر عليها ويهينها في كل مرة تنزل فيها إلى الماء. وذات يوم حاول إغراقها إلا أنها أفلحت في الهرب إلى جحرها حيث جلست تبكي بفعـل الخـوف والصـدمـة. وحين وجـد القـريدس صديقته غارقة في الدموع سألها كيف في وسعه أن يساعدها، فردَّت الدودة قائلة:

- سيقتلني جنرال السرطانات ذات يوم لأنني أضعف وأرق من أن أدافع عن نفسي. أما أنت فلديك جسم قويٌّ وخوذة متينة وجلد واقٍ. سأعيرك عينيَّ إذا ساعـدتني في اقتصـاص الثأرمنـه. ولكن هل تعدني أن تعيدهما إليَّ حين تفرغ من ذلك؟؟

وافق القـريـدس على مسـاعـدة صديقتـه، وطفق ينتظـر فيمـا راحت

تصـرخ ألمـاً وتتلوى وهي تقتلع عينيهـا. واستلم القريدس العينين، ووضع واحـدة على كل جانب من جانبي أنفـه، وانطلق تحـدوه الشجـاعة لمحاربة جنـرال السـرطـانـات. سبح على طول حافـة المـاء وهـو ينـادي جنـرال السـرطـانـات، ولكن عنـدما لاح خصمه على مرمى النظر ضخماً، أثار هذا المخلوق ذو المظهـر الخطيـر رعبـه ممَّـا حدا به إلى الفـرار والاختبـاء بين الصخـور تحت المـاء. وحين خلا السـاحـل منـه خرج القريدس من مكانه اختبائه. كان مستمتعاً بعينيه الجديدتين أيَّما استمتاع إلى حدٍّ أنه قرر ألاَّ يعيدهما.

وعلى الـرغم من أن للقـريدس سيقاناً، لم يعد يجرؤ منذ ذلك الوقت على المشي فوق الأرض الجـافـة خشيـة أن تطـالبـه دودة الأرض بإعـادة عينيهـا. ولاتـزال دودة الأرض المسكينـة تنتظـر من صديقها أن يعود. وعلى الرغم من أنها فقدت عينيها، لاتزال تستطيع السباحة إلا أنها تخشى النزول إلى الماء مخافة أن يقتلها جنرال السرطانات.

المـرأة ذات الصـوت المـرتفـع

كان إلـه الجحيم هو المسؤول عن جميـع الأشباح التي كانت تعيش في العالم السفلي، إلا أن عمله هذا أورثه الكآبة والسأم، إذ كانت الجحيم باردة مظلمـة، ونـادراً مايفكـر أحد بزيارتها، فذهب في يأس ليقابـل قاضي الموتى، وتوسَّل إليه أن يحوِّل المزيد من البشر إلى أشباح لتصبح حياته في الجحيم أكثر نشاطاً وأكثر إمتاعاً.

وافق قاضي المـوتى على طلب إلـه الجحيم، لذا أرسلا أكثر الأشباح خداعـاً إلى الأرض ليقتـل مافي وسعـه من النـاس. توقف الشبـح أولاً عنـد مزرعـة امـرأة تدعى وونـغ ـ فو، وفيمـا كانت تطهو في المطبخ انسلَّ إلى قن الـدجـاج وأطلق سراح طيـورها كلها. وحين رأت وونغ ـ فو طيورها تطير في جميع الاتجاهات عبر المزرعة طاردتها، إلا أن الطيور لم ترغب في التخلي عن حريتهـا، وبمسـاعـدة الشبـح كانت دائماً تبقى على مبعدة خطوة منها. وأخيراً انهارت وونغ ـ فو وماتت من جراء أزمة قلبية. فرافقها الشبح المخادع إلى قاضي الموتى وأرسلت إلى الجحيم.

ثم عاد الشبـح إلى الأرض وصـل إلى بيت رجـل ثري كان يقضي كلَّ

أصيلٍ وهو يحصي نقوده. انسل الشبح إلى جانبه وطفق يرمي عملاته الذهبية والفضية من النافذة على رؤوس العابرين. حاول الثري في يأس أن يبقى على مقربة من نقوده إلا أنها كانت تنزلق من يديه كالسمكة المشبعة بالزيت. وحين اختفت نقوده كلها سقط الثري في كرسيه ويده على قلبه ومات. ورافقه الشبح أيضاً إلى الجحيم.

سر الشبح المخادع لنجاحه وواصل بث الرعب بين الناس وإرهاقهم كلما وحيثما استطاع إلى ذلك سبيلا. كان يتحتم عليه أحياناً أن يُظهر وجهه الأسود القبيح ونابيه الصفراوين فحسب ليسبب الموت الفوري من جراء الصدمة. وبعد أسبوع راحت غرفة الجحيم تعجُّ بأشباح جديدة وبدأ إله الجحيم يبتسم مرة أخرى. وأعطي الشبح الماكر أسبوعاً آخر لإحضار أفراد جدد قبل أن يعود إلى الجحيم، لذا عقد العزم على قتل عدد أكبر من عدد الناس الذين قتلهم في الأسبوع السابق.

وذات صباح وفيما كان يسافر عبر الريف شم رائحة دهن خنزير ساخن تسيل اللعاب. فتقفى أثر المصدر إلى أن وصل إلى منزل كانت فيه امرأة تعد الغداء لعائلتها. كانت المرأة طويلة القامة وقويةً البنية، ناتئة العظام وكانت تعرف محلِّياً «بالمرأة ذات الصوت المرتفع». وحين شاهدها الشبح كانت على وشك أن تسكب دهن الخنزير في جرة خزفية، لذا هرع ليمسك مايملأ فمه، ولكنه وصل في اللحظة التي أغلقت فيها الجرة. فضرب قدمه في الأرض بانزعاج. ودمدم لنفسه قائلاً: «إنها امرأة أنانية ذات صوت مرتفع، وكعقوبة لها سوف أرش زيتاً ساخناً على وجهها بحيث تموت من الحروق».

وحين استعد لإلقاء جرة من الزيت على المرأة دخل صبي إلى المنزل راكضاً ووجهه مغطى بالوحل. فصاحت المرأة قائلة:

- انظر إلى وجهك الأسود القذر. حذَّرتك ألف مرة ألا تلعب في الوحل.

وحين بدأ الصبي الصغير يبكي لانت المرأة وأضافت مازحة:

- سوف أغلي قدراً من الماء وأغليك فيها حتى تنظف مساماتك كلها.

وحين سمع الشبح هذا الكلام ظن أن المرأة كانت تتحدث معه فارتعش خوفاً. لم يكن يخشى شيئاً سوى الماء، فأوقع قدر الزيت وهرع عائداً إلى الجحيم لايلوي على شيء. وراح يخبر قاضي الموتى، بأنفاسٍ لاهثة، عن الأنثى التي كانت نداً له وكيف هددته أن تغليه في الماء. أصغى القاضي إلى قصة الشبح بأناة وصبر ثم أعاده إلى الجحيم لينال قسطه من الراحة. وقرَّر أن يزور بنفسه هذه المرأة ذات الصوت المرتفع ليرى فيما إذا كانت فعلاً على هذه الخطورة.

عندما وصل قاضي الموتى إلى منزل المرأة ذات الصوت المرتفع حول نفسه إلى زند من الخشب، وقبع عبر عتبة بابها الأمامي تماماً. ناداها باسمها فجاءت تركض إلا أنها توقفت فجأة عندما شاهدت الزند الخشبي وطلبت أن تعرف من الذي وضعه في هذا المكان الخطير. لم يكن ثمة أيٍّ شخص حولها ليصغي إلى تذمراتها لذا صاحت في طلب زوجها، فارتعش قاضي الموتى عندما سمع صوتها الثاقب. ولم يلبث الزوج أن انصاع لنداء زوجته فجاء راكضاً. قالت له:

- قطِّع هذا الخشب بالفأس فوراً ليتسنى لنا الحصول على وقود لطهي وجبة هذه الليلة.

وركلت زند الخشب بقدمها لتزيحه عن الطريق وأسرعت عائدة إلى المطبخ. وفي الفترة التي ذهب فيها زوجها لإحضار فأس، تحوَّل قاضي الموتى إلى هيئته الطبيعية وراح يفرك جسمه المرضوض. وقبل أن تتاح للمرأة فرصة إيذائه مرة أخرى طار عائداً إلى الجحيم حيث نقل القصة إلى إله الجحيم.

كان إلـه الجحيم قد سمـع عن هذه المـرأة لتـوِّه من أمكـر أشبـاحه، وأضحكـه أن يكتشف أن قاضي المـوتى نفسـه قد تعـرض للمتـاعب معها، فقال بابتسامة ساخرة:

ـ لا أعرف ماذا حل بك. من تقاريرك عن هذه المرأة أتخيلها بثلاثة رؤوس وستة أذرع. يتوجب علي أن أراها بنفسي، وأنا واثق من أنني سأحضرها إلى الجحيم في غضون هذا اليوم.

كان الغـروب قد حل عنـدمـا وصـل إله الجحيم إلى الكرة الأرضية، فتحـوَّل إلى ظل ليتسنى له أن ينسـلَّ بصمت عبـر منـزل المرأة ذات الصوت المـرتفـع. كانت العـائلة قد اجتمعت في المطبـخ استعـداداً لتناول الوجبة المسـائيـة، فنظـر حولـه بحثاً عن مكان آمن يتوارى فيه. كان ثمة جرة خزفية ضخمـة ملأى بالحلزون تقبـع في الظـل عنـد ركن المطبـخ، لذا حول إلـه الجحيم نفسه إلى حلزونة مكتنزة بنِّية واستقرَّ في الجرة.

وفيما كان يقلب وجوه الأمر في الطُّرق المتنوعة التي يستطيع بواسطتها أن يقتـل المـرأة سمعها تطلب من ابنها أن يملأ زبدية من أسمن مافي وسعه أن يختار من الحلزونات الموجودة في الجرة الخزفية. وشاهد إله الجحيم يد الطفـل تتحسس الحلزونـات حولـه وتسحب أكثـرها اكتنازاً. وحفَّت أصابع الطفـل جسـده عدة مرات، إلا أنـه راح يتملص متوغلاً أكثر فأكثر داخل كتلة الحلزونات. ولم تلبث يدُ الطفل أن اختفت، ففرَّ إله الجحيم عائداً أدراجه إلى بيته وهو يشعر بأنه محظوظ إذ أنه نجا بحياته.

كان إلـه الجحيم لا يـزال يلهث ويرتعش حين طفق يسرد الواقعة على الشيطان المخادع وقاضي الموتى.

قال متعجباً:

ـ الآن علمت ماذا قصدتما. أعتبر نفسي محظوظاً إذ عدت إلى الجحيم.

أعتقد أنها من ذلك الصنف من النساء اللواتي يحسن تركهن وشأنهن.

وافق قاضي الموتى على هذا التقييم إلا أن الشيطان المخادع ازداد تصميماً على قتل المرأة ذات الصوت المرتفع. وفي غفلة عن الآخرين انسلَّ عائداً إلى الكرة الأرضية ودخل منزلها. أمسك زوجها التعيس، وسدَّ فمه، وأوصد عليه سقيفة الحطب، واتخذ هيئته. وفي تنكره الجديد هذا صعد إلى فراش الزوجين منتظراً قدوم المرأة ذات الصوت المرتفع. وانتظر، إلا أن المرأة لم تدخل الغرفة، ولم يلبث أن اضطرَّ في نهاية المطاف إلى الخروج والبحث عنها. ووجدها تغسل قدميها في المطبخ. فتسلَّل الشيطان الماكر خلفها، ووضع يديه على كتفيها وتحدَّث إليه بأرق مالديه من أصوات قائلاً:

- لماذا لاتدعينني أغسِّلك؟ أنت تعبة وقد عملت بجد. سأفرك جلدك بالزيت لأزيده نعومة.

وأحسَّ بكتفي المرأة ذات الصوت المرتفع يرتعشان، ولكنها، وبدلاً من أن تلتفت إليه بابتسامة، أمسكت الدلو، واستدارت فجأة وألقت الماء عليه. ثم مشت خارجة من المطبخ وصفقت الباب خلفها. أطلق الشيطان المخداع صرخة احتضار فيما طفق جسمه يذوب، إلا أن إله الجحيم سمع صرخته الثاقبة وأرسل اثنين من الأشباح لحمله والعودة به إلى الجحيم.

وحين شُفي الشيطان المخادع استدعاه إله الجحيم كما استدعى الأشباح الآخرين إلى اجتماع صَرَّح فيه قائلاً:

- لقد نلتُ مايكفي. يجب ترك تلك المرأة وشأنها. لاأريد أن أستمع إلى صوتها بعد الآن. وإذا كان ثمة نساء أخريات على شاكلتها فمن الأفضل تجنُّب العالم البشري برمته.

ووافق كل منهم على حديث إله الجحيم ومنذ تلك اللحظة لم تزعج الأشباح ولم يزعج قاضي الموتى الكائنات البشرية مرة أخرى قط.

مـا ـ تشـن وقـلم الرسـم الخـالـد

كان ما ـ تشن يتيماً في الخامسة عشرة من عمره يلتقط رزقه من عمله كبستاني وعامل. كان يهوى الرسم في وقت فراغه إلا أنه لم يكن قادراً على شراء قلم أو ورق الرق[1]، لذا كان يرسم بغصن صغير على الرمل.

وذات ليلة ظهـر رجـل مُسِنٌّ في أحـلام ما ـ تشن وهـو يحمـل قلمـاً للرسم. انحنى فوق سرير ما ـ تشن ولمس جبين الصبي بقلم الرسم، قائلاً برقة:

ـ هذا قلم رسم خالد.

كان رأس القلم شديـد اللمعـان إلى حد أضـاء المنـزل برمته، ولكن عندما استوى ما ـ تشن في فراشه ليشكر الرجل المسن كان هذا قد اختفى. وفي تلك اللحظـة استيقـظ ما ـ تشن واكتشف أنـه كان يمسـك القلم الـذي وهبه إياه الرجل المُسنُّ في حلمه. فهرع إلى خارج منزله وعلى ضوء مصباح من مصـابيـح الـزيت رسم طائـراً على الرمل. وحين وضع اللمسات الأخيرة

---

١ ـ الرِّقُّ: ورق للكتابة. المترجمة.

لجناحي الطائر نفض الطائر ريشه وطار مبتعداً في الظلام . ثم طفق يرسمُ سمكة وحال انتهاء الصورة تلوت السمكة في الرمل ثم وثبت إلى جدول قريب .

واكتشف ما ـ تشن أنَّ في وسعه أن يرسم أي شيء . وما إن يتم الصورة حتى تدب فيها الحياة أمامه . واستخدم مهارته لمساعدة المعوزين في قريته . إذا أراد أحد جيرانه معزقة ليعزق الأرض ، رسمها له . وإذا احتاج جار آخر مصباح زيت ، أنتجه له . وكان من عادة اليتيم أن ينتج حتى الأعشاب الطبية لمن بلغوا من الإملاق والعوز حداً يعجزهم عن دفع أجر طبيب الأعشاب . وأحبه فقراء القرية واشتهر في المنطقة باسم ما ـ تشن قلم الرسم الخالد .

حين سمع أحد ملاك الأراضي المحليين الأثرياء بهذا القلم السحري أمر خدمه أن يحضروا ما ـ تشن إلى منزله . ولكنَّ ما ـ تشن عرف أن مالك الأرض الجشع كان يريد إساءة استعمال مهاراته لذا رفض أن يرسم . فعوقب بإلقائه في الاسطبل وأوصدت عليه الأبواب دون طعام أوبطانيات إلى أن يغير رأيه .

إلا أن القلم كان لايزال مخبأ في قميص ما ـ تشن ، فرسم مدفأة وبعض الفطائر وبثَّ فيها الحياة ليتسنى له أن يقيم أوده .

وعندما فاحت الرائحة الشهية في غرفة طعام مالك الأرض أمر خدمه بانتزاع القلم من الصبي . فاندفع عشرة من الخدم إلى الاسطبل ولكن ما ـ تشن كان قد صعد على السلم إلى السطح . وحين قفز الخدم على السلم اختفى تحت أقدامهم وسقطوا متكومين على الأرض . وحين أفاقوا من سقطتهم كان ما ـ تشن قد ولى الأدبار .

وراح اليتيم يعدو أياماً وليال بأكملها إلى أن وصل إلى بلدة نائية ذكرته

ببلدته. وحطَّ رحاله في كوخٍ لايبعد كثيراً عن السوق وطفق يقضي أيامه وهو يرسم على الـرمـل. وراح كلُّ ذاهب إلى السوق أو قادم منه يبديَ الإعجاب بمهـارتـه، ولكن ما ـ تشن كان يحـرص أشـدَّ الحـرص على عدم إتمـام أية صورة مخـافـة أن تدبَّ فيهـا الحياة وتنكشف هويته. فكان حين يرسم رجلاً يتعمد أن يترك إحدى يديه أو قدميه دون رسمٍ، وحين يرسم طائراً يتركه دون عينين وحين يرسم منزلاً يتركه دون أبواب.

وذات صباح وفيما كان منهمكاً في رسم كركي تجمع حشد ضخم من النـاس أمـام كوخـه. وحين استـدار ليشكـرهـم على إطـراءاتهم أسـط سهواً نقطتين من الحبـر الأسـود على رأس الطـائر. فدبت الحياة في الكركي وطار مبتعـداً. وانكشف سرُّ ما ـ تشن وقبـل مضيٍّ وقت طويـل كان الامبـراطور قد استدعاه للمثول بين يديه.

كان ما ـ تشن يأنف أن يرسم للامبراطور الجشع، لذا عندما طلب منه أن يرسم تنيناً رسم ثعباناً تلوى وبصق على الامبراطور. وعندما أمر أن يرسم العنقاء رسم غراباً فاحم اللون طار فوق الامبراطور وسلح على رأسه.

وهنـا ملَّ الامبـراطـور من ألاعيب اليتيم فخطف القلم منـه ليـرسم مايبتغي. رسم جبـلاً من اليـواقيت واليشب والعقيق والكهـرمـان والمـاس والبلُّور. وطفق يتـابـع الـرسم إلى أن أصبحت كومة الحجارة الكريمة أعلى من عرشـه. وحين رسم في نهـايـة المطاف ثروة كافية طرح قلم الرسم جانباً وألقى نفسـه على الحجـارة الكـريمـة. ولم يلبث أن أطلق صرخـة اشمئزاز ثاقبة، إذ ما إن لمس الحجارة الكريمة حتى استحالت إلى كومة من الأقذار الحيـوانيـة. لـم يكن في وسـع الامبـراطور أن يتنفس إلا بشق النفس فطفق يجـاهـد مستميتـاً للتخلص منهـا لاعنـاً ما ـ تشن كلمـا أفلح في استنشـاق

الهـواء. وعصب حراسـه أنـوفهم وأفواههم بالأوشحة لتجنب الرائحة المنتنة وسحبوا الامبراطور من الأقذار.

أمضى الامبـراطـور أربعـة أيـام وهـو يخلص نفسـه من الـرائحة التي تخللت جلده. وحين شفي أخيـراً استـدعى ما ـ تشن مرة أخـرى إلى غرفـة العرش. وقال له:

ـ هذه المرة سأدعك ترسم شيئاً يسر العين. ارسم لي مشهداً بحرياً أجلس وأتمتع به حين ينتابني السأم.

كان ما ـ تشن قد يئس من مغادرة القصر لذا امتثل لما أمر به، ورسم بحراً هادئـاً. سر الامـبراطـور وطلب أسـماكاً فرسم ما ـ تشن مئات الأسماك من جميع الأشكـال والأحجـام لتملأ البحـر. ولكن ذلـك لم يشبـع رغبة الامبراطور وأراد زورقـاً، لذا رسم ما ـ تشن زورقـاً خشبيـاً ضخـماً يتـمايـل فوق المـاء. فابتهـج الامبراطور وقفز إلى الزورق، إلا أنه كان يريد الآن ريحاً لتسوق الزورق. ومرة أخـرى امتثـل ما ـ تشن لما أمـر به. ولكن الامبراطور أراد المزيد من الرياح، لذا رسم اليتيم خمس هبـاتٍ من الـريـاح السود فوق البحر. بيد أن الهبات المرسومة كانت من القـوة بحيث تحولت إلى عاصفـة هوجـاء وأمطار جارفة راحت تضرب الـزورق إلى أن أوشـك على الغـرق. تشبث الامبراطور بالسارية وصرخ طالباً العون، لذا رسم ما ـ تشن شمساً ضخمة في السماء لتخفف من حدة العاصفة. ثم ولى الأدبار فاراً من القصر قبل أن يتمكن أي شخص من إيقافه.

وحـين اختفى ما ـ تشن اختفت العـاصفـة والبحـر أيضـاً، وألفى الامـبراطـور نفسـه يقعي في بركـة من الماء قرب عرشه. وخشي أن يكون لِما ـ تشن قدرةٌ على تدمـير سلطـانـه ونفوذه فسمح له أن يعيش ويسافر في أمانٍ في طول المملكـة وعـرضها. ومنذ ذلك الوقت والأثرياء يخشون ما ـ تشن، وطفق هو يعمل وسط الفقراء في قرى ومدن الصين.

الـراهـــب الـمـجـنـــون

قبل سنوات كثيرة كان ثمة مزارع يدعى تان ـ تا ـ هو يعيش في منطقة هانـغ ـ تشـو من أعمـال تشيـه ـ كيانغ . وكان قد ابتلي لسنوات كثيرة بمرض غريب سبب لمعـدتـه انتفـاخـاً بحيث كانت تتـورم أحياناً إلى حدٍّ يمنعه من الوقوف . ولم تترك أمه تان ـ تا ـ ليانغ أية عشبة طبي معروفة إلا وجربتها على مرِّ السنين دون جدوى فما من شيء كان من شأنه أن يشفي ابنها . وذات يوم زار المنزل بائعٌ جوالٌ ونصحها بزيارة تشي ـ كنغ ، وهو راهب غريب الأطوار كان يعيش بمفرده في معبد لنغ ـ ين قرب بحيرة تشيه ـ كيانغ الغربية . وقصَّ عليها قصصاً كثيرة عن قوى الشفاء الخارقة التي يتمتع بها هذا الراهب وسرد عليهـا بتفـاصيـل دقيقـة كيف شاهـد رجـلاً أعمى يشفى في أقل من دقيقة ، وامرأة محدودبة الظهر تنتصب مشدودة القوام للمرة الأولى منذ أربعين عاماً ، وساقاً مكسورة تشفى لحظة فرك الجزء المكسور منها بالمرهم . وتابع البائع الجوَّال سرد حكاياته إلى أن اقتنعت تان ـ تا ـ ليانغ بأنَّ في وسع هذا الراهب أن يشفي ابنها . وعلى الرغم من كبر سنِّها قامت بالرحلة التي تستغرق يومين إلى جبـل لنـغ ـ ين بمفـردها ، وتسلَّقت المنحدرات الصخريَّة المؤدية إلى

معبد لنغ ـ ين الجاثم فوق قمة الجبل. كان المعبد خرباً ورطباً ولكنها وبعد أن فتشت غُرفـاً كثيرة صادفت تشي ـ كنغ مستلقياً باسترخاء عند أحد الأعمدة، وهو يكبو ويدمدم لنفسه. على الرغم من أنها بقيت على مسافة منه أنهكتها روائح الخمر القوية التي كانت تفوح منه كلما تنفس. وفيما كان يغالب النعاس لاحظت أن رداءه الأحمر كان ممزقاً وملطخاً، وأن قبعته كانت ممزقة، وصندله المصنوع من القش مهترئاً. كان وجهه قذراً، وكانت البثور المتقيحة تغطي إحدى ساقيه. وبجانبه وضعت مروحةٌ من أوراق الأسل[1] وكان يستخدمها بين الفينة والفينة لطرد الذباب الذي كان يحطُّ على قروحه.

كانت تان ـ تا ـ ليانغ في قلق شديد على ابنها إلى حدٍّ أنها لم تبال بمدى القذارة والقرف التي كانت عليها حال الراهب، وجثت على ركبتيها بجانبه وتوسَّلت قائلة:

ـ أيها الخالد البشري أرجوك ساعدني.

إلا أن الراهب نخر رداً عليها واستدار على أحد جانبيه. وتابعت توسلاتها ومناشداتها لأكثر من ساعة من الزمن إلى أن ثاب أخيراً إلى حواسِّه، ونظر إليها بعينين غائمتين. فطفقت تان ـ تا ـ ليانغ تسرد قصة ابنها فيما جلس الراهب يتجشأ ويغمغم لنفسه.

وحين فرغت أخيراً من سرد قصتها الباكية، تثاءب تشي ـ كنغ وفرك معدته البدينة بيده. وتابع فرك لحمه القذر إلى أن شكل كرتين صغيرتين من الأقذار وضعهما على راحة يده وقدمهما إلى تان ـ تا ـ ليانغ. فتقهقرت المرأة المسنة في اشمئزاز. قال الراهب:

ـ لا تصدمي. هاتان الكرتان الصغيرتان هما العلاج الوحيد الذي يتوقف عليه شفاء ابنك.

---

١ ـ الأسل: نبات ذو أوراق اسطوانية طويلة. المترجمة.

وسلَّمها الكرتين الصغيرتين، وتثاءب وأخلد إلى النوم مرة أخرى.

وضعت تان ـ تا ـ ليانغ الكرتين في تنورتها وغادرت الراهب النائم. وعندما وصلت إلى البيت، وقدَّمت كرتي الأقذار لابنها رفض أن يبتلعهما، إلا أنها دفعتهما إلى حنجرته دفعاً. وشعر تان ـ تا ـ هو بالكرتين تنزلقان ببطء إلى معدته وتستقران على جدارها ثم تنفجران. وشعر وكأن معدته اشتعلت بالنيران وسقط في نوبة ضحك قبل أن يقع على الأرض مريضاً مرضاً عنيفاً. وتقيَّأ مجموعة من القرادات[٢] المائية كانت تعيش في معدته منذ أن كان طفلاً. وانهار تان ـ تا ـ هو على الأرض أخيراً ولكنه حين أفاق بعد عدة ساعات من ذلك كان قد شفي تماماً.

وغمر الابتهاج العارم تان ـ تا ـ ليانغ لشفاء ابنها فطفقت تنشر بين جيرانها خبراً عن بوذا حيٍّ يعمل في معبد لنغ ـ ين. وعلى الرغم من أن أناساً كثيرين جاؤوا ليزوروا تشي ـ كنغ كان دائماً يتصرف كشحاذ مجنون، يشرب بإفراط، ويأكل أيَّ شيء تقع عليه يداه.

وذات يوم اقترب تشي ـ كنغ من كوخ قشي كان غلامٌ صغيرٌ يبيعُ فيه الحلوى والفطائر الشهية ليعيل أمه المقعدة. كان الغلام نادراً مايغادر كوخه، ولم يكن قد سمع قطُّ عن «بوذا الحي».

تهادى تشي ـ كنغ نحو الغلام وتشمَّم الهواء في استمتاع وقال:

- يالها من رائحة رائعة. أريد أن أشتري عشراً من فطائرك.

أجاب الغلام وهو ينحني احتراماً لتشي ـ كنغ:

- أي شيء تريده.

ورفع الغلام غطاء وعاء التسخين وعرض مجموعته على الراهب،

---

٢ ـ القُرادة: حشرة تمتص دم الحيوانات عادة. المترجمة.

ودون أن يطلب منه ذلك غمس تشي ـ كنغ يده القذرة في القدر، وطفق يتحسس كل فطيرة قبل أن يختار عشر فطائر باللحم. وضع الغلام الفطائر في كيس صغير من القش وسلمها إلى الراهب. وقضم الراهب واحدة منها إلا أنه لم يلبث أن بصقها على الفور وفي اشمئزاز. وغمغم قائلاً وهو منتفخ الأوداج بالطعام:

ـ إنها مفعمة بالدهن. أعطني عشر فطائر بالخضار عوضاً عنها.

ولبَّى الغلام طلب الراهب بإنصياع وسلمه فطائر الخضار.

ومرة أخرى ملأ تشي ـ كنغ فمه منها وبصقها وهو يصيح قائلاً:

ـ هذه نفاية. أعطني فطيرة ببعض اللحم.

ودفع الراهب الغلام جانباً ومرة أخرى راح يتحسس بأصابعه كل فطيرة في وعاء التسخين إلى أن وقع اختياره على عشر فطائر باللحم كانت مقنعة. ثم دفع تشي ـ كنغ فطيرة بأكملها داخل فمه، وضغط الفطائر التسع الأخرى في جيب ردائه ومشى نازلاً الطريق. فصاح الغلام:

ـ انتظر لم تدفع ثمن أي شيء.

إلا أن الراهب تجاهله وتابع المشي. فصاح الغلام:

ـ انتظر! . . . لاتذهب! . .

وهرع نازلاً الطريق في إثر تشي ـ كنغ. وحين أدركه في نهاية المطاف وطلب منه أن يدفع ثمن الفطائر لم يلبث الراهب أن رفع يديه في ذهول قائلاً:

ـ ولكنني لا أدينُ لك بأيَّة نقود.

وكان يبصق الطعام في وجه الغلام وهو يتحدث، وتابع قائلاً:

ـ لقد استبدلت عشر فطائر باللحم بعشر فطائر بالخضار.

فأجاب الصبي غاضباً:

ـ ولكنك لم تدفع ثمن فطائر الخضار.

أجاب الراهب بنزق:

ـ كلا لم أدفع. وذلك لأنني أعطيتك فطائر اللحم بدلاً منها.

وأربكت إجابات الراهب الغلام وفيما راح يتفكر في منطقيتها، تهادى تشي ـ كنغ ونزل الطريق مسرعاً. وعندما أدرك الفتى أنه كان في طريقه إلى الفرار لاحقه وفيما راح يعدو خلفه سمع قصف رعدٍ صادراً عن الجبل الواقع خلفه. فاستدار ليلمح كوخه وقد دمره تيهور[٣] من الجلاميد ضرب الأرض بقوة جعلت الأرض تردد الدوي. وعندئذ فحسب أدرك الفتى أن الراهب قد أنقذ حياته عندما رفض أن يدفع ثمن الفطائر. وعندما استدار ليشكره كان الراهب قد غط في النوم تحت شجرة وإلى جانبه كانت ثمة فطيرتان نصف مأكولتين وقد غطّاهما اللعاب. فتح تشي ـ كنغ إحدى عينيه عند اقتراب الغلام، وأشار إلى الفطيرتين قائلاً وهو يتوق للعودة إلى النوم:

ـ خذ هاتين الفطيرتين وأعطهما لأمك. لاتبدِّد وقتك هنا.

ومرة أخرى أفلح علاج تشي ـ كنغ، إذ ما إن تناولت الأم الفطيرتين حتى شفيت تماماً. وحين سمعت قصة ابنها علمت أن أحد الخالدين كان قد ساعدهما، وراحت طوال الفترة المتبقية من حياتها تقدم القرابين اليومية للسماء.

---

٣ ـ التّيهور: كتلة ضخمة من الصخور تنهار على سفح جبل. المترجمة.

نهـــر مِـــنْ

قبلماينوف على ألفي سنة خلت كان إله نهري سيء المزاج يقيم في نهـر «مِنْ» حيث جعله موطنـاً له . وكـان كلمـا شعـر بالنزق أطلق الفيضانات التي كانت تدمـر جميـع المنازل المجاورة، وكلما غضب بشكل خاص قتل كل من كانـوا يتجـولـون قرب النهـر. ونشأ سكـان المنطقـة على استـرضائه بالقرابين الحيوانية، وبقي لفترة طويلة مقتنعاً بتلقي بقرة وخروف كل أسبوع .

وذات يوم خرج من المياه وطلب من القرويين بهدير جبار أن يقدموا له فتـاة جميلة . ووجـد سكـان المنطقـة وعلى وجـه السـرعـة أجمـل فتـاة في المنطقة، وزودوها بدوطة كبيرة وأنزلوها إلى النهر. قبل إله النهر الهدية ووعد أن يبقى هادئاً، ولكنه وبعد سنتين من السِّلم فقد مزاجه وأتلف حصاد القرية بفيضان من فيضاناته .

بعد مضي فترة لم تكن طويلة على هذه الكارثة عُيِّن والٍ جديد للقرية يدعى لي ـ بنـغ . وفي غضـون يوم واحـد من وصـوله تلقى أكثر من خمسين

شكوى عن إله النهر، وصعقه أن يكتشف أن القرية بأكملها كانت تعيش في خوف من الإله ذي المزاج الرديء.

وفي صباح اليوم التالي شدَّ لي ـ بنغ حزامه اليشبي الأبيض الرسمي حول خصره، وانطلق إلى النهر للتفاوض مع الإله. وتبعه حشد متلهِّف يسوده الاحترام إلى ضفة النهر، حيث تجمع أفراده في معبد إله النهر. والتقط الجميع أنفاسهم حين شاهدوا لي ـ بنغ يحمل قدحاً من الخمر إلى المذبح ويقدِّم نفسه دون وجل إلى الإله. وحين رفع لي ـ بنغ القدح إلى شفتيه، هبت ريح طفيفة عبر المعبد. وطفق المحتشدون يتراجعون، وسرت غمغمة بينهم مفادها أن إله النهر كان قد وصل. وازداد هبوب الريح، وبدأت المياه ترتفع، وأظلمت السماء، وانطفأت الشموع وعيدان الجُس، فتوارى القرويون خوفاً وراء أعمدة المعبد. وكان كل مايمكن رؤيته هو حزام الوالي اليشبي الأبيض البراق.

وعلى حين غرة تلاشت الريح وعادت الشمس إلى السماء وهدأت المياه. كان الوالي لايزال واقفاً دون وجلٍ أمام المذبح، وأطلق المجتمعون هتافات الإعجاب للرجل الذي تحلَّى بالشجاعة وواجه إله النهر.

وحده الوالي فحسب أدرك أن إله النهر كان لايزال موجوداً معهم إذ أن الخمر في القدح كان لايزال يتحرك. وأسكت لي ـ بنغ الحشد ورفع صوته قائلاً لإله النهر:

ـ يا إله نهر «مِن»! . . . لقد أحضرت سكان القرية ليتحدثوا إليك. إنهم يريدون أن يطمئنوا إلى أنك لن تحنث بوعدك مرة أخرى أبداً. ولديك حتماً من القوة والحكمة مايكفي لرؤية كم يعاني هؤلاء الناس عندما تسلِّط عليهم فيضاناً.

وعندما فرغ لي ـ بنغ من حديثه رفعت قوة خفية قدح الخمر من يديه

وألقته على الأرض. وتكسَّر القدح على الأرض الحجرية واختفى الوالي.

ودبَّ الهلع إلى قلوب المحتشدين فراحوا يتدافعون بالمناكب لينحشروا عبر باب المعبد الضيق ويلوذوا بالفرار إلى بيوتهم. بيد أنهم، وفيما كانوا يركضون على طول درب النهر عائدين إلى قريتهم، واجههم منظر وحيدي قرن خضراوين يتصارعان فوق ضفة النهر. كان قرنا الحيوانين متشابكين في المعركة. ولم يكن في وسع أي منهما أن يرغم الآخر على الاستسلام. كانت البقعة الخشبية التي كانا يتصارعان فوقها قد استحالت إلى طين، وكان كلٌّ منهما يدفع الآخر بكل مالديه من جبروتٍ في هذا الاتجاه تارةً وفي اتجاه آخر تارة أخرى. وأفلح أحد وحيدي القرن في حلِّ قرنهِ من قرن خصمه وركض إلى النهر ولكن خصمه طارده. ثم اختفى كلاهما معاً تحت سطح الماء، وعمَّ الهدوء النهر. كان القرويون قد بلغوا من الرعب شأواً منعهم من تفحص مياه النهر المعتمة، لذا تابعوا طريقهم.

وحين اقتربوا من القرية جاء لي ـ بنغ راكضاً نحوهم وهو يقطر ماء. وقال لاهثاً:

- إنني في حاجة إلى مساعدتكم. إن لإله النهر قوة هائلة وفي مقدوره أن يغيِّر هيئته متى شاء. لقد شاهدتمونا للتو نتصارع إلاَّ أن قوتي محدودة، لذا إذا هاجمني إله النهر مرة أخرى يتحتم عليكم أن تقتلوه. ولكن احذروا أن تقتلوني أنا خطأ إذ أننا متطابقان شكلاً. وإذا نظرتم عن كثب، سترون أنني أرتدي حزاماً يشبياً أبيض حول رجلي الخلفية اليمنى.

ولم يكد لي ـ بنغ يفرغ من حديثه حتى خرج وحيد قرن من الماء، وانطلق يعدو باهتياج نحو الحشد. فغير لي ـ بنغ هيئته على الفور فيما رفع الحراس سهامهم، وانهمك الحيوانان الجباران مرة أخرى في الصراع. وطفق كلٌّ واحد منهما يطرح الآخر أرضاً وبعنف، وتشابك جسداهما إلى

حدٍّ كان يصعب معه تمييز أي منهما عن الآخر. وسرعان ما بدأ أحدهما يضعف وبدأ الآخر القوي يثمنه بالجراح بقرنه. وحدَّد الحراس الآن هوية إله النهر وخرقوا جلده الغليظ بوابل من السهام. وتحوَّل الإله إلى شكله القديم وحاول أن يزحف عائداً إلى النهر إلاَّ أنه لفظ أنفاسه عند حافة الماء.

ومنذ ذلك اليوم لم تفض مياه نهر «مِنْ»» قطُّ، ولاتزال البقعة التي تصارع فوقها إله النهر والوالي تعرف باسم مصطبة وحيدي القرن المتصارعين.

الإلـهـة تِـنْـغ ـ لِنْـغ

قبل ألف وسبعمائة سنة خلت وفي زمن الولايات الثلاث عاش زوجان عقيمـان في بلدة هاي ـ لنـغ في مقـاطعة كيانغ ـ سو. كانا قد حاولا إنجاب الأطفال لسنوات كثيرة دون جدوى، وما إن قطعا الأمل من ذلك حتى حملت المرأة وأنجبت فتاة. فعاملاها على أنها هبة من السماء وسمياها «لؤلؤتهما الثمينة».

وعلّق سكـان القـرية على حسن طالع الزوجين لأن ابنتهما كانت أكثر ذكـاء ولطفـاً وكـرمـاً من أي طفـل آخر في القرية. وحين ترعرعت طفق موثّق الـزواج يزور منـزلهـا بانتظـام ومعه عروض للزواج، إلا أن الفتاة رفضت كل عرض للزواج معللة بأن والديها كانا قد بلغا من الكبر عتياً وأصبحا في حاجة ماسة إلى رعايتها لهما.

وذات شتـاء، وحين بلغ البـرد القـارس أشـده، أصيب والداها بذات الـرئـة وساءت حالتهما مع تقدُّم الشتاء وفيما تيقنت الفتاة من أنهما كانا على وشـك المـوت مرَّ بالبلدة كاهن طاويٌّ يدعى ليـو ـ كانـغ. توقف عنـد منزلها وطلب طعـامـاً وشـرابـاً. وما إن طفقت تسحب الماء من البئر وتعد زبدية من

الأرز حتى راح الكـاهن الطـاوي يراقبهـا باهتمـام . وعلم من حركـاتهـا وشخصيتهـا أن لديهـا من القـوة والـروح مايخوِّلها أن تكون طالبة لديه . وفي الـوقت الـذي فرغ فيـه من تنـاول الطعـام عرض عليهـا أن يكون مدرساً لها ووافقت على ذلـك . وأثبتت الفتـاة أنهـا طالبة نبيهة ، وأدهشت السرعة التي تعلمت بها السحر الطاوي الكاهن نفسه .

وفي غضـون أسبـوع كانت قد غدت خبيـرة في الممارسات الطاوية ، ومـع ازدياد مهارتها تحسنت صحة والديها . وفي غضون شهر كان والداها قد شفيا تماماً وكانت قد اكتسبت مهارة في ممارسة سحرها في النواحي الخيِّرة بين سكان القرية .

وبعد سنتين كان ليو ـ كانغ قد علَّمها كل ماكان يعرفه ، وتركها لتمارس سحرها على نحو حكيم . إلا أنه قبل أن يرحل أطلق عليها لقب الإلهة تنغ ـ لنْغ .

بعـد شهـر من رحيـل الكاهن الطاويِّ مرَّ رجلٌ فقير يدعى أه ـ تو ببلدة هاي ـ لنغ ، وتوقف بالمصادفة خارج منزل تنغ ـ لنغ متوسلاً طعاماً . كان أه ـ تو رجلاً مهذباً ومثقفاً وشرح للأسرة أن قطاع الطرق كانوا قد سرقوه قبل أكثر من سنـة ممـا اضطـره إلى تسـول الطعـام والمأوى منذ ذلك الوقت . وبدافع الشفقـة طلب منـه والـدا تنـغ ـ لنغ أن يبقى ، وقبل مضي وقت طويل كانا قد أرسلا في طلب موثق الزواج ليقوم بإجراءات الزواج بين أه ـ تو وبين ابنتهما . وافقت تنـغ ـ لنـغ على رغبـة والديها بامتعاضٍ شريطة أن يبقى في مقدورها أن تمارس سحرها .

كان لدى تنـغ ـ لنـغ القدرة على الظهور والاختفاء متى شاءت وكانت تختفي فجأة ، مرتين في اليوم على الأقل ، لتمارس سحرها في مكان ما من المقاطعة ثم تعود بالفجاءة نفسها التي اختفت بها . وكان أه ـ تو يطلب دائماً

تفسيراً من زوجته إلا أنها كانت ترفض الإفصاح عن المكان الذي انتهت إليه أو العمل الذي كانت تؤديه

وحين كانت تنغ ـ لنغ تتواجد في البيت كان دائماً يعجُّ بالناس الذين كانوا يطلبون العون، ومع انقضاء الشهور طفق أه ـ تو يحسد زوجته على شعبيتها. وصار إذا جاء الناس لزيارتها يخبرهم أنها منهمكة في عملها إلى حدٍ لايتيح لها أن تقابلهم، إلا أن تنغ ـ لنغ كان لديها القدرة أيضاً على الرؤية والسمع وعلى مسافات شاسعة فكانت تعود إلى الظهور في اللحظة التي يقول فيها زوجها ذلك.

ولم يلبث أه ـ تو أن سخط من تصرفات زوجته سخطاً جعله يحتجزها في غرفة النوم قائلاً أنه لاينبغي لأحد أن يقابلها، إلا أنها كانت تستخدم سحرها في اللحظة التي يوصد فيها الباب عليها، لتمر عبر جدار غرفة النوم وتتجول في البلدة.

وحين أدرك أه ـ تو أنه عاجز عن السيطرة على تحركات زوجته، صار يعمد إلى ضربها إلى أن امتلأ جسمها بالكدمات التي لم يكن في وسع حتى سحرها الطاوي أن يخفيها. وراح سكان البلدة يلعنون الرجل الذي آذى تنغ ـ لنغ. وبعد سنتين من زواجهما ذهب أه ـ تو إلى قاضي المقاطعة واتَّهم زوجته بممارسة السحر الشرير. وادَّعى أن مهارات زوجته الطاوية كانت دليلاً على شعوذتها، ولم يكن أمام القاضي إلاَّ أن يلقي القبض عليها ويحتجزها. ولم تستطع تنغ ـ لنغ إثبات براءتها إذ أن أي عمل سحري تقوم به سيساء تفسيره على أنه قدرة شريرة.

وفيما راحت تنغ ـ لنغ تقضي أيامها في السجن تفكر وتتأمل، سقط والداها مريضين من الأسى. وندما على اليوم الذي فتحا فيه أبوابهما لأه ـ تو.

وانقلب سكـان المقـاطعة ضد تنغ ـ لنغ ولكن أصدقاءها وجيرانها في هاي ـ لنـغ ظلوا على إخـلاصهم لهـا . ورفض أه ـ تو إطعام والدي زوجته، وراح ينفق أموال العـائلة في لعب القمـار والشـرب مع المتسـولين والغرباء الـذين كانـوا يمرون بالبلدة . ولم يكن يغادر منزله إلا تحت جنح الظلام لأن جيـرانـه كانـوا يرجمونه بالحجارة ويبصقون عليه كلما ظهر. وحين نفدت كلها هجر أه ـ تو والدي زوجته، وغادر بلدة هاي ـ لنغ في الخفاء مقسماً ألا يعود .

وفي هذه الأثناء كان حراس السجن قد تلقوا أوامر بعدم تقديم الطعام لتنـغ ـ لنـغ على أمـل أن ذلـك سوف يرغم الـروح الشـريـرة على مغـادرة جسمها . وكانت تعتمد كلية على الطعام الذي راح أصدقاؤ ها يهربونه إليها داخل السجن . وعلمت من رسالة أخفيت في كعكة من الأرز برحيل زوجها وموت والديها الوشيك .

فاستعـدت منـذ تلك اللحظة لمغادرة جسمها مع الاحتفاظ بروحها . وبـدأت ذلـك برفض تناول الطعام . وكانت كل يوم تدخل في غشية عميقة . ولم يكن في وسـع أي شيء يقـولـه الحـراس أو يفعلونه أن يوقظها من حالتها الشبيهة بالحلم .

وذات صباح دخل الحراس زنزانتها ومعهم إبريق من الماء، إلا أن تنغ ـ لنغ لم تكن هناك .

واستقطب اهتمـامهم صوت حفيف صادر عن نافـذة الـزنـزانـة، فاستـداروا ليلمحـوا عصفـورة خضـراء تنأى من خلال القضبـان الحديدية . كانت تنـغ ـ لنـغ قد غادرت جسمهـا إلى الأبـد إلا أن روحهـا كانت خالدة . وبعـد عدة أيـام من فرارهـا مات والداها بسلام، وصرَّح جيرانها أنهم لمحوا عصفـورة خضـراء تحوم حول المنزل . وفي الأسابيع التي تلت ذلك، وكلما شُفي شخصٌ من مرضٍ أو أُلقي القبض على مجـرم كان أنـاسٌ كثيـرون

يدعون أنهم شاهدوا عصفورة خضراء قرب المكان. وأدرك سكان المقاطعة مع مرور الأيام أن تنغ ـ لنغ كانت لاتزال معهم وستبقى معهم دائماً.

وشُيِّد معبد على سفح جبل خارج بلدة هاي ـ لنغ على شرفها، وبنت العصفـورة الخضـراء عشهـا في أحد جدرانه. كانت تنغ ـ لنغ تستريح هناك كل ليلة، بيد أنها كانت تسافر عبر المقاطعة بسرعة هائلة كلما دعت الحاجة إليها. وأشيع أنها شوهدت في مائة مكان مختلف في الوقت نفسه، ولم يكن أحد يجرؤ على ارتكاب جريمة لمعرفته بأنها ستحوم حول مكان الجريمة. وهذا ماجعل مقاطعة كيانغ ـ سو أكثر الأماكن أماناً خلال زمن الولايات الثلاث.

الثعلب الصغير وملك الرمَّان

كان مو ـ تاي رجلاً فقيراً يعيش بمفرده في ضواحي بلدة تدعى هسن ـ تشيانغ. وكان الشيء الوحيد المتبقي على قيد الحياة في رقعة الأرض الصغيرة الواقعة بجانب كوخه شجرة رمان كانت تحمل ثماراً ناضرة. وكان يحب هذه الشجرة ويتحدث إليها كما لو كانت طفلاً، فيوبخها إذا تأخرت براعمها في الظهور ويمتدحها عندما تحمل الثمار.

وكان مو ـ تاي يُحصي عدد الرمانات الموجودة على شجرته كل يوم، وذات خريف اكتشف أن رمانتين كانتا تختفيان كل مساء. فقرَّر أن يمضي الليل ساهراً ليكتشف السارق.

وذات مساء، حين كان القمر بدراً، لمح ثعلباً ينقِّب بين أغصان شجرة الرمان. فقام في المساء التالي بسكب دائرة من الغراء الشفاف حول قاعدة الشجرة وذهب إلى الفراش. وفي الصباح وجد الثعلب ملتصقاً بالغراء بقاعدة الشجرة وهو يعوي ألماً فيما كان يحاول في يأس أن يحرِّر مخالبه من الغراء. فأمسك مو ـ تاي الثعلب من أذنيه وهدد بقتله، بيد أن الحيوان

الداهية كان على أهبة الاستعداد لتقديم عرض لم يكن في وسع مو ـ تاي أن يرفضه، إذ قال في ثقة:

ـ إذا أطلقت سراحي فإنني أعدك بإيجاد أميرة تتزوجك.

إلا أن مو ـ تاي هزَّ الثعلب في شك. فتابع الثعلب قائلاً:

ـ أرجوك صدقني، وأنا أقسم لك أنك ستكون صهر امبراطور قبل نهاية الشهر.

أغرى عرض الثعلب مو ـ تاي، فحرَّره من الغراء، ومنحه مهلة أسبوع ليفي بوعده. وانسلَّ الثعلب إلى وكره ليرسم خطة.

وبعد عدة أيام سرق الثعلب ملابس أحد الحراس فارتداها وسرح ذيله بالفرشاة، ثم انطلق لزيارة امبراطور عجوز كان يحكم مملكة قريبة. وتمكَّن الثعلب، بما لديه من قدرة على الإقناع، من الحصول على إذن بمقابلة الامبراطور، وقدَّم نفسه على أنه كبير حراس ومستشاري الامبراطور مو ـ تاي.

وقص الثعلب على الامبراطور الساذج كيف رأى آلاف اللآلىء وحبَّات العقيق الأحمر واليواقيت مبعثرة في التربة في حدائق قصر مو ـ تاي، وأنه يرغب في استعارة منخل من المملكة المجاورة. تأثر الامبراطور العجوز بمظهر الثعلب ولغته المنمقة وقدم له منخلاً ضخماً مصنوعاً من خشب السنديان.

وفي تلك الليلة تسلل الثعلب خلسة إلى قصر الامبراطور وسرق حفنة من اللآلىء من الخزينة. وعاد إلى القصر بعد يومين ووضع المنخل على الأرض أمام الامبراطور. وفيما كان يضعه أسقط عمداً ثماني لآلىء داخل المنخل. وحين وضع خدم القصر المنخل بين يدي الامبراطور تدحرجت اللآلىء إلى حضنه. تأثر الامبراطور أيَّما تأثر بنوعيتها الشفافة، فما كان من الثعلب إلا أن قدمها هدية له وهو يقول:

- لديَّ كمية وافرة منها. إنَّ هذه اللآلىء صغيرة للغاية بالمقارنة مع اللآلىء الأخرى ولهذا لم أنتبه إليها.

فكَّر الامبراطور بكلمات الثعلب بضع دقائق ثم همس في أذن وزير من وزراء البلاط كان يقف إلى جانبه. وأخيراً نزل الامبراطور عن العرش وتنحَّى بالثعلب جانباً وأسرَّ إليه قائلاً:

- إنني أشيخ يوماً إثر يوم وأنا في غاية القلق على ابنتي العازبة. هل تقبل دور الخاطبة بين ابنتي وبين امبراطورك؟؟

وافق الثعلب في سرور وطمأن الامبراطور قائلاً إن الامبراطور مو - تاي سيكون النِّد المناسب لابنته. ووعد أن يعود في الأسبوع التالي من أجل طقوس الزواج، وغادر بعد أن قام بانحناءة متباهية وحركة مائلة من ذيله. تلقى مو - تاي أخبار الثعلب بمزيج من الابتهاج والقلق. لم يكن لديه مايقدمه للأميرة من مقتنيات، بل لم يكن لديه حتى بذلة أو حذاء يرتديهما. فطمأن الثعلب مو - تاي قائلاً إن كلَّ شيء سيكون على مايرام، وأمره أن يكون على أُهبة الاستعداد لرحيلهما إلى المملكة المجاورة في غضون أسبوع.

وبعد أسبوع وصل الثعلب إلى منزل مو - تاي وهو يحمل بطانية، وقاد العريس إلى قصر الامبراطور العجوز، وقبل أن يصلا إلى بوابات القصر أمر الثعلب مو - تاي أن يقفز إلى بحيرة قريبة. وفعل مو - تاي كما طلب الثعلب، وحين خرج من الماء المتجمد رمى الثعلب ثياب مو - تاي الممزقة ولفَّه بالبطانية. وما إن فرغا من ذلك حتى تابعا المسير إلى القصر وقدَّما نفسيهما إلى الامبراطور.

وفيما كان مو - تاي يقف مرتعشاً ونصف عار أمام الامبراطور صرَّح الثعلب قائلاً باعتزاز:

- يا صاحب الجلالة. أحضرت لك الامبراطور مو - تاي. لقد مررنا بمحنة لايصدِّقها العقل إذ كنا في طريقنا إلى مملكتك ومعنا أربعون جملاً محملاً بالحرير والحجارة الكريمة، وعندما حاولنا عبور النهر الموجود خارج قصرك انهار الجسر، وغرقت الجمال، وحمل التيار هدايا الزواج لكننا لحسن الحظ نجونا.

تأثر الامبراطور حين فكر بالجمال الأربعين المحمَّلة بالبضائع النفيسة، وأمر خياطيه أن يلبسوا مو - تاي أجمل الملابس. وفي ذلك المساء تزوج مو - تاي والأميرة واحتفلا بارتباطهما في مأدبة فاخرة. إلا أن مو - تاي كان قد بلغ من القلق شأواً جعله لايقوى على تناول الطعام إلا بشقِّ النفس، وفي غفل عن الآخرين انفرد بالثعلب وقال له:

- من أجمل الأمور قاطبة أن يتزوج المرء أميرة ويخاطبه الآخرون كامبراطور، ولكن ماذا سيحدث عندما تأتي إلى بيتي وتكتشف فقري؟؟

فسرَّى الثعلب عنه، وطلب منه أن يتمتع بهذه الأبهة التي لم يعهدها من قبل. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي ومع انتهاء المأدبة غادر العروسان القصر متوجهين إلى بيت مو - تاي تصحبهما قافلة من الخيول والحمير والعربات المُحمَّلة بخدم الأميرة ودوطتها.

ومرة أخرى استبد القلق بمو - تاي إلى حد جعله لايتحدث مع عروسه إلا نادراً، وحين نادى الثعلب لم يتلقَّ رداً.

وفي هذه الأثناء كان الثعلب قد جرى أمام القافلة مسافة كبيرة وقابل مجموعة من التجار المسافرين ومعهم ثلاثون جملاً. فركض إليهم والخوف في عينيه وأشار إلى الطريق في اتجاه القافلة وهو يصيح قائلاً:

- إنَّ عصبة من اللصوص قادمة من هذا الطريق فإذا لم تنقلبوا عائدين من حيث أتيتم ستقتلون.

فحدَّق التجار عن بعد، وشاهدوا سحب الغبار التي أثارتها حوافر الخيول تتلاطم في الهواء. فعرفوا أن الأوان قد فات للفرار لذا التفتا إلى الثعلب طالبين العون. فأشار الثعلب عليهم قائلاً:

- ثمة طريقة واحدة فقط لتنجوا بأرواحكم. عندما يمرُّون بقربكم يجب أن تنحنوا وتقولون أنكم تحت إمرة الامبراطور مو- تاي.

وذهل مو- تاي حين انحنى التجار إجلالاً لدى مرور القافلة بهم. وكان الثعلب قد قابل الآن فريقاً من الرعاة وخيولهم على مسافة بعيدة فأعاد على أسماعهم قصة اللصوص بالصوت المذعور نفسه. وشاهد الرعاة سحب الغبار حين دنت القافلة وطلبوا العون أيضاً من الثعلب، فقال:

- أعتقد أنكم ستنجون بأرواحكم إذا انحنيتم أمام اللصوص وقلتم أنكم سائسو خيول الامبراطور مو- تاي.

وفعل الرُّعاة كما طلب الثعلب منهم، وتأثرت الأميرة بولاء مواطني زوجها. وذهل مو- تاي حين راح يتلقّى الاحترام نفسه من جميع من مرَّ بهم مزارعين كانوا أم تجار أم متسولين.

كان الإعياء قد أنهك الثعلب من جراء الركض طيلة النهار حين لمح قصر شيطان منحوتاً على منحدر جبل قريب من بيت مو- تاي. فانسلَّ ماراً بالحراس ويمَّم شطر غرفة نوم الشيطان. كان الشيطان قد غط في النوم لتوه حين وثب الثعلب على فراشه وسحبه إلى الأرض صائحاً في يأس:

- أنقذ نفسك ياصاحب الجلالة. إن مئات اللصوص تهاجم قصرك الآن وأنا أتحدث إليك. لقد أقسموا على قتلك. وعليك أن تختبىء هنا في هذا الحيز الواقع خلف مدفأتك.

وفيما راح الشيطان يحشر نفسه في المخبأ الصغير الكائن خلف المدفأة، طفق الثعلب يكدِّس زنود الخشب على النار. فتأججت مضطرمة

ممّا حدا بالشيطان إلى التماس الرحمة. وتابع الثعلب تذكية النار الهادرة إلى حدٍّ أن الشيطان أغمي عليه، وشيئاً فشيئاً شوي حياً. ثم ذرَّ الثعلب الحاذق رماد الشيطان من النافذة وراح يختال في القصر معلناً موت الشيطان الامبراطور ووصول حاكم جديد. أعد خدم القصر الغرف للترحيب بالزوجين الجديدين. وغدا مو-تاي الامبراطور الجديد، وعيَّن الثعلب رئيساً لوزرائه. وبعد شهور من الحكم الحكيم والرؤوف نشأ مو-تاي وزوجته على حُبِّ خدمهما وحكما بسلام لسنوات كثيرة. إلا أن الامبراطور كان، وقبل اتخاذ أية قرارات، يستشير الثعلب الذي لم يخفق قط في إسداء المشورة الذكية.

وبعد عشر سنوات من العيش في القصر توفي الثعلب، وصرح مو-تاي بأن أعز أصدقائه يجب أن يكون حاضراً في الذاكرة على الدوام. فصنع من فراء الثعلب الذهبي قبعة أحبَّها الناس في جميع أرجاء هسن-تشيانغ حباً جماً دفعهم إلى الاقتداء بالعمل نفسه كلما مات ثعلب. وهذا هو سبب شهرة سكان هسن-تشيانغ بقبعاتهم المصنوعة من فراء الثعالب إلى يومنا هذا.

بحيـرة بي ـ هــوا

يجـري نهـر فسيـح عبر مدينة تشي ـ كوان الصاخبة . ويقال أنه خلال فتـرة حكم أسـرة تانـغ كانت ضفـافـه مكتظة بالمتاجر والمنازل ، وأن فتيات البلدة العازبات كن ينزلن إلى الماء كل يوم ليغسلن ملابسهن . وذات أصيل قدم رجـل إلى النهـر وهو يركض حاثّاً الفتيات على المجيء ومشاهدة راهب غريب المظهـر كان قد وصـل لتـوه إلى البلدة . فأنهت الفتيـات وعلى جناح الســرعــة ضرب ملابسهن على الصخــور وحـزمنهـا في سلال من القش ، تدفعهن إلى ذلك اللهفة إلى رؤ ية هذا الغريب الفريد .

وبقيت فتـاة واحـدة فحسب قرب النهـر . إذ ماكان لأي قدر من الحث أن يقنع جنغ ـ تشينغ على ترك غسيلها إذا لم يتم على أكمل وجه .

وشقّت رفيقـاتهـا ط يقهن نحـو البلدة إلا أنهن سرعـان ماتـوقفن حين شاهـدن طيف الـراهب الغريب قادماً نحوهن . فانكفأن في رعب ، فيما كان يشق طريقـه بصمت نازلاً إلى النهـر ، دون أن يعيـر انتبـاهـاً إلى الهمسـات وعبـارات التعجب المغمغمـة . انكمشت الفتيات خوفاً عندما شاهدن وجهه المتجعـد المليء بالنـدوب ، وقـدميـه المتقـرحتين ، ورداءه الممـزق الذي

أحـالت الشمس لونـه . جثى عنـد حافـة المـاء ، وكـور يديه معاً ليشرب من النهـر . وجعلت الـرائحـة المنتنـة المنبعثـة من جسـده الفتيات يتراجعن في اشمئزاز . ووحدها جنغ ـ تشينغ لم تتراجع . وحين التمس الطعام منهن أدرن له ظهـورهن ، إلا أن جنـغ ـ تشينـغ عرضت عليـه أن تستضيفـه في بيتهـا . وحـاولت صديقـاتهـا إقنـاعهـا بعـدم الاقتـراب من الراهب ، غير أنها شقت طريقها عبر الجموع ، وطفقت تقوده عبر شوارع البلدة الضيقة والمظلمة .

وقـامت بطهـو وجبة بسيطة من الفاصولياء والأرز التهمها الراهب بنهم دون أن يشكـرهـا . ولم يكـد يفـرغ من تنـاولهـا حتى طلب فراشاً فقدمت له فراشهـا دون تردد . وفي الصبـاح طلب الراهب طعاماً مرة أخرى ، فقدمت له ما تبقى لديها من الأرز . وفيما راح يتناول الطعام في هدوء ، مضت إلى غرفة النـوم ونـزعت ملاءة السـرير التي امتلأت بالدم والقذارة من جسد الراهب . وحين طوتها في سلة غسيلها سألها الراهب فيما إذا كان في وسعها أن تغسل ملابسـه أيضـاً . ولم يطاوعها قلبها على الرفض . وحين حزمت رداءه سقطت على ثوبهـا قشـور من الجلد الجاف ، ووثبت البراغيث إلى وجهها وشعرها ، إلا أنهـا أدركت أن ماكـان يتحتم عليهـا هو حمل الرداء لمدة دقيقة بينما كان الـراهب ملزمـاً بارتـدائـه طوال الوقت . وفي طريقهما إلى النهر بقيت فتيات الغسيـل الأخـريـات على مبعدة من جنغ ـ تشينغ والراهب ، إلا أن الفضول دفعهن إلى اللحـاق بالاثنين نزولاً إلى حافـة المـاء . ومـا إن أنـزلت جنـغ ـ تشينغ الرداء إلى الماء حتى استحال على نحو غامض إلى لون أبيض براق . فتحلق الحشـد حولهمـا لرؤ يـة القـوة أو السحر الكامنين في الرداء . وفركت جنـغ ـ تشينـغ الـرداء الأبيض بين يديهـا ، فظهـرت زهـرة لوتس على سطح المـاء . وفـركت الـرداء مرة أخرى فظهرت زهرة لوتس أخرى . وراحت تتابع فرك الرداء والجمع يراقبها في انذهال مصعوق إلى أن تشكل درب طويل من

أزهـار اللوتس الطـافيـة امتد إلى بحيرة ـ بي ـ هوا عند نهاية النهر. وصاحت إحدى الفتيات وهي تركض نحو الماء لتلمس الرداء:

ـ إنه لرداء سحري لايقدر بثمن.

إلا أنـه طار من يدي جنـغ ـ تشينـغ وحـطَّ عنـد قدمي الراهب قبل أن تصـل إليـه. وانحنى الـراهب ورفـع الـرداء، ولفه حول جسده، وما إن مسَّ جلده حتى اختفت بثوره وقروحه كلها.

وشـع نور ذهبي الآن من جسـد الراهب، وابتسم لجنغ ـ تشينغ امتناناً فيمـا كانت الـريـح ترفعه إلى السماء. وحين لمحت فتيات الغسيل الراهب آخر مرة كان يقف على غيمة بيضاء، فأدركن أنهن كـن قد سخرن من خالد متنكر.

وكوفئت جنغ ـ تشينغ بمباركة الخالدين ولم تلبث بعد مضيٍّ وقت لم يكن طويلاً أن قابلت وتزوجت رجلاً أميناً وحكيماً. وحين انتشرت الأنباء عن حُسن طالعها، أصبح هذا القسم من النهر مكاناً شعبياً يتم فيه عقد القران. وإلى يومنا هذا، يعرف هذا النهر باسم نهر الغسيل، وتطفح بحيرة بي ـ هوا بأزهار اللوتس. وفي كل عام، في اليوم التاسع عشر من الشهر الرابع، يأتي مئات من الناس إلى البحيرة ليبحروا على زوارق مزخرفة أثناء الاحتفال بزهرة هوان تخليداً لذكرى جنغ ـ تشينغ والخالد.

جُـزُرُ الـخـالـديـن

قبـل آلاف مضت من السنين كان الخـالـدون يعيشون بسعادة وسلام على خمس جزر كانت تطفـو فوق سطـح البحر الشرقي . كانوا يرشفون ندى الصبـاح ، ويتناولون أطايب الثمار السماوية ، ويسكنون قصوراً من اليشب. وبمـا أنهم كانـوا خُلواً من الأعمـال والهمـوم فقـد كانـوا يمضون أوقاتهم في الزيارة، زيارة كل منهم للآخر، أو في السفر على الغيوم عبر السماء.

وكـانت المـرة الوحيدة التي تجادل فيها كلٌ منهم مع الآخر هي عندما قطعت العواصف عليهم وجودهم الشاعري . وكان الماء يغمر الجزيرة حين تضرب البحر الأعاصير أو الرياح العنيفة الماطرة. وكان يتحتم عليهم إذ ذاك أن يطيـروا إلى السمـاء بحثـاً عن الأمـان ، والمكـوث فيهـا إلى أن تخمـد العـاصفـة. وكان من المألوف أن تنقضي عدة أيام قبل أن يعودوا إلى ماكانوا عليه بعد إحدى هذه الكوارث ، بل فترة أطول حتى ليجدوا الجُزر التي كانت تتبعثر عبر البحر الشرقي .

ذات مسـاء ، وبعد إعصار قاسٍ على نحو استثنائي ، قدَّم الخالدون التمـاسـاً إلى امبـراطـور اليشب لإقناع إله البحر بتثبيت جزرهم بقاع البحر.

وحين تلقّى إله البحر أوامره بذلك من امبراطور اليشب، سبح في طول البحر الشرقي وعرضه بحثاً عن مخلوقاتٍ في وسعها القيام بذلك العمل. وكان البحث بلا طائل، إلا أنه حين عاد إلى قصره هبط عليه منظر السلاحف الحرس بالوحي، فأمرها بربط الجزر بظهورها. وما إن أخذت السلاحف أماكنها، وثُبِّتَتِ الجزر بتروسها، حتى أصبح من المتعذر على أي شيء أن يقتلعها من مكانها، وشعر الخالدون بالرضى والاطمئنان. وبعد عدة سنوات من السكون لاحظ الخالدون أن جزرهم معرضة للهزات الأرضية، فقدموا التماساً مرة أخرى إلى امبراطور اليشب طالبين العون. وحين طلب امبراطور اليشب من إله البحر تفسيراً لذلك أخبره أنَّ السأم بدأ يساور السلاحف بعد جلوسها ساكنة لفترة طويلة جداً، وأصبحت في حاجة إلى تحريك أجسامها. واهتدى إله البحر إلى حلٍّ، وطلب من السلاحف أن تتحرك إلى جزيرة جديدة مرة كل سنة. فوافقت السلاحف، وتنعَّم الخالدون بهدوء نسبي لمدة ثلاثة آلاف سنة.

وكانت سلالة من العمالقة تُعرف باسم لنغ - بو - كو وتعيش في الجانب البعيد من الجزيرة الواقعة إلى أقصى الشرق. حين كانوا يقفون، كانت رؤوسهم تمسُّ السماء، وحين كانوا يمشون كانت آثار أقدامهم تخلِّف تجاويف عميقة في الأرض. وكانت خطوة واحدة من خطواتهم تعادل عدد الخطوات التي يمكن أن يخطوها بشريٌّ طوال عمره.

وكان العمالقة يعيشون بسلام دائم مع الخالدين ومع السماء، إلا أن عملاقاً شاباً فصل عُرى انسجام الجزر، إذ قرر أن يمضي يوماً في صيد السمك فجلس على الصخور الكائنة فوق الماء ليتسنى له أن يرى منظر قاع البحر بوضوح. كان البحر في الصباح خالياً، إلا أن العملاق لمح عند الأصيل السلاحف وهي تقوم بتمارينها السنوية.

فألقم خيطه بطعم، وحين جاهدت السلاحف الجشعة لتأكل مقادير

السمك الطازج الموجودة على خيطه، طافت الجزر على سطح البحر. وكان العمـلاق لايكـاد يسحب إحـدى السـلاحف إلى الشـاطىء حتى تظهـر السلحفاة الأخرى على السطح منتظرة الطُعم. وفي غضون ساعة من الزمن كان العمـلاق قد أمسـك بالسلاحف الخمس كلها، وعلَّقها رأساً على عقب في العمود الذي يحمل الصيد عليه.

في تلك الليلة ضرب الجـزر إعصـار أهـوج اقتلعها من الماء وأرسلها لتتخبـط عبـر المحيـط. حملت الـريـاح جزيرتين منها إلى القطب الشمالي فغـاصتـا إلى قاع الحيـط، وقذفت الجزر الثلاث الأخرى إلى أبعد ركن من البحـر الشـرقي. واستشـاط الخالدون غيظاً لطيش العملاق، ولاذوا بالغيوم إلى أن خمد الإعصار. وحين توقفت الرياح، كانت جزرهم قد اختفت عن الأنظـار تمـامـاً. فطـاروا إلى امبـراطـور اليشب ليبوحوا بشكواهم واستجمع امبـراطـور اليشب أقـوى قدراته السحرية وقلَّص كل عملاق من شعب لنغ - بو - كوو كعقوبة على طيش العملاق. كان في وسع العمالقة في لحظة ما أن يلمسـوا الغيـوم، فلم يلبثـوا أن صار الـواحـد منهم لايـزيـد طولاً عن شجرة صنوبر، وهذا ماآلت إليه حالهم إلى الأبد.

وفي هذه الأثنـاء، كان إلـه البحـر قد أفلح في استـرجـاع ثلاث من الجـزر، فأمـر ثلاث سلاحف أخرى أن تدعمها إلا أنها مُنعت إلى الأبد من الحركة مرة أخرى. ومرة ثانية عمَّ الهدوء كل شيء في البحر الشرقي، بيد أن الخـالـدين رفضـوا العـودة إلى بيوتهم، فحزموا حقائبهم وتناثروا عبر السماء والأرض حيث كان في مقدورهم العثور على أماكن أكثر هدوءاً.

ولم تتحـرك الجـزر الثـلاث في البحر الشرقي منذ الإعصار الفاجع. ويروي البحـارة الـذين يضلُّون طريقهم في البحـار المجهـولـة أنهم شاهـدوا ثلاثـة جبال غامضة تبر ز عبر ضباب الصباح، إلا أنهم لم يفلحوا في الوصول إليها قط.

في فـــم الأســـد

كان وانـغ ـ تشنـغ وأخـوه الأصغر وانغ ـ هسايو يعيشان في بلدة صغيرة في الصين الجنوبية. لم يكونا صديقين حميمين قط، إلا أنهما كانا مرغمين على اكتساب زرق مشترك من قطعة أرض صغيرة أورثهما إياها والداهما بعد موتهما. كان وانغ ـ هسايو كريماً بقدر ما كان أخوه أنانياً، وشاءت الأقدار أن يتـزوج وانـغ ـ تشنـغ امرأة لاتقل عنه قسوة وفظاظة. وكانت الزوجة الجديدة تشمئز من أخ زوجها، وتنتظر الفرصة لطرده من بيتها. وذات يوم، كسر وانغ ـ هسايو فنجان شاي، في غمرة إنهاكه من العمل في الحقول، فاهتبلتها زوجة أخيـه فرصـة لتأمـره بمغادرة المنزل. وقدَّم له أخوه وانغ ـ تشنغ معزقة خشبية وفراشاً رقيقاً من القشِّ كهدية فراق.

وطفق وانـغ ـ هسـايو يمشي، متأبطاً ممتلكاته الدنيوية هذه، عدة أيام عبـر قرى ومـدن كان قد سمـع عنهـا ولكنـه لم يرهـا من قبل قط، وفي الليلة الخامسة صادف شقة من الأرض مهجورة وغير مأهولة، وكان ثمة معبد خرب في مركزها غمرت الأعشاب أرضيته التي كانت مصقولة. فتوجه نحو المعبد بعـد أن خامـره اليأس في العثور على مكان يمضي الليل فيه. كانت جدران

المعبد متفتتة ويمكن رؤية السماء من سقفه المتفسخ، إلا أن أسداً منحوتاً على نحو دقيق كان ينتصب في الساحة نظيفاً وأنيقاً كما كان يوم نصب هناك. فاعتبر وانغ ـ هسايو هذا الأسد بشير خير وقرر أن يجعل من المعبد بيتاً مؤقتاً له.

اشترى بمبلغ صغير من المال كان قد اقترضه من أحد المرابين ما يكفي من الحبوب لزراعة الأرض المحيطة بالمعبد، وكان ينصب الأشراك للحيوانات ويقتطف الثمار البرية ريثما تنمو محاصيله. وكان يمضي نهاره في العمل، ومساءه في الجلوس بمفرده على عتبة باب المعبد. لم يكن أحد يزوره، وكان من ناحيته يتجنب سكان القرية. وبدا وكأن الأسد الحجري الذي يحرس المعبد هو صديقه الوحيد، وفي غمرة وحدته أنشأ صداقة من جانب واحد مع الأسد. فبنى له ملجأ من القصب وراح يقدم له القرابين كل صباح. وكان كل مساء يجري محادثات طويلة مع هذا الأسد الذي كان يجلس هادئاً ومزهواً إلا أنه مع ذلك كان يبدو وكأنه يصغي.

وذات مساء صيفي رطب جلس وانغ ـ هسايو كعادته يناقش أمر محاصيله مع الأسد فيما كان يهوي وجهه بمروحة. قال:

ـ يا أسدي الحجري، إنك لاتعرف كم أنت محظوظ. ففي وسعك أن تجلس هنا طوال اليوم دون هم في العالم بينما أرهق نفسي في الحقول. وحتى الآن، وبعد أسابيع العمل هذه كلها، لاأزال أجهل فيما إذا كانت محاصيلي ستغلُّ عليَّ حصاداً حسناً.

وكعادته كان الأسد يصغي إلا أن وانغ ـ هسايو لم يزد على ذلك، بل اكتفى بالجلوس عند قدمي الأسد منهمكاً في التفكير. وعلى نحو لاتدركه الحواس طفقت الأرض تهتز، ومابدأ كهزة طفيفة تحول إلى قعقعة. فتسلَّل وانغ ـ هسايو إلى مخبأ الأسد وقد خامره الخوف من أن عاصفة توشك أن

تهب، وتكوَّم عند جسده البارد. وقال صوت عميق تناهى من فوق رأسه:

ـ لاتقلق. سأحميك.

فصاح وانغ ـ هسايو في ارتياب:

ـ كيف يمكن لك أن تتحدث؟؟ أنت منحوت من الحجر!!

فأمره الأسد قائلاً:

ـ لقد قلت لك لا تقلق ولاتطرح أسئلة. ضع يدك في فمي وخذ كل ماتجده هناك.

وفعل وانغ ـ هسايو كما طلب منه وأخرج كتلة من الفضة، وشكر الأسد شكراً جزيلاً.

فزأر صديقه قائلاً:

ـ لاتشكرني. ثمة المزيد المزيد في فمي. فتقدَّم وخذ قدر ماتشاء.

فمدَّ وانغ ـ هسايو يده مرة أخرى داخل الفم الحجري وأخرج حفنة من الذهب والفضة. ووضعها بعناية في كيس من الخيش كان عند قدميه. وترك الأسد فمه فاغراً بحيث يتسنى لوانغ ـ هسايو أن يأخذ المزيد من النقود، إلا أن الغلام اكتفى بما كان قد أخذه.

وأراد وانغ ـ هسايو أن يشاطر أخاه حظَّه الحسن، فانطلق عائداً إلى البيت في رحلة طويلة. حين وصل منزل أخيه. كان في غاية الانفعال إلى حدٍّ أنه اندفع إلى داخل المنزل دون أن يطرق الباب وأفرغ كيس الذهب والفضة على الأرض. ولم يكد يفرغ من سرد قصته عن الأسد الحجري حتى أمسك أخوه بتلابيبه في غلظةٍ وطلب أن يعرف مكان وجود المعبد. ولم يكد وانغ ـ هسايو يفرغ من الحديث حتى هرع وانغ ـ تشنغ خارجاً من المنزل واختفى في عتمة الشوارع المتعرجة.

مرَّ عبر قرى ومدن غير مألوفة كما كان أخوه قد فعل من قبل، وفي

الليلة الخامسة وصل إلى بقعة المعبد. فهرع إلى داخل الساحة، وقد استبد به الجشع إلى الإثراء، وصاح بالأسد الحجري قائلاً:

- افتح فمك. افتح فمك.

إلا أن الأسد بقي جامداً. فالتقط وانغ - تشنغ قطعة صغيرة من الصخر كانت قرب سور المعبد، وقذفها إلى فم الأسد بعنف. زأر الأسد متألماً عندما ضربت الصخرة جانب وجهه، وحين فتح فمه أقحم وانغ - تشنغ ذراعه في أعماق فم الأسد. أخرج النقود قبل أن يتاح للأسد أن يغلق فكّيه.

وفيما كان وانغ - تشنغ يحكم إغلاق كيسه الأول أتيح للأسد أن يتكلم أخيراً فزمجر قائلاً:

- لقد أخذت مافيه الكفاية. لا أستطيع إبقاء فمي مفتوحاً إلى الأبد، ولديك من النقود مايكفيك طوال عمرك.

ولكن وقبل أن يتمكن الأسد من إغلاق فمه أقحم وانغ - تشينغ ذراعه مرة أخرى في داخله. وكان أن أطبقت أسنان الأسد هذه المرة على ذراعه بإحكام، وحاول أن يسحبها بجهدٍ جهيدٍ إلا أن الأسد أبى أن يرخي فكيه. فصاح وانغ - تشنغ وصرخ طالباً العون، إلا أن صرخاته تبدَّدت في عويل الريح التي هبَّت فجأة. وسرعان مااكفهرت السماء بسحب المطر، وراحت خيوط البرق تضيء ساحة المعبد كل بضع دقائق. وحين شبت العاصفة أخيراً، هطل المطر بغزارة إلى حد راح يتدفق فيه من مزاريب المعبد ويشكل أنهاراً صغيرة عبر الأرض. وفيما كان وانغ - تشنغ يتشبث بكيس نقوده بيده الطليقة يجاهد لتحرير يده الأخرى من فكي الأسد شاهد الكيس يتضاءل في الحجم حين انتقع بالماء فتولاه الرعب. كان المطر يذيب الذهب والفضة كالأحماض، بحيث راحت تتلاشى في جداول الماء التي طفقت تحيط به.

وخمـدت العـاصفـة، وأرخى الليـل سدوله، إلا أن الأسد لم يبد أي مظهر من مظاهر التعب. وانقضى أسبوع قبل أن تتمكن زوجة وانغ ـ تشينغ من العثـور على زوجهـا وقـد هدَّ كيـانه الإعياء فانهار على جسد الأسد ويده محتجـزة بإحكـام في فمـه. وراح الأسد يصغي بجمود إلى وانغ ـ تشنغ وهو يسـرد على زوجتـه كيف وجـد النقـود وكيف فقـدها، إلا أنها وقبل أن تسمع القصـة كاملة التقطت حجـراً من الأرض وقـذفتـه على رأس آسـره. وتفتت الحجـر إلى شظـايـا صغيـرة عنـدمـا أصـاب رأس الأسـد إلا أن الحيوان لم يجفل. فصاح وانغ ـ تشنغ قائلاً لزوجته:

ـ لا تفعلي ذلـك. إنـك لن تزيديه إلا إصراراً على سجني هنا. وفي وسعه أن يسحق عظامي سحقاً بين أسنانه لو شاء ذلك، لذا علينا أن ننتظر إلى أن يكون راغباً في ذلك. اذهبي وابحثي عن وانغ ـ هسايو. ربما كان في وسعه أن يقنع الأسد بفتح فمه.

وافقت زوجـة وانـغ ـ تشينـغ على طلب زوجهـا بامتعاضٍ عادت إلى بيتهـا لتبحث عن شقيق زوجهـا. ونقَّبت البلدة عنه إلا أنه كان قد غادرها مع ثروتـه التي أحـرزها في الآونة الأخيرة. ولم تكن تعرف أي شخص آخر لديه من القـوة ما يكفي لتحـريـر زوجهـا، لذا استأجرت غرفة في قرية قريبة خلال الأشهر الثلاثة التالية، وطفقت تقوم برحلات يومية إلى المعبد لتقوم بإطعامه. ومـع نهايـة تلك المـدة كانت مدخـراتهـا قد نفذت، وكان كلُّ مافي وسعها أن تقدِّمه لزوجها كعكة أرز تفهة المذاق.

وألمَّ الهزال والوهن الشديد بوانغ ـ تشنغ إلى حد جعله لا يقوى على تناول الطعام إلا بجهد جهيد. وراحت زوجته تلقمه الطعام وكأنه طفل، ثم حين تناولت ماتبقى طفقت تبكي. وأثابتها إلى رشدها ضحكة عميقة تناهت

من فم الأسد، الذي ما إن ضحك حتى تحررت يد وانغ ـ تشنغ المحتجزة.
زأر الأسد قائلاً:

ـ لقد تعلمتما درسكما. إنني أعد أن أتولاكما برعايتي إن توليتماني برعايتكما.

ومنذ ذلك اليوم أولى الزوجان مزرعة أخيهما المهجورة والمحيطة بالمعبد رعايتهما، فقاما بترتيب ساحة المعبد، وأوليا الأرض عنايتهما، وقدما القرابين أمام المزار، وراحا يضعان الزهور عند قدمي الأسد كل يوم. ولم يتحدث الأسد مرة أخرى، ولكنه أكد إزاء رعايتهما أن أرضهما ستكون مثمرة على الدوام.

الفهرس

تأتي معظم أساطير وخرافات هذا الكتاب من الكونفوشيوسية والطاوية والبوذية. وهذه الأساطير هي ترجمات من مجموعات من الحكايا، نشرت من أجل سكان الصين العاديين، أو سردوها بأنفسهم. ونشاهد فيها الضعفاء والفقراء والبسطاء والذين لاحول لهم ولا قوة وهم ينتصرون على الأثرياء والمتكبرين والفاسدين، إنه الرجل الصغير ضد العالم.

إنها نتاج أساطير وخرافات وديانات وتجارب وحكم وحكايات شعبية، تلقي ضوءاً على الجانب الروحي من التكوين الثقافي الصيني.

الناشر

السعر: ١٥٠ ل.س